القدس
كفّ وراءه مطالب

لطفي زغلول

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لـ
www.nashiri.net
© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب
نشر إلكترونيا في إبريل 2005
يمنع منعا باتاً نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع ناشري تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.
حرره للنشر الإلكتروني: نضال نجار
تصميم الغلاف: رهام الشاهين

محتويات الكتاب

- اهـــداء
- استهلال
- اولا : القدس
- ثانيا : الاستيطان
- ثالثا : الأسرى
- رابعا : جدار الفصل العنصري
- خامسا : القضية وأميركا
- سادسا : انتفاضة الأقصى
- سابعا : العملية السلمية
- ثامنا : موضوعات ذات علاقة بالقضية الفلسطينية

اهـــــــداء

الى الغالية سلمى
الى أحبائي
م.عبداللطيف
شادن ، محمد ، سلمى الصغيرة
م. أيمن وأميرة
والى كل ذرة من ثرى فلسطين
الانسان والتاريخ والعقيدة والانتماء

لطفي زغلول

استـــهـــــلال

بقلم : د. جهان س. عبد الحق

فلسطين . . حق وراءه مطالب ؛ هو العنوان الذي اخترته لهذه المجموعة المختارة من مقالات الكاتب والشاعر الفلسطيني عضو الهيئة الاستشارية لاتحاد كتاب فلسطين لطفي زغلول والتي كتبها على مدى سنوات طوال ، اخترت منها الأحدث فيما يخص القضية الفلسطينية .
باستطاعتي القول والجزم في آن واحد أن هذه المقالات تمثل رؤية فلسطينية مستقلة تفيأت ظلالا وطنية وقومية وعقائدية . وهي تجسد مجتمعة منظوره الثلاثي الابعاد للقضية الفلسطينية ، هذا المنظور الذي ينتمي الى العروبة والاسلام الى جانب منتماه الوطني الفلسطيني .
لقد تطرق كاتبنا من خلالها الى موضوعات ذات صلة وثيقة بالقضية الفلسطينية تحمل في طياتها الشمول مثالا لا حصرا : القدس والاقصى ، الاستيطان ، الاسرى ، جدار الفصل العنصري ، انتفاضة الأقصى ، الثوابت الفلسطينية ، المنظور الاسرائيلي للقضية ، الولايات المتحدة والقضية ، القضية ومسؤولية بريطانيا ، العملية السلمية ، وغيرها الكثير .
وانطلاقا من هذه الابعاد والموضوعات ينبري كاتبنا لطفي زغلول متسلحا بايمانه للدفاع عن فلسطين التي مهما تقادم الزمن على استلابها واغتصابها ، فانها تظل حقا مشروعا وراءه مطالبون شرعيون على امتداد الكرة الارضية وعلى مر الزمن ، لا يمكن أن يتخلوا عنه أو يتنازلوا برغم كل الظروف والتحديات .

القدس
للأقصى .. رب يحميه

❋) تهل هذه الأيام ذكرى الاسراء والمعراج الشريفين ، وتتزامن مع الصرخة المدوية " الاقصى في خطر " التي أطلقها مؤخرا فلسطينيو الداخل في المهرجان الشعبي الذي اقيم في مدينة أم الفحم . لقد كان من المفترض أن يكون لهذه الصرخة أصداء في العالمين العربي والاسلامي . الا أن شيئا من هذا القبيل لم يحدث لا على المستوى الجماهيري ولا الرسمي ، ولا حتى على مستوى لجنة القدس المنبثقة عن منظمة المؤتمر الاسلامي .
*) ولا غرابة في ذلك ، فهذان العالمان غارقان في مشاغلهما الدنيوية من مهرجانات ومؤتمرات واجتماعات ومباريات وبرامج ترفيهية تبثها فضائياتهما . أما الاقصى وان تعدى مرحلة الخطر ودخل مرحلة الهجوم عليه ، فانه له شعبه الفلسطيني الذي ما زال يفديه بدماء ابنائه ، وله رب في السماء يحميه .
*) فلسطينيا .. المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ليس مجرد مسجد يصلي فيه المسلمون كبقية المساجد رغم أنها جميعا بيوت الله . وعلاوة على انه احد بيوت الله الا ان له خصوصية وتميزا ، فهو ينظر اليه عبر بعدين أولهما أنه قبلة المسلمين الأولى في صلاتهم ، وهو الحرم المقدسي في القدس الشريف ثالث الحرمين الشريفين – حرم بيت الله الحرام في مكة المكرمة، والحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة – وهي اقدس مقدسات المسلمين .
❋) أما البعد الثاني فكونه يحتل مساحة شاسعة من تاريخ الاسلام ويضيء فضاء رحبا من فضاءآته التاريخية . لقد كان المسجد الاقصى المبارك على مدى التاريخ محط اهتمام الخلفاء والقادة والحكام المسلمين ، فتركوا بصماتهم الحضارية على رحابه وفي جنباته احتراما لمكانته المقدسة الفريدة . ويوم احتل الصليبيون القدس وصالت وجالت خيول الغزاة في رحابه الطاهرة شكل ذلك كابوسا أرق المسلمين ليل نهار الى أن حرره الناصر صلاح الدين وحمل معه المنبر الذي أعده السلطان نورالدين زنكي الذي عزم على تحريره ، الا أنه وافته المنية قبل أن يبر بوعده الذي تشرف به الناصر صلاح الدين .
❋) ان المكانة التي تحظى بها القدس لدى المسلمين جميعا كونها تشرفت بحضانتها للمسجد الاقصى وللصخرة المشرفة ، فأصبح تاريخ القدس من تاريخه والحديث عن القدس يعني في الدرجة الاولى الحديث عن الاقصى . فالقدس بلا أقصى ليست قدسا مهما كبرت مساحتها وازدهر عمرانها . ويكفيها انه منحها لقب القدس الشريف التي شكلت ولا تزال عاصمة روحية لملايين المسلمين في شتى أنحاء المعمورة .
❋) في التاريخ العربي المعاصر سقطت القدس مرتين في أيد غير اسلامية . كان السقوط الأول لها في العام 1918 على أيدي القوات البريطانية بقيادة الجنرال " ألنبي" الذي احتلها بعد معركة دامية شرسة استمات العثمانيون آنذاك في الدفاع عنها . ومنذ العام 1918 وهو بداية تاريخ الانتداب البريطاني على فلسطين وحتى العام 1948 وهو عام نهايته ، لم يتعرض المسجد الاقصى ولا مسجد الصخرة المشرفة الى أي أذى أو اعتداء .
❋) الا أن السقوط الأخطر للقدس كان في السادس من حزيران 1967 على أيدي القوات الاسرائيلية التي احتلتها منذ ذلك الوقت وأعلنت ضمها " بقانون " أصدرته آنذاك . والحديث عن التغييرات التي أحدثها الاحتلال الاسرائيلي للمدينة المقدسة واسع جدا . الا أن ما يعنينا هنا هو ما تعرض له المسجد الأقصى من اعتداءات وانتهاكات ومحاولات اقتحام متكررة في ظل هذا الاحتلال .
❋) وهي وان كان هدفها واحدا لا يمكن تجزئته ويتمثل في الاستيلاء على المسجد الاقصى لاقامة الهيكل الثالث المزعوم على انقاضه ، الا أنه يمكن تصنيف هذه الاعتداءآت والانتهاكات . ففي الحادي والعشرين من شهر آب من العام 1968 تعرض المسجد الاقصى الى حريق متعمد أسفر عن احتراق منبر صلاح الدين التاريخي والحاق تلف كبير في أثاثه . وقد تكررت محاولات الاحراق الا انها جميعا باءت بالفشل . كما أن المسجد الاقصى تعرض الى مآمرات حاكتها جهات اسرائيلية متطرفة لها أهداف في تدميره .
❋) الا أن الخطر الاكبر الذي يتهدد المسجد الاقصى هو تلك الحفريات المنظمة في اساساته وتلك " الاجراءات " التي تمارس تحت الارض والتي أثارت شكوكا حقيقية في طبيعة النوايا والدوافع التي تقف وراء مثل هذه

الاجراءات التي يرى المسلمون فيها أنها قد تحدث خلخلة في اساساته يمكن أن تؤدي لا سمح الله الى تصدعه وانهياره .

❋) وفي ذات السياق ففي العام 1996 وتحديدا في شهر ايلول حدث انتهاك خطير على مستوى اسرائيلي رسمي في المسجد الاقصى ممثلا بافتتاح النفق الكائن تحته سياحيا الأمر الذي أدى يومها الى "انتفاضة النفق" وسقوط عدد كبير من الشهداء الفلسطينيين احتجاجا على التصرف الاسرائيلي . وفي ذات الصدد لا تخفي جهات اسرائيلية مطامعها في المسجد الاقصى ومنها أن هذه الجهات قد اقترحت "تقاسمه" بحيث يكون ما تحته اسرائيليا وهو يكون اسلاميا .

❋) ويقودنا هذا الى الحديث عن نمط آخر من الاعتداءات يتعرض لها المسجد الاقصى وهو بحد ذاته يشكل خطرا مبرمجا تقف وراءه جهات تدعي أن لليهود حقا في الصلاة فيه . وهنا يمكن مثالا لا حصرا التذكير بالزيارة الاستفزازية التي قام بها رئيس الوزراء الاسرائيلي الحالي في ايلول من العام 2000 والتي كان لها الدور الرئيس في انتفاضة الاقصى الحالية .

❋) الا أن الحديث عن جماعة "أمناء الهيكل" يصور قمة الخطر الذي يتربص بالمسجد الاقصى . فهذه الجماعة قد أعدت الخرائط الهيكلية لبناء ما تزعم أنه "الهيكل الثالث" . ولكي تعطي انطباعا بالجدية والتصميم فقد أعدت حجرا ضخما أطلقت عليه " حجر الاساس " حاولت قبل عامين أن تقتحم رحاب المسجد الاقصى لكي ترسيه في باحته وتجعل منه حجر اساس لبناء هذا الهيكل المزعوم . الا أنها فشلت بذلك فطافت به على متن شاحنة في شوارع مدينة القدس مدللة بذلك على أنها لن تتراجع عن نواياها ومتحدية كل المشاعر الاسلامية .

❋) ان هذا المسلسل من الانتهاكات والاعتداءات والنوايا المبيتة لا يقف عند حد . ويأتي قرار وزير الأمن الداخلي الاسرائيلي مؤخرا بالسماح لليهود بالصلاة في المسجد الاقصى تطورا خطيرا للغاية في السياسة الاسرائيلية الرسمية المعلنة تجاه الاقصى. ويأتي هذا القرار استكمالا لسياسة التحكم والمنع التي تفرضها اسرائيل على زيارة المسجد الاقصى لاداء الصلاة فيه وبخاصة الفئات الشابة. ويتساءل المسلمون في هذ الصدد فيما اذا كان هذا القرار مقدمة لفرض سياسة "المقاسمة" التي تتبعها في المسجد الابراهيمي في مدينة خليل الرحمن .

❋) ان القرار الاسرائيلي يأتي استفزازا للمشاعر الدينية الاسلامية ومساسا بحرمة مكان من أقدس الاماكن للمسلمين في العالم . والسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح : هل ان اسرائيل قد اختارت هذه الآونة بالذات لقرارها هذا مصادفة ، أم انها قصدت بها أن تنزل ضربة اخرى بالعالمين العربي والاسلامي استكمالا لضربة العراق ، وبذا يكون هذان العالمان قد اصيبا في مقتلين عقائدي وحضاري تراثي معا ؟ .

❋) ان ما يحدث الآن على ساحة المسجد الاقصى المبارك ما كان له أن يحدث البتة لو أن الامة الاسلامية بعربها وعجمها وبسنتها وشيعتها كان لها موقف صارم وحازم حيال هذا الاستهداف لمقدساتها والاستخفاف بها ، أو انه كان لأنظمتها السياسية ولو مساحة مهما صغرت تخص القدس ومقدساتها على أجندتها السياسية طوال أربعة عقود من الاحتلال . لقد أثبت الايام أن القمم العربية والاسلامية والمؤتمرات بعامة ، ولجنة القدس المنبثقة عن المؤتمر الاسلامي بخاصة لم تكن جادة وقراراتها فقاقيع في الهواء ، وكانت في واد والقدس ومقدساتها في واد آخر .

❋) وتظل القدس والمسجد الاقصى والصخرة المشرفة أمانة في أعناق الفلسطينيين الذين جادوا على شرفها بدماء فلذات اكبادهم وما زالوا يجودون . وهم يسألون العلي القدير ان يعود العرب والمسلمون الى صوابهم ولم شملهم وحميتهم في الدفاع عن مقدساتهم . وللأقصى رب يحميه وشعب يفديه .

القدس: بركان القضية

- عديدة هي الدوافع التي تكمن وراء الصراع في فلسطين ، الا أن واحدة منها تظل هي الأساس ونعني بها قضية القدس . فقد دلت التجارب منذ بدايات القرن الماضي وحتى بدايات القرن الحالي على أنها كانت بمثابة بركان القضية . فما ان يهيأ للمرء أنه خمد حتى يعود ويثور ثانية . وهكذا فان القدس في وضعها الحالي تحمل في ثناياها عوامل الانفجار في كل لحظة ودون سابق انذار . وتظل العامل الأول في عدم الاستقرار وفقدان السلام والأمان طالما أنها لم ترجع الى وضعها السابق . وليس أدل على ذلك من الأحداث الأخيرة الخاصة " بحجر أساس الهيكل المزعوم " .
- وهذا يجعلنا على الدوام أن ستبقي على القدس نقطة ساخنة في تفكيرنا حتى يظل منسوب التواصل بينها وبيننا في أعلى مستوياته . فالتراخي أو الاغفال او الانقطاع في صددها له مخاطر جمة من المؤكد ان طرف النزاع الآخر سوف يفسرها على أنها من قبيل التنازل والتخلي والتسليم بالأمر الواقع .
- ويقودنا الحديث - وقد وصلنا الى هذه النقطة بالذات - الى أن نتطرق الى الترجمة الحقيقية للخطابين الاسرائيلي من جهة والعربي الاسلامي من جهة أخرى فيما يخص القدس . فالخطاب الاسرائيلي النظري بشأن القدس قديم لا جديد فيه . الا انه يحظى على الدوام بتأكيد الاصرار عليه فهو بمثابة علكة سياسية في أفواه الساسة والمسؤولين الاسرائيليين أيا كان لونهم السياسي . وفي هذا الخطاب تتحد كل ألوان الاطياف السياسية من أقصى اليمين الى أقصى اليسار .
- وقد يكون هذا الخطاب النظري لا يعني الكثير لولا أنه في حالة القدس قد تلازم بعداه اللفظي والفعلي معا وتقاطعا في كل النقاط الرئيسة . وقد لا يكون هناك مبالغة في القول اذا ما نوهنا الى حقيقة أن الفعل الاسرائيلي كان يسبق القول ويعلو عليه . فمنذ العام 1967 وهو عام الاحتلال لبقية الاراضي الفلسطينية حتى اللحظة الراهنة وهي تمثل العام الخامس والثلاثين لهذا الاحتلال ، تمكن الفعل الاسرائيلي من تغيير كثير من معالم جغرافية القدس وديموغرافيتها الأمر الذي شكل خطورة لا سابق لها على طابعها التاريخي العربي الاسلامي . وفي نفس الوقت فقد اتسعت مساحة التهويد وكادت تصل الى منتهاها وهي تقف عند رأس هرمها المتمثل ببناء الهيكل الثالث .
- واستكمالا لاستراتيجية الاستحواذ على القدس فان السياسة الاسرائيلية التي يخشى صانعو قراراتها من كل ما يمت الى المجتمع الدولي المتمثل بالشرعية الحقيقية وبخاصة فيما يتعلق بعدم اعترافه بمشروعية كل ما فرضه الاحتلال الاسرائيلي على القدس من اجراءات وقوانين وتطبيقات اخرى ، فقد لجأت اسرائيل الى الولايات المتحدة الاميركية باعتبارها حليفتها الاقوى في العالم لكي تقف معها وتنصرها وتؤيد كل اجراءاتها التي اتخذتها بعكس مهب تيار الشرعية الدولية واصحاب الحق الشرعيين .
- وقد تمكنت اسرائيل من توسيع مشهد الدفاع عن القدس بما يخدم مصالحها ويدعم كل خطواتها واجراءاتها فيها . فمنذ العام 1995دخل الصراع على القدس مدخلا جديدا أصبحت الولايات المتحدة الاميركية طرفا مواجها فيه ومتحديا للأمان والحقوق العربية الاسلامية في القدس . وهي أيضا لم تكتف بالوقوف عند قرار الكونغرس في العام 1995 باعتبار القدس عاصمة اسرائيل ، وانما أدخلته " كعلكة سياسية " في أفواه المتنافسين على الوصول الى البيت الأبيض وكان آخرهم الرئيس الحالي " جورج بوش الابن " الذي أجل قرار نقل السفارة الاميركية الى القدس ، لكنه لم يبطل هذا القرار .
- في مقابل هذه الاستراتيجية الاسرائيلية المطبقة بحذافيرها والتي كادت تنهي تطبيقاتها الميدانية في القدس ومشروعات الاطباق عليها "يبرز " رد الفعل العربي والاسلامي . ولسنا هنا بصد اعادة مشاهد التقصير العربية والاسلامية على مستوى الانظمة السياسية ، فهي كثيرة وباتت معروفة لدى القاصي والداني . الا أننا نود هنا التنويه الى ملاحظة وحقيقة في آن واحد . أما الملاحظة فالى جانب " استراتيجية الصمت والتقصير " تجاه القدس والمقدسات الاسلامية فيها ، فان الانظمة السياسيةالعربية تسعى جاهدة الى أن تشاركها جماهيرها في هذا التوجه . لذا ومن هذا المنطلق تتخذ كل الاجراءات المشددة والقمعية أحيانا للحيلولة دون تعبير هذه الجماهير عما يعتمل في نفوسها ووجداناتها تجاه القدس ومقدساتها باعتبارها جزءا هاما وعزيزا من التاريخ والعقيدة .

-واستكمالا لهذه الملاحظة فخلال الاعوام الخمسة والثلاثين وهي عمر احتلال القدس اهملت هذه الانظمة القدس في ثلاثة اتجاهات . الأول وهو السياسي فقد قصرت أن يكون لها استراتيجية بشأنها، أو أن تدعم مطالباتها باجراءات على أرض الواقع فيما يخص التعامل مع الدول الاخرى . وأما الاتجاه الثاني فهو اعلامي . فمن منطلق أن الاعلام بكافة أشكاله بأيدي هذه الانظمة ، فقد قصر داخليا وخارجيا تقصيرا كبيرا في ابراز القدس كتاريخ وثقافة وعقيدة وخط أحمر . وأما الاتجاه الثالث فيتمثل بالتربية . فقد خلت المناهج ولا تزال مما تستحقه القضية بعامة والقدس بخاصة من مساحة معقولة تخصص لها كجزء من تربية الاجيال العربية . وثمة مجالات اخرى كان فيها تقصير واضح . وهذا بطبيعة الحال ينطبق على كافة الانظمة الاسلامية غير العربية .

- أما الحقيقة فان الجماهير العربية والاسلامية تعتبر القدس جزءا هاما من العقيدة والتاريخ والتراث ولا تتصور أنها يمكن لها أن تتخلى عنه بسهولة أو أن تسلم بكل المتغيرات التي حاقت بها . ان المراهنين على حالة الصمت العربية والاسلامية فيما يخص العقيدة خاسرون دون شك . فالعرب والمسلمون في اعتقادنا لم يقولوا بعد كلمتهم او انهم بصحيح العبارة قالوها ولكنهم لهم حساباتهم الخاصة بهم فيما يخص ترجمة هذه الكلمة على أرض الواقع وثمة أمر آخر لا ينبغي اغفاله كون التقصيرات العربية والاسلامية المشار اليها لا تشكل حجر عثرة أمام الاصرار على استرجاع القدس ، فالعقيدة أقوى من السياسة والاعلام والتربية والثقافة الاخرى .

- وخلاصة القول ان قضية القدس والمقدسات الاسلامية فيها تتجاوز كل تراكمات التقصيرات العربية والاسلامية بحقها ، ولا تغيبها من الذاكرة أو تعتم عليها فهي تشكل مساحة شاسعة من التاريخ والتراث والعقيدة . والقدس بركان قد يبدو أنه خامد لكن احتمالات ثورته قائمة على الدوام وليس لها وقت معين .

الحـرم القدسي والعملية السلمية

❋) فـي انتظـار المبـادرة التـي تعكـف الادارة الاميركيـة علـى اعـدادها بهـدف اعطـاء دم جديـد للعمليـة السلمية فـي الـشرق الاوسـط والتـي اصـيبت بانتكاسـة خطيـرة فـي الآونـة الاخيـرة جـراء تـضارب المنظـورين الفلـسطيني والاسرائيلي ، وعدم التقائهما في أي من القضايا ذات الاهمية والحساسية ، فاننا لا نجد ضيرا في استباق الامور للحديث هنا عن واحدة من اخطر القضايا واكثرها حساسية في مجمل العملية السلمية ، ونقصد بها القدس بعامة والمقدسات الاسلامية بخاصة والمتمثلة بالحرم القدسي الشريف . وهذا لا يعني الاقلال من شأن بقية القضايا الاخرى .

*) وفي اعتقادنا ان الحديث عن القدس والمقدسات الاسلامية هو من حق أي فلسطيني او عربي او مسلم ان يدلي دلوه فيه ، مع تأكدنا انه ليس ثمة ادنى اختلاف في الرأي من ان القدس مدينة عربية اسلامية محتلة ، وانها ينطبق عليها ما ينطبق على كافة الاراضي العربية المحتلة، علاوة على انها حاضنة للحرم القدسي الشريف باعتباره احد اقدس المقدسات الاسلامية .

*) وحتى الآن فان الادارة الاميركية رجحت وما زالت ترجح كفة توجهات الطرف الاسرائيلي في المفاوضات الدائرة . وتحاول بشتى الوسائل الضغط على الفلسطينيين لقبول تسوية لا تتقاطع والاماني الوطنية الفلسطينية في دولة حقيقية طاهرة مطهرة من المستوطنات عاصمتها القدس ، ولا الاماني العقائدية في السيادة على مقدساتهم . واغلب الظن ان المبادرة الاميركية الجديدة – سواء اعلن عنها او اجلت - سوف تكون هي الاخرى دون خط الحد الادنى الذي رسمه الفلسطينيون لمستقبلهم . ففي سياق الحديث عن هذه المبادرة الجديدة تتردد اقاويل حول طرحين اميركيين اولهما تأجيل البحث في القضايا ذات الحساسية ومنها القدس والمقدسات الاسلامية ، وهذا مرفوض فلسطينيا بطبيعة الحال . وثانيهما تولية مجلس الأمن الدولي السيادة على المقدسات الاسلامية في القدس واذا ما صح أي من هذين الطرحين اللذين هما دون شك بالاتفاق مع الطرف الاسرائيلي ، فان كلا من الادارة الاميركية واسرائيل، والحال هذه ، تراهنان على الحصان الخاسر لا محالة . فالاساس في التسويات سواء كانت المرحلية منها او النهائية وهي الاهم والاخطر ، ان يكون هناك وفاق واتفاق ورضا من كافة الاطراف المتنازعة وذلك حتى تحظى بنسبة معقولة من القبول ، وضمانا لاستمراريتها وعدم انهيارها . وفي حالة القدس ، وهي واحدة من الاستحقاقات الفلسطينية التي لا ينظر الفلسطينيون اليها على انها شريحة جغرافية كغيرها . وانما ينطلقون من كونها جغرافيا عقائدية تاريخية تراثية ، فضاؤها ذاكرة العروبة والاسلام على مدى العصور .

❋) وانطلاقا من هذه الحقائق التي لا تقبل الشك في مصداقيتها وثباتها وموضوعيتها ، فان اية مبادرة مستقبلية يعد لها لا تأخذ بعين الاعتبار السيادة الفلسطينية على القدس والاماكن الاسلامية هي بمثابة نزع حق في سيادة شرعية فلسطينية عربية اسلامية ، واحلال سيادة غير شرعية مكانها ، حتى لو كانت هي الشرعية الدولية الممثلة بمجلس الامن الدولي . وهي من منظور تجاربنا مع المفاهيم الاستعمارية ليست الا " وصاية " على طرف واحد ينظر اليه وكانه قاصر لم يبلغ سن الرشد السيادية او انه " معوق سياديا " .

❋) وحقيقة الامر ان الذين يفكرون بمثل هذه الطروحات او يخططون لها ، اما انهم يعيشون في الخيال ، او انهم يظنون انهم يملكون الوسائل والاليات والقدرات المختلفة لتمريرها بكل يسر وسهولة . وحقيقة الامر فان الطرحين اخطر من بعضهما . ففي حالة التأجيل فان الهدف وراءه خلق واقع تهويدي ذي مسافة زمنية طويلة الامر الذي يشكل افدح الخطر على القدس والمقدسات الاسلامية . وفي الحالة الثانية فان الهدف المستتر هنا هو الاستيلاء على هذه المقدسات باسم الشرعية الدولية ، وكأن العالم الاسلامي مغيب عن الحدث ولن تكون له ردود افعاله ازاء هذا الطرح المؤامرة . وحقيقة اخرى ان الفلسطينيين والعرب والمسلمين ينظرون الى مجلس الامن الممثل " للشرعية الدولية " انه افتقد هذه الشرعية ، كونه قام بتجييرها الى الاقوياء المتنفذين ، وبذلك اصبحت انتقائية ازدواجية المعايير منحازة متعامية عن رؤية حقائق القضية الفلسطينية ، ومآسي الفلسطينيين الذين لهم الكثير من الاستحقاقات في ذمة مجلس الامن الذي لم يقم عامدا متعمدا بتسديدها . ولعل القرارات "338،242،194،181" تؤكد الاتهامات وتبرر الادانات لهذا النمط من الشرعية التي يتم التخطيط لها لتهيمن على المقدسات الاسلامية في القدس والتي هي من دون ادنى ريبة او شك غير مؤتمنة ولا حيادية . وهي بالتالي قناع يخفي تحته تجسيد الاوضاع

الاحتلالية القائمة التي تكرس تفريغ القدس من مضمونها العربي الفلسطيني الاسلامي ، وبالتالي الى الغائها من ذاكرة اهلها الشرعيين .

❋) ان الفلسطينيين الذين كانوا الامناء على القدس ومقدساتها ، ومعهم اشقاؤهم العرب والمسلمون لا يعقل ان يرهنوا المساحة الاكثر اشراقا من فضاءات عقيدتهم وتاريخهم وامجادهم وتراثهم لغير ابنائهم ، فهي وقف عليهم وان طال الزمن . اما الحديث عن مجلس الامن وشرعيته الدولية ، ففي اعتقادنا انه – في هذا المضمار – لا مكان لهما في القدس ، كونهما فقدا المصداقية ، واصبحا سيفا مسلطا على رقاب الشعوب ، ورهينة لمنظور القوة الاحادية القطب صاحبة المصالح الخاصة التي لا تقف عند حد من الحدود .

❋) ان سيادة "شرعية دول الفيتو" على الأماكن الاسلامية المقدسة في القدس ، وبمعنى ادق على الحرم القدسي وبتفصيل على المسجد الاقصى المبارك ومسجد الصخرة المشرفة ، هو سابقة خطيرة وليس لها الا تفسير واحد – لا سمح الله – مفاده ان العالم الاسلامي قد فقد كل مقوماته العقائدية والتاريخية ، وانه قد تنازل عن مقدساته . وحقيقة الأمر عكس هذا تماما ، فالمقدسات الاسلامية أيا كانت وكان مكانها ، لها على مر الزمان من يحميها ويدافع عنها ويضحي من اجلها ، ولها قبل هذا وذاك رب يحميها .

سلام على القدس

❋) بيان "دورة القدس" للانعقاد الرابع عشر بعد المائة لجامعة الدول العربية ، ومن قبله البيان الختامي لاجتماع "لجنة القدس" المنبثقة عن منظمة المؤتمر الاسلامي الأخير المنعقد في المدينة المغربية اغادير ، يمكن قراءة مخرجات ايجابية عديدة من خلال سطورهما . فهما بداية قد جاءا في وقت احوج ما تكون فيه الامتان العربية والاسلامية بعامة والشعب الفلسطيني بخاصة الى موقف عربي اسلامي "يثبت ويؤكد ويجدد ويصر" على وحدة الانتماء الشامل الى القدس بصفتها جزءا لا يتجزأ من العقيدة ، وجوهرة واسطة عقد التاريخين العربي والاسلامي ، وقلب الوطن الفلسطيني النابض ، "ومشاركة ما" في النضال السياسي الذي يخوضه الفلسطينيون لاستعادة هذه المدينة . وحقيقة الامر ان هذين "التحركين" قد عملا على رسم حضور عربي اسلامي على خارطة الحدث الاكثر خطورة في تاريخ العرب والمسلمين ، وانهيا الغياب الطويل للصوتين العربي والاسلامي اللذين راهنت عليهما كثير من الجهات المعادية وعملت تحت جنح ظلامهما . وثانية هذه المخرجات الايجابية ، تتمثل في وحدة المنظورين الاسلامي والمسيحي بكل طوائفه في ما يخص القدس . فقد اثبت انعقاد الاجتماع الثامن عشر للجنة القدس بدعوته لممثلي هذه الطوائف في فلسطين ان المنظور الاسلامي منفتح على استحقاقات الآخرين في القدس ، وانه متسامح وغير مستأثر بالرأي او مستبد به . وليس هذا بجديد ولا يمثل تغييرا في المنهجية الاسلامية التي حرصت منذ فتح القدس على ايدي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب على تجسيد احترام حرية الديانات الاخرى ، والحفاظ على حقوقها في اماكنها المقدسة واقامة شعائرها وطقوسها الدينية فيها . والعهدة العمرية ما زالت اضاءة نيرة في فضاء تعامل المسلمين مع الديانات الاخرى . واذا كنا هنا قد استقرأنا التاريخ والعقيدة ، فلكي يكون الرد واضحا وصريحا وداحضا لكل الادعاءات التي اتهمت المسلمين ماضيا وحاضرا بانهم يستأثرون بهذه المدينة المقدسة ، ويتحكمون بها على هواهم ، وبأن غيرهم كان احرص منهم على حرية الأديان والحفاظ على مقدساتها واقامة الشعائر فيها . ونذكر هنا بما لحق الاماكن المقدسة الاسلامية من اذى واعتداءات متواصلة ، ومن كافة اشكال التهديدات التي استهدفتها وتستهدفها من اساسها . وثالثة هذه المخرجات الايجابية تتمثل في الدعم السياسي والمعنوي اللذين حظيت بهما الرؤية الفلسطينية تجاه القدس . فقد ظل الفلسطينيون ومنذ فرض الاستعمار وجوده في بدايات القرن الماضي على الوطن العربي ، يتوقون الى ان تكون لهم دولتهم الحرة ، يمارسون على ثراها كافة اشكال حقوقهم المشروعة في السيادة ، وفي مقدمة كل ذلك ان تكون القدس عاصمتهم السياسية والثقافية والروحية والتاريخية ، كونهم المالكين بموجب سجلات رسمية موثقة المساحة العظمى من اراضيها وعقاراتها ومنشآتها التاريخية والدينية على مر القرون توارثوها جيلا عن جيل ، وولدا عن والد . وحينما حلت النكبة بالشعب الفلسطيني تبين بما لا يدع مجالا للشك ان اهدافها الرئيسة كانت اقتلاعهم من الارض والهوية والانتماءات الاخرى ، واطفاء جذوة ذاكرتهم التاريخية والوطنية. الا ان القدس ظلت هي النار والمنار . وظل الفلسطينيون امناء عليها ، وظلوا الصوت العربي الاسلامي المدوي والمنبه والمحذر والمصر على استرداد الحق في القدس اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين

❋) وبرغم كل هذه المخرجات الايجابية . لا بد لنا من الاشارة الى بعض الحقائق المرة . واولاها تخص الخطاب العربي الاسلامي اتجاه القدس فهو بوتيرته الحالية دون الحد الادنى المطلوب . كما انه يفترض ان يكون اكثر شمولا واشد اصرارا واوسع تمثيلا واعلى مستوى سياسيا . فالعقيدة والتاريخ هما لجميع العرب والمسلمين وليس "للقلة" التي حضرت اجتماع لجنة القدس في اغادير والتي كان يفترض ان تكون على اعلى مستوى سياسي رسمي . كما ان القدس يفترض ان تكون عاملا وحدويا يجمع الاشقاء لا يفرقهم ، ويشد عزائمهم لا يرهلها ، ويطفئ نار خلافاتهم لا يزيد في اضرامها ، كي لا تدور قضية القدس في فلك التناقض بين "التأييد والمرونة" كما في "دورة القدس" الاخيرة . وثانية هذه الحقائق تخص التقصير الاعلامي وبخاصة الفضائي منه فحتى الآن لم تشكل القدس بالنسبة له قضية اعلامية خطيرة تستحق الاهتمام والتركيز عليها ، كما تحظى قضايا المال والاعمال والبترول والرياضة والسياسة ومهرجانات التسوق ، والاغاني التي تخدش الحياء ، ولقاء الفنانين والفنانات . علاوة على ان بعض الفضائيات تصور القدس وكأنها قضية ذات بعد فلسطيني تخص فقط الفلسطينيين ، ولا تتناولها من حيث ابعادها العقائدية والتاريخية والتراثية .

❋) ان قرارات الدعم الصادرة عن "لجنة القدس ودورة القدس" لا ينبغي لها ان تظل حبرا على ورق وانما يفترض ان تحظى بتفعيل على ارض الواقع سواء في الاقطار العربية والاسلامية او في المنابر الدولية ، كي يصبح لها رصيد من قوة التنفيذ والمتابعة . ولعل اخطر ما في قضية القدس ان يفهم العالم ان موضوعات العقيدة والانتماءات الاخرى التي تمثلها القدس هي ليست محل مساومات ، وهي كل لا يتجزأ . واذا كان لا بد من حلول في المنطقة فلا ينبغي ان تكون على حسابها ، او على حساب طرف دون آخر . ان القدس العربية الاسلامية هي مفتاح السلام ، ولن يكون السلام بدون القدس سلاما ، كون القدس عقيدة وتاريخا وتراثا . ومن منظور كونها محتلة ، وان الشرعية الدولية لا تعترف بالواقع المفروض عليها جراء الاحتلال ، ومن حقيقة انه ما من نظام عربي او اسلامي وفي مقدمتها الفلسطيني يقبل على نفسه ان يفرط بالعقيدة والتاريخ وارث الآباء للابناء .

❋) وسلام على القدس تظل عامل وحدة وانتماء حتى في اشد حالات الفرقة العربية والاسلامية . وقد تكون – وليس هذا مجرد اوهام او اضغاث احلام – هي الخط الاحمر الذي يستعيد العرب والمسلمون عنده وحدة الهدف والصف . فسجل الانظمة العربية والاسلامية مثخن بالهزائم والانكسارات والتراجعات ، فعسى النضال من اجل استعادة القدس يمحو كل هذه السلبيات ويعيد الاضاءة التي خمدت في فضاءات التاريخين العربي والاسلامي .

القدس عقيدة وتاريخ وعاصمة

❋) تحتل القدس مكانة ذات خصوصية وتميز في مجمل التاريخ العربي الاسلامي انطلاقا من بداياته ومرورا باللحظات الراهنة التي لا تنتهي عند حد مستقبلي . فالتاريخ الاسلامي بدون القدس يكون مبتورا ويفقد احدى الاضاءات الأكثر اشراقا في فضاءآته . والقدس ليست مجرد جغرافيا اسلامية كبقية الجغرافيات الممتدة على القارات التي بسط الاسلام نفوذه عليها .انها جغرافيا لها قداستها الخاصة منذ ان اسرى الرسول الكريم (ص) اليها ، وعرج منها الى السماء ، ومنذ ان كانت قبلة المسلمين الاولى ، واقيم على ثراها المبارك ثالث الحرمين الشريفين . فهي بحق منظومة عريقة من تراث العقيدة وامجاد التاريخ واصالة الجذور .

*) واذا كانت القدس تمثل كل هذه الرموز والمفاهيم والمعطيات على مر العصور ، فان اثارة الادعاء بانها ما كانت في يوم من الايام عاصمة لدولة اسلامية ، هو في حقيقة الامر لا يشكل اية حجة قانونية لأي كان ، ذلك ان كلا من القدس الشريف ومكة المكرمة الاكثر قداسة كانتا فوق الاعتبارات الدنيوية والسياسية بالذات ، لكنهما ظلتا تتمتعان بمكانتهما الدينية التي لا تجرؤ اية جهة ان تستهين بهذا التوجه الاسلامي المنطلق من العقيدة او تقلل من اهميته . ومع ذلك ، وفي ما يخص القدس فلدى دراسة احيائها وساحاتها وحاراتها وطرقاتها ومساجدها ومبانيها ومرافقها الاخرى ، فانها تشهد بما لا يدع مجالا للشك ، انه ما من خليفة او سلطان او امير او وال او قائد اسلامي على مر العصور الا وحرص حرصا شديدا ان يكون له شرف اضافة مجيدة لاقصاها المبارك ومسجد صخرتها المشرفة ، ناهيك عن غالبية مرافقها الاخرى التي ما زالت شاهدا عليها ما تحمله من اسماء وتواريخ واحداث ، وما تتوارثه الاجيال من ذكريات تضحيات تجلت يوم سقطت القدس في اسر الصليبيين طيلة قرنين من الزمان ، فظلت جرحا نازفا في قلب الامة الاسلامية ، وارقا ماثلا في ذاكرتها حتى كان يوم تحريرها

*) ان هذا الحديث عن القدس من منظور عقائدي وتاريخي مقدمة لا بد من الاستهلال بها. فالقدس ايضا وفي هذا الزمان بالذات تؤكد ان العقيدة والتراث التاريخي ما زالا بخير وان الذين راهنوا على انغماس العالمين العربي والاسلامي في الماديات الدنيوية ، والاتجاهات الثقافية الحداثية التي لا تقيم وزنا للثقافة الانتمائية العقائدية قد حادوا عن جادة الصواب ، وتؤكد بما لا يدع مجالا للشك انهم خسروا الرهان ، وان اصحابها الشرعيين يهزأون من هذه التصورات الواهمة والتخيلات المريضة والاماني الشريرة ، ويختزنون موروثا من العقيدة قادرا على تقويم مسار تاريخ القدس الذي اعوج حينا من الزمن وان طال مداه .

*) وعلى الصعيد الفلسطيني فان القدس امانة عقائدية وتاريخية ووطنية في اعناق الفلسطينيين الذين لا يمكن –مهما جنح الخيال بالغزاة القابضين عليها – ان ينسلخوا عن عقيدتهم وتاريخهم وتراثهم المشترك وامتهم او امانيهم الوطنية فيها . كما ولا يمكن ان يفرطوا بهذه الامانة التي حافظوا عليها طوال القرون او ان يجيروا مساحة ما من عقيدتهم وتاريخهم وتراثهم لأي كائن مهما كانت الظروف ، او ان يقبلوا ان يشاركهم فيها شريك .

*) ان الحديث عن القدس ذو شجون واشجان ، ذلك ان راهنها هذه الايام يستحوذ على تفكير الفلسطينيين القيمين عليها ، وهم الذين وضعوا قضيتها في كفة ميزان ومجمل العملية السلمية في الكفة الاخرى . فالطروحات المشبوهة والمشروعات الاستفزازية التي تتصف بالسطحية وتشتم منها رائحة الاحتيال ومحاولة التخلص من هموم عدم الاعتراف القانوني الدولي ، وافرازات ما آلت اليه احوالها منذ العام 1967 على الساحات الفلسطينية والعربية والاسلامية والدولية . ان كل هذا وذاك قد اصبح في مهب اصرار اصحابها الشرعيين الذين انتظروا اللحظة المناسبة ليقولوا " لا " لغير استردادها ، وهم بذلك انما ينطلقون من حقهم فيها . وفي ما يخص الشرعية الدولية بحق القدس ، فعلى سبيل الذكرى فان الامم المتحدة لم تعترف بقرارها (181) بأية سيادة اسرائيلية على القدس . وفي العام 1967 صدر القرار (242) عن الامم المتحدة مؤكدا ان الاراضي العربية – والقدس بطبيعة الحال جزء منها – اراض محتلة ويجب اعادتها الى اصحابها الشرعيين . وقد تم ذلك فعلا في اتفاقيات السلام مع مصر والاردن ، والانسحاب غير المشروط من الاراضي اللبنانية .

*)وحقيقة الامر ان الاحتلالين في العام 1948 و1967 لم ولن يقدرا ان يطويا صفحتي القدس الغربية والشرقية ففيما يخص القدس الغربية ، فان السجلات الرسمية تؤكد ان ما يقرب من "70-80 % " من اراضيها ومرافقها الاخرى هي وقفيات اسلامية لا تسقط ملكيتها بالتقادم . اما ما يخص القدس الشرقية ، فقد تعرضت منذ احتلالها الى

عمليات تغيير جغرافية وديموغرافية لم تشمل ضواحيها فحسب وانما امتدت ايضا الى قلبها ، ناهيك عن عمليات مصادرة البيوت وتفريغ المدينة من السكان بمصادرة هوياتهم . ولعل اخطر هذه العمليات تمثلت في توسيع مساحتها بهدف قضم اراض فلسطينية وضمها لها بغية احاطتها بشريط استيطاني يعمل على تهويدها ، وخلق ما يسمى " بالقدس الكبرى " بغية تحقيق هدف يتصف بالسذاجة والخبث معا يتمثل في حلول تقوم على " التنازل " عن اجزاء من هذه " القدس الكبرى" التي لا تمت الى القدس الحقيقية بصلة .

*) ان قضية القدس مرتبطة بالعملية السلمية . ولا يمكن لهذه العملية ان تتم بمعزل عنها ، او تأجيل لقضيتها . فالتأجيل ليس له معنى الا الهروب والالتفاف على الحق المشروع ، ذلك ان السلام صفقة واحدة لا تحتمل التجزئة . فاما ان تكون او لا تكون . وفي ما يخص القدس فهي لا تقبل الشراكة ، ولا مبدأ التقاسم الوظيفي ولا حتى الاشراف على شؤونها البلدية ذلك انها اراض عربية لا يمكن التنازل عنها . والمنظور الفلسطيني العربي الاسلامي لا يتغير ولا يتجزء يتمثل في استعادة السيادة عليها كما كانت على مر عصور التاريخ العربي الاسلامي . واما الطروحات الهزيلة المتمثلة في مجرد الاشراف على الاماكن المقدسة ، او الحكم الذاتي لبعض احيائها و غير ذلك من الطروحات فهي مرفوضة كونها لا تعيد الحق الى نصابه واصحابه وتشكل – على فرض مستحيل لقبولها – تنازلا مجانيا عنها غير مبرر على الاطلاق ووصمة عار في تاريخ العقيدة والامة . ويظل الموقف الفلسطيني ثابتا تجاه القدس فهي مثلث عقيدة وتاريخ وعاصمة .

القدس ودوامة التحديات

❋) التحديات التي تتعرض لها مدينة القدس منذ احتلالها في العام 1967 حتى ايامنا هذه لا حصر لها فهي على مدار الساعة واليوم والشهر والعام ، واذا كنا قد اعتدنا على نمط من التحديات الناجمة عن الاحتلال بهدف الاستحواذ على المدينة وتهويدها ، فالقدس ايضا تواجه نمطا اخر من هذه التحديات آتيا من خارج المنطقة ، وعلى وجه التحديد من الولايات المتحدة الاميركية ، بدأ بقرار الكونغرس الاميركي على نقل السفارة الاميركية الى القدس مانحا بذلك وعدا للاعتراف بها كعاصمة لاسرائيل ومرورا بتحديات كثيرة اخرى لا مجال هنا لسردها ، وانتهاء بالتحدي الذي تشنه هذه الايام ادارة اكبر مدينة العاب ترفيهية في العالم والمسماة "والت ديزني" والذي نحن بصدده .

❋) فرغم ما ينطوي عليه المعرض الذي تزمع ادارة "والت ديزني" اقامته بين جنباتها تحت عنوان "القدس عاصمة اسرائيل" من مساس بمشاعر العرب والمسلمين وفي مقدمتهم الشعب الفلسطيني ، ورغم انه مناف للحق ويشكل استخفافا واستهانة باصحابه الشرعيين ، كونه اعتداء صارخا على جزء عزيز من تاريخهم الذي يسعى الاخرون لطمسه والالتفاف عليه ، نقول رغم كل هذه المحاذير -المعروفة مسبقا لادارة والت ديزني- وغيرها الكثير . الا انها خططت لتنفيذ هذا المعرض الذي لا مبرر لاقامته الا انه انحياز وتملق واستجداء لرضا اللوبيات اليهودية الضاغطة في الولايات المتحدة الاميركية واسرائيل والتي لا يهمها الا ان تجني مكاسب اعلامية وسياسية ، وارسال رسائل ذات مغزى بذلك للامة العربية في وقت يفترض فيه ان يعمل الجميع من اجل تنقية الاجواء وتهيئتها لتوطيد اسس سلام عادل وشامل ، لا تسميمها وشحنها وتوتيرها اكثر مما هي مسممة ومشحونة ومتوترة .

❋) ان قضية القدس حساسة ، وهي تحتل مساحة شاسعة جدا من الذاكرة الفلسطينية والعربية والاسلامية اكبر بكثير مما يتصوره البعض الذي يظن انه باحتلالها قد اسدل الستار على الفصل الاخير من الصراع العربي الاسرائيلي . ان استقراء الاحداث منذ احتلالها حتى هذه الايام يشير الى عكس ذلك تماما ، ذلك ان هذه القضية اكبر واعمق واخطر مما يتصور أي انسان كونها جزءا لا يتجزأ من الانتماء الى العقيدة والتاريخ والتراث .

❋) ونحن اذا كنا استهللنا حديثنا بهذه المقدمة ، فاننا نؤكد انها لم تصدر عن احساس ارتجالي وانفعال لحظي ، بقدر ما هي عواطف مئات الملايين تنطلق من العقلانية والمنطقية . وهنا وفي هذا المجال بالذات لا ننكر دور العواطف والمشاعر الجياشة في تذكر الحق والحفاظ عليه راسخا في ذاكرة الاجيال .

❋) وعودة الى "والت ديزني" التي حادت هذه المرة عن جادة الصواب بقرارها هذا الذي ادهش كثيرا من الاوساط العربية والاسلامية كون كثير من زوارها هم من العرب والمسلمين من شتى انحاء العالم ، واكثر من ذلك فهناك شركات طيران عربية تسير خطوطا مباشرة الى اليها ، وهذا يترك انطباعا في ان ما يجري هو عدم اكتراث ولامبالاة وعدوان على المشاعر من جهة ، اضافة الى ما يبثه من اهداف معادية تتوخى قلب الحقائق وتغيير المفاهيم وتجيير الحقوق لغير اصحابها . واكثر من ذلك كون زوارها هذه المرة سيتعرضون الى عملية غسل دماغ هدفها اقناعهم ان القدس هي "عاصمة اسرائيل" وبطبيعة الحال فان هذا المعرض سوف يشتمل على كثير من المعروضات والوثائق التي تنفي حق العرب والمسلمين فيها وتعتم عليه.

❋) لقد تعرضت القدس الى اخطر من هذا التحدي بكثير وما زالت ، واغلب الظن انها ستظل عرضة للتحديات والممارسات المعادية ما دامت الانظمة العربية والاسلامية سادرة في صمتها ولامبالاتها بما يجري في في هذه المدينة المقدسة وما يحاك ضدها في الداخل والخارج ذلك انها حتى الان لم تفكر التفكير الجدي او تبذل ما يفرضه عليها الواجب من تفعيل وسائل للدفاع عنها بصوت عال وحمية وحرارة .

❋) ويظل الامل معقودا على اللوبي العربي الاسلامي في الولايات المتحدة وكل الجهات الاخرى الغيورة على القدس والتي اثبتت بما لا يدع مجالا للشك انها باتحادها واصرارها تستطيع ان تتصدى وان تحقق انجازا . وهذا ما حققته في قضية كبرى شركات المطاعم الاميركية للوجبات السريعة في العالم والمسماة "بيرغر كنج" التي رضخت لضغوطات هذا اللوبي وتهديده بالمقاطعة الشاملة فالغت الامتياز الذي منحته لاقامة فرع لها في مستوطنة "معاليه ادوميم" المقامة على ارض مسلوبة من اراضي القدس . ان هذا الانجاز بحد ذاته يمكن ان يكون مثالا ومنوالا يحتذيان في ما لو كانت هناك إرادة وإصرار على العمل .

❋) اننا نعتقد وكلنا ثقة ان الامة العربية والشعوب الاسلامية تملك الكثير من الوسائل والامكانيات والاليات الضاغطة الا انها معطلة تعطيلا تاما ، والاسباب معروفة ولا حاجة هنا لاعادة سردها ، ولكننا نود ان نختتم حديثنا لنشير الى ان المستوطنين قد تنادوا لمقاطعة "بيرغر كنج" عقابا له على الغائه الامتياز المذكور . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : لو ان العرب والمسلمين يشهرون سلاح المقاطعة للدفاع عن قضاياهم المشروعة ويكيلون الصاع صاعين ، فماذا تكون المحصلة ؟ اغلب الظن انهم سوف يحققون انجازات ابسطها انهم يعيدون الوحدة الى كلمتهم والهيبة والمصداقية الى قرارهم .

❋) وخلاصة القول ان دوامة التحديات للقدس مستمرة ، واذا كان هذا التحدي الجديد الصادر هذه المرة الصادر عن قطاع خاص سياحي ترفيهي اميركي يزج نفسه في حلبة الصراع منحازا الى طرف دون اخر بلا مبرر اخلاقي وعقلاني ومنطقي ، ولم يلق الرد المناسب من الجهات العربية والاسلامية المعنية ، فيخشى ساعتئذ ان تستفحل التحديات من كل حدب وصوب وتصبح عندها حالة دائمة تجر وراءها -لا سمح الله- ما لا يحمد عقباه على مجمل قضية القدس .

والت ديزنيوالحملة على القدس

❋) بغض النظر عما اسفرت عنه الازمة التي افتعلتها ادارة والت ديزني ، الا انها من ناحية اخرى تثير كثيرا من الامور المتعلقة بالوطن العربي ، وتلقي مزيدا من الضوء على بعد آخر يخص طبيعة علاقة الآخرين به والتي يبدو من خلالها انهم يدركون تمام الادراك ما آلت اليه الاوضاع المزرية المتحكمة به ، الامر الذي منحهم مزيدا من الجرأة ليتجاوزوا حدود العلاقة المسموح بها ، وليحطوا رحال توجهاتهم ومصالحهم في عقر داره ، ضاربين عرض الحائط ومستخفين به شعبا وتاريخا ومقدسات وثقافة غير آبهين بردود افعاله الخافتة الخجولة المتآكلة والمنقسمة على نفسها . وهذا في اعتقادنا اخطر ما يمكن ان يجنيه الوطن العربي من سياسات الاتفاق على التعايش مع الاختلافات العربية .

❋) وتأتي ازمة والت ديزني والاحرى ان تسمى هجمة ، او بلغة اخرى حملة ، لتنبه المواطن العربي الى حقيقة تسرطن ازمات عربية تستشري في الوطن العربي على عدة اصعدة قومية وسياسية وثقافية وانتمائية واعلامية تنخر لحمة وجوده وسداها . وهنا لا بد ان نؤكد على حقيقة مفادها ان والت ديزني ما كانت لتحشر انفها في شأن سياسي وعقائدي وتاريخي يخص اكثر من مليار مسلم بعامة وربع مليار عربي بخاصة وان تسهم في تزوير التاريخ وتشويهه، لولا انها تعلم ان الوطن العربي ضعيف منقسم على نفسه غير مبال في كثير من الاحيان ، وان ردود افعاله فردية تنقصها الروح الجماعية ويغلب عليها التردد ، اضافة الى ان الاعلام العربي غارق في اهتمامات اخرى ، وفي المحصلة النهائية تنعدم استراتيجية عربية او اسلامية للدفاع عن قضاياه ايا كانت .

❋) فعلى الصعيد السياسي الرسمي رسمت هذه الازمة صورة وطن عربي منقسم على نفسه لا تجمعه ولا توحده حتى قضاياه الخطيرة . فثمة اقطار ظلت صامتة وكأن الامر لا يعنيها. وثمة التي فضلت ان تكون بعيدة عن هذا النزاع . وثمة التي اثرت الانتظار الى حين صدور قرار عربي . وثمة الذين قللوا من اهمية الحدث وطالبوا بعدم المبالغة والتهويل . ويظل هناك الغيورون الذين يحترقون لهذا الوضع ويتحرقون لفعل شيء ما يحفظ ماء الوجه العربي والاسلامي . واما على الصعيد الانتمائي الثقافي والتربوي ، فعلى ما يبدو ان القدس لم تعد -وسط انشغال كل قطر عربي باهتماماته الاقليمية ومشاغله الدنيوية الاخرى - تحتل المكانة اللائقة بها لا في مناهجه الدراسية ولا طروحاته ورؤاه ومشروعاته الثقافية بكل ابعادها . وهذا يقودنا الى الحديث عن الاعلام العربي وبخاصة الفضائي منه وهو الاقدر على اسماع الصوت ونقل التوجه والذي ما زال يتناول كثيرا من القضايا العربية وفي مقدمتها قضية القدس ويطرحها خبرا من جملة الاخبار ، دون ان يكلف نفسه مؤونة تخصيص مساحة زمنية معقولة للدفاع عنها عربيا واسلاميا تراثا وتاريخا عقيدة وانتماء وجهة نظر ورؤيا .

❋) في اعتقادنا والحال هذه ان الاوضاع العربية الحالية وفي ظل غياب استراتيجية لتحرير القدس واستعادتها بأي شكل من الاشكال لا يمنع العرب والمسلمين من التفكير بجدية بمقدساتهم وتاريخهم وتراثهم . وفي حين ان غير العرب والمسلمين يتمسكون بالقدس بكل حذافيرها وهم حساسون تجاهها ويخوضون المعارك سرا وعلانية على شرفها ، فان العرب والمسلمين - والمدينة مدينتهم شاء من شاء وابى من ابى وتدعمهم بذلك كل قرارات الشرعية الدولية - يفترض بهم على اقل تقدير ان يعتبروا ان الحملة على القدس بهذا الشكل ومن أي جهة كانت خطوطا حمراء لا يجوز تجاوزها ، وبنفس الوقت عليهم تفعيل كل الاحتياطيات الهائلة من الاجراءات التي في حيازتهم والتي يمكن ان يوظفوها في هذه المعركة . ولسنا بحاجة الى التذكير بسلاح المقاطعة الذي لعب دوره الخطير في الماضي، وفي قضية القدس يمكن اضافة بعد آخر يخص التحريم الشرعي بفتوى ضد التعامل مع مثل المؤسسات التي تتجاوز الخطوط الحمراء لكرامة العرب والمسلمين وقداساتهم . فقد اقحمت والت ديزني في قضية خطيرة للغاية من خلال حملة مخطط لها على القدس بهدف تقديمها على طبق ذهبي لغير اصحابها الشرعيين في مهرجان الاحتفال في الالفية الثالثة ، ليكون العالم عرابه وشاهدا عليه ، ويفترض ان يكون رد الفعل بحجم الفعل او يزيد

❋) ان الحملات والهزات والتحديات التي تعرض لها الوطن العربي وما زال مستهدفة اياه في الصميم يفترض بها ان تكون دافعا لأنظمته السياسية للتكاتف والتلاحم لصدها والانتقال الفوري الى تفعيل آليات قائمة على مؤسسات نشطة للدفاع عن معتقدات الأمة وعدالة قضاياها ، واخطرها ما يخص الثقافة العربية الاسلامية وذلك بأخذ المبادرة في انشاء مؤسسة عربية اسلامية على نمط ديزني لاند تكون تركة وارثا للاجيال القادمة على طريق التواصل ما بين الماضي المجيد والمستقبل الزاهر ، تحت مظلة ثقافية واقية من الانصهار والذوبان والضياع ، وثقافة

الاستهلاك والتلقي من الآخر ، والوقوع تحت رحمة توجهاته ومفاهيمه وتفسيراته . وهنا تتجلى ضرورة الاسراع بانطلاق قناة الثقافة العربية من عقالها .

❋) واخيرا وليس آخرا وهنا بيت القصيد ثمة اسئلة تطرح نفسها بالحاح .لماذا لا تكون للامة العربية مبادراتها التي تخص منظومة انتماءاتها ومقدساتها وتاريخها وتراثها التي تتعرض للاستلاب العلني تارة وللطمس والتشويه ثانية والتجيير للآخرين ثالثة ، فتبادر الى ان تعرضها بصورة حضارية لائقة ، وفي حالة القدس لماذا لا يكون لها معرض عربي اسلامي عالمي يليق بمكانتها وقداستها ؟. ولماذا يكتفي العرب بردود الافعال التي يغلب عليها التأخير والهشاشة والشرذمة او الصمت او اللامبالاة او الدفاع الهزيل ؟ لماذا لا تقول رأيها بصوت عال وحمية الواثق من حقه الشرعي ؟. وهنا يتساءل الجميع اين لجنة القدس من هذه الازمة وماذا كان دورها قبل الازمة وحتى في اثنائها ؟. انها اسئلة ليست محيرة ، الا انها تحتاج الى اجوبة مقنعة .

الاستيطان

الاستيطان والقانون

❋) في تصريحاته الاخيرة التي اراد من خلالها ان يروج لسياسة يريد تسويقها تبشر برؤيا جديدة تخص الاستيطان ، ميز رئيس الوزراء الإسرائيلي بين شكلين من أشكاله . فبحسب منظوره هناك الاستيطان القانوني وهو ما وافقت عليه اية حكومة اسرائيلية وباركته . وهناك الاستيطان غير القانوني الذي لم يحظ بمثل هذه الموافقة . وليس المرء بحاجة الى بذل كبير عناء في استقراء مرامي هذه التصريحات ودلالاتها وابعادها . فهي من ناحية محاولة لاسباغ الصفة القانونية الشرعية على مجمل الفعاليات الاستيطانية التي قامت وفق القانون الاسرائيلي الذي يتجاهل عنوة اتفاقيات جنيف ، وقرارات الامم المتحدة ، وحتى عدم رضا الادارة الامريكية عن كثير منه - ولها في هذا المجال الكثير من التعليقات والتصريحات والتلميحات والطعونات ضده لأنه يفتقر الى غطاء من الشرعية الدولية ، واضافة الى كل هذا وذاك كونه مرفوضا رفضا قاطعا من الفلسطينيين ومعهم اشقاؤهم العرب ذلك انه يقوم على اراضيهم المصادرة دون ادنى حق . ومن ناحية اخرى فان هذه التصريحات هي محاولة اما انها ساذجة -واغلب الظن انها مستخفة- تهدف الى امتصاص نقمة الفلسطينيين والتقليل من مخاوفهم بايهامهم ان الحكومة الاسرائيلية جادة في اجراءات ما "لتقنين الاستيطان" بمعنى اخضاعه للشرعية القانونية . وبهذا الصدد نود ان نشير الى ان ما تمخضت عنه هذه "الرؤية السياسية" ستسفر اذا ما كتب لها النجاح عن ترك الحرية للمستوطنين ان يفككوا بضعة بيوت اقيمت هنا وهناك باسلوبهم الخاص الذي يرتأونه . وهكذا وبكل بساطة وسهولة ورقة ونعومة ودون خدش مشاعر المستوطنين المرهفة تكون قد حلت مشكلة الاستيطان من منظور اسرائيلي .

❋) وانطلاقا من هذا السيناريو العجيب الغريب - والمنطقة على اعتاب مرحلة يفترض ان تكون اجواء مناخاتها السياسية والنفسية والعاطفية مهيأة للتسويات النهائية للصراع العربي الاسرائيلي - فاننا هنا نود ان نذكر ان ثمة اساسيات يفترض ان لا تغيب عن البال او ان تضيع في مجاهل ذاكرة أي كائن من كان ظانا ان عامل التقادم قد اتى على القضية . ان الصراع العربي الاسرائيلي الذي كان وليد القضية الفلسطينية والتي هي بدورها من منظور انساني "النكبة الفلسطينية" والتي حدد مفهومها بانها اقتلاع الشعب الفلسطيني وتهجيره من بلداته وقراه وديارة وبيوته وحقوله وبياراته ومشاغله التي ملكها شرعا او ورثها عن آبائه واجداده عبر مساحات سحيقة من الزمان . وهي بطبيعة الحال لم تكن قائمة على الهواء ، وانما على الارض المسماة تاريخيا فلسطين التي منحت اصحابها الشرعيين العرب الذين اقاموا عليها عصورا مسمى الفلسطينيين او بمصطلح سياسي الشعب الفلسطيني فأساس المشكلة هو الارض التي منحت بريطانيا نفسها الحق ان تعد بها شعبا آخر لم يكن يقيم عليها، وكان ذلك على حساب من اقاموا عليها فعلا .

❋) ومنذ العام 1948 وحتى بواكير العملية السلمية كانت غالبية المواقف العربية بعامة والفلسطينية بخاصة تنص على تحرير الأرض واستعادتها وارجاع اهلها من الشتات اليها ذلك ان هؤلاء المهجرين قسرا والذين يطلق عليهم مسمى اللاجئين ، وذلك كونهم لجأوا بعد ان تم تهجيرهم فحلوا في بلاد عربية مجاورة كضيوف لا كمواطنين ولا رعايا ، ولم يحملوا جنسية البلدان التي حلوا بها الا في حالات نادرة ، ولم تسقط عنهم صفة اللاجئين ، ولم يتمتعوا بأية حقوق سياسية او اجتماعية او اقتصادية او تربوية ، وبمعنى آخر ظلوا يعيشون على هامش حياة تلك الدول في ظروف معيشية قاهرة والامل يحدوهم ان يعودوا الى اوطانهم السليبة التي حل آخرون على ثراها واستوطنوها ، وهم اذا ما استبشروا خيرا او تفاءلوا بالعملية السلمية فلأنهم يعتقدون انها ستعيد لهم الارض والسلام .

❋) ان لب الصراع العربي الاسرائيلي الذي هو وليد القضية الفلسطينية كان هو الارض وما عداها كان يتفرع منها او ينطلق ليس الا ، وباختصار فان اساس المشكلة الفلسطينية هو عدم وجود الارض حتى يمارس عليها الفلسطينيون حقهم المشروع في المواطنة والسيادة وتقرير المصير واقامة الدولة بكامل مؤسساتها وممارسة بقية فعاليات الحياة التي كفلتها لهم الشرائع السماوية والقوانين الأرضية الوضعية اسوة بغيرهم من الشعوب الاخرى . لكن الاسرائيليين يريدون ان يفرضوا مفهومهم الخاص بالتسوية الذي استثنوا منه الأرض ووضعوا في كافة الميزان الخاصة بهم التسويات مع الاقطار العربية وأمن اسرائيل وسيطرتها ، واسقطوا منها كل ما يخص الحقوق الفلسطينية في الارض والسيادة . وانطلاقا من هذا فقد قام الاسرائيليون بتفعيل مسارين خاصين بالعملية السلمية

الاول هو مسار الاستيطان الذي طبقوه حرفيا واما المسار الآخر الذي بدأوا يعزفون على اوتاره في الآونة الاخيرة يتعلق بتوطين اللاجئين الفلسطينيين حيث هم متواجدون . ومرة اخرى يبدو ان الاسرائيليين اما انهم مستخفون او غير مبالين او حتى غير مقدرين عواقب مثل هذه السياسة . لقد اثبت الاسرائيليون من خلال الاستراتيجية الاستيطانية ان المستوطنين هم العنصر الرئيس المحرك للسياسات الاسرائيلية وان الاستيطان هو مفتاح الدخول اليها وفهم مغازيها واتجاهاتها وخطوطها الخضراء والحمراء .

❋) وخلاصة القول اذا كان هناك قانون استند اليه الاستيطان فهو قانون القوة التي اباحت لنفسها من خلاله ان تحلل كل المحظورات والمحرمات . وان محاولة اضفاء الصبغة القانونية الشرعية على اكثر من 99 في المائة من الاستيطان مجهضة في مهدها ، ذلك انه لا يوجد استيطان قانوني وآخر غير ذلك . فالاستيطان بحد ذاته هو لب المشكلة وما زال يشكل بؤرة ديمومة الصراع ذلك انه من اساسه الى رأسه غير قانوني ولا شرعي في كل المفاهيم الفلسطينية والعربية والدولية . وهو بالتالي يلقي ضوءا على خارطة السياسة الاسرائيلية التي تتحكم في رسمها مزاجات المستوطنين واهواؤهم التي تعتبر ان الاستيطان خطوط حمراء تشكل حدود اسرائيل وسلامها وامنها من كل الجهات .

في ضوء تقرير لجنة ميتشل لتقصي الحقائق
الانتفاضة .. على الاستيطان

❋) كثيرة هي اللجان التي شكلت منذ بدايات القرن العشرين المنصرم على شرف القضية الفلسطينية . فثمة اللجان الملكية التي شكلتها حكومة بريطانيا العظمى آنذاك في اثناء فترة انتدابها على فلسطين من العام 1918 – 1948 . وثمة تلك اللجان التي كانت تحمل صفة الدولية والصادرة عن الامم المتحدة .

❋) وسواء كانت هذه اللجان منصفة او منحازة او انها على حد ادعاء القائمين عليها " التزمت جانب الحياد والموازنة " فان المحصلة كانت على الدوام واحدة . وهي ان هذه اللجان كانت عبثية. وان القضية الفلسطينية لم تحصد منها سوى اضافة اعداد جديدة منها الى ارشيفها . ومن ناحية اخرى ظلت الأوضاع في فلسطين تتدهور من سيء الى اسوأ . وكانت عمليات افتراس الأرض الفلسطينية هي الحدث الأبرز والأخطر والادعى الى تدهور الاوضاع على ساحتها .

❋) ولجنة ميتشل محدودة الصلاحيات والخيارات لتقصي حقائق انتفاضة الاقصى هي في الواقع استمرار لسياسة اللجان العبثية في تاريخ القضية ، وتأتي بديلا هزيلا لمطالبة الفلسطينيين بحماية دولية . لكن الشعب الفلسطيني قد تعلم من تجاربه المريرة السابقة ان لا يعول على هذه اللجان ، وهو ذو الحس السياسي المرهف والرؤيا الثاقبة التي تجعله يستشف النتائج مسبقا . وبرغم كل ذلك ثمة امر لافت في تقرير لجنة ميتشل الذي يرفض رفضا كاملا بناء المستوطنات في الاراضي الفلسطينية تحت اية ذريعة .

❋) وهذا يقود للحديث عن الاستيطان على اعتبار انه الحالة الموازية في الطرف الاسرائيلي لتداعيات النكبة وافرازاتها في الطرف الفلسطيني الذي خاض كل معتركات نضالاته للتصدي لهذا التحدي الخطير . وانتفاضة الاقصى لم تخرج عن هذا الاطار . وهنا لا ينبغي الاغفال عن الدوافع الاخرى للنضال الفلسطيني . الا انها كلها في النهاية تصب في اتجاه واحد هو مقاومة الاستيطان بهدف القضاء عليه وتمهيد الطريق امام تحقيق الاهداف المشروعة الاخرى.

❋) وبداية لا بد من الاستهلال بحقيقتين تخصان النضال الوطني الفلسطينيى الاولى ان التاريخ الفلسطيني المعاصر زاخر بكافة اشكال النضالات التي اتخذت مسميات عدة . فعلى مدى قرن من الزمان ونيف كانت هناك الثورات والاحتجاجات والهبات الوطنية والاضرابات والمسيرات والانتفاضات وغيرها .

❋) والحقيقة الثانية ان القضية الفلسطينية مهما اتخذت من مسميات ، فان مسمى واحدا يصفها وصفا دقيقا ويحدد ابعاد مفهومها . فالقضية صراع مع الاستيطان الذي كان ولا يزال يهدف الى تغيير خارطة فلسطين الجغرافية والديموغرافية والتاريخية والثقافية ، والغاء انتمائها القومي العقائدي معا . وانطلاقا من هذا الواقع كان النضال الفلسطيني الذي لم يتوقف لحظة ، وكرست على شرفه كل الفعاليات والآليات والوسائل التي اتيحت للشعب الفلسطيني على قلتها وبساطتها احيانا . مضافا اليها الاجواء العربية والاقليمية والدولية التي لم تكن في كثير من الاحيان مواتية .

❋) لقد كان الاستيطان منذ البداية هو المشروع الاستراتيجي الاخطر والجبهة الاطول والأصعب والاقسى في مواجهة الشعب الفلسطيني . وتاريخيا مر بمرحلتين اولاهما بدأت منذ نهايات القرن التاسع عشر وانتهت في العام 1967 . وفي هذه الفترة الزمنية الطويلة – مرحلة المصادرة الاولى – تم خلالها اقامة الدولة الاسرائيلية ذات الطابع الديموغرافي والجغرافي المغاير للطابع الفلسطيني التاريخي . فالطابع الاسرائيلي قام اساسا على عمليات مصادرة الارض واقتلاع ما عليها من وجود فلسطيني كائنا ما كان ، وتدميره واحلال الوجود الاسرائيلي على انقاضه . وهذه العمليات كانت وراء تجسيد النكبة الفلسطينية وتعميقها حتى الآن .

❋) واما المرحلة الثانية فقد بدأت غداة احتلال ما تبقى من فلسطين في العام 1967 . وكانت بين مد وجذر بحسب مقتضيات السياسة الاسرائيلية . الا انها لم تتوقف للحظة واحدة وبالذات تحت ظلال العملية السلمية التي يفترض ان معادلتها كانت عودة الارض الفلسطينية مقابل سلام يمنحه الفلسطينيون والعرب ، وليس بأي حال من الاحوال سلاما تمنحه اسرائيل .

❋) لقد مارست اسرائيل ولا تزال دون توقف في اطار استراتيجية قائمة اساسا على منظومة ممارسات بهدف احكام سيطرتها على بقية فلسطين والتحكم بشعبها ، واذابته في بوتقة مخططاتها ، واغلاق ملف قضيته نهائيا . وباختصار استخدمت آليات المصادرة والاقتلاع . فكان هناك الاستيطان الألتفافي عبر شبكة محكمة من المواصلات . وقد أدت هذه الى تطويق التجمعات السكنية الفلسطينية . واستكمالا لها احتلت تلال الوطن ورؤوس جباله لأحكام الهيمنة والسيطرة والاشراف على ما تحتها . واخيرا لا آخرا كان هناك الاختراق للتجمعات السكانية الفلسطينية في أكثر من موقع ، واخطرها على الاطلاق في القدس حيث الانظار تتجه الى الحرم القدسي

❋) وخلال اربعة وثلاثين عاما من الاحتلال تشبثت اسرائيل بمنظورها السلمي القائم على ثلاثية الأمن والأرض والسلام لها وحدها . وعلى ما يبدو انها كانت تراهن على الجبهة العربية الآخذة في التفسخ والتشرذم والتآكل ، وبالتالي على فقدان الفلسطينيين لمساحة شاسعة من عمقهم العربي للانقضاض عليهم والاستفراد بهم .

❋) وخلاصة القول لقد خبر الشعب الفلسطيني سلسلة كاملة من اللجان على شرف قضيته منذ بداياتها . وأدرك انها حرث في الماء . ومع ذلك فهو هذه المرة بالذات لا ينكر ان لجنة ميتشل بما لها من سلبيات ، قد سجلت اضاءة في فضاء القضية الفلسطينية بادانتها الصارخة للاستيطان ، ورفضها له تحت اية ذريعة . وهذا يمنح الشعب الفلسطيني مصداقية في شرعية نضاله في مواجهة الاستيطان الذي كان هو سبب نكبته ومأساته . فهل من سامع او مجيب او متعظ ؟

الهدم والاستيطان

❋) بداية يجدر بنا ان نشير الى حقيقة مؤكدة مفادها ان الذين خططوا لقيام دولة إسرائيل أيا كان حجمها كبرى ام صغرى ام غير ذلك ، قد وضعوا نصب أعينهم مسارين يتقاطعان على الدوام عبر اية مساحة يمكن ان تكون عليها إسرائيل ، ويلتقيان في نهاية الأمر عند هدف واحد هو تهويد الأرض جغرافيا وديموغرافيا ، وهذان المساران هما مسار الهدم ومسار الاستيطان . وهما وان كانا يختلفان في الاداء والوظيفة الا انهما يكملان بعضهما البعض . فالمسار الاول يقوم على تهيئة البنية التحتية للمسار الثاني باعتباره الهدف الأكبر والأخير .

❋) ولدى استعراض تاريخ المسار الاول الخاص بالهدم والذي تعود جذوره الاولى الى ايام الانتداب البريطاني - الا اننا هنا سوف نكتفي بالاشارة لهذه المرحلة دون الخوض بها - فمن المعروف ان فعاليات الهدم المرافقة للاستيطان قد مرت بمراحل عديدة كان اولها واخطرها على الاطلاق غداة قيام اسرائيل في العام 1948 وتهجير المواطنين الفلسطينيين جراء اعمال العنف والارهاب التي مورست ضدهم آنذاك لترك قراهم وبلداتهم التي كانوا يقيمون عليها وكانت تحمل اسماء فلسطينية عربية المنتمى تدل على انتماء عريق للمكان والزمان وفي هذه الفترة بالذات عملت الجرافات الاسرائيلية على هدم كل هذه القرى والبلدات وازالتها من الوجود وتغيير كل معالم الجغرافيا التي كانت تحيط بها عبر اقامة شبكة "الكيبوتسات والموشافات والناحالات" وطرق المواصلات والمزارع التعاونية ولم تعد الاماكن الفلسطينية على الارض الفلسطينية الا شريطا من الذكريات يستوطن الذاكرة الفلسطينية التي لم تستطع الجرافات الاسرائيلية ان تأتي عليها ، ذلك انها ما زالت تذكرها وتعددها قرية قرية وبلدة بلدة اضافة الى ان ثمة خرائط جغرافية قديمة توثق كل ذلك وتمنحه المشروعية والمصداقية والموضوعية التي يستند عليها الرأي الفلسطيني في الحديث عن حقه "وكواشين الطابو" العثمانية شاهد اخر على هذا الحق .

❋) لقد كانت الفترة ما بين الاعوام "48-67" هي فترة الهدم للوجود الفلسطيني لاقامة الوجود الإسرائيلي وأسفرت عن إتمام المرحلة الأولى من مشروع الدولة الاسرائيلية ذلك انه في العام 1967 استكملت اسرائيل احتلال كل فلسطين باحتلالها الضفة الفلسطينية ، وبذلك بدأت المرحلة الثانية التي اختلفت بعض الشيء عن سابقتها من حيث ان اسرائيل لم تستطع ان تهدم القرى والبلدات المتواجدة فيها ، لكنها وظفت آليتي المصادرة والهدم باقصى طاقتيهما . ففي الحالة الاولى وعلى خلفيات ان عمليات المصادرة كانت اما لدواع امنية لو لعدم وجود مالكين لها او لشق طرق التفافية صودرت مساحة شاسعة من الاراضي الفلسطينية سهولا وتلالا وقمم جبال واقيمت عليها المستوطنات بكل اشكالها وكانت اشرس هذه الفعاليات واكثفها تواجدا حول مدينة القدس العربية بهدف تغيير متعمد لطبيعتها الجغرافية وطابعها الديموغرافي وإسباغ صبغة تهويدية عليها . ولم تقف هذه الفعاليات عند حدود أسوار المدينة المقدسة ، بل تجاوزتها الى عمليات استيطانية اختراقية هدفها التوغل الى داخل المدينة العربية وزرع نوى وبؤر استيطانية في بيوتها ومساحاتها العريقة . وفي الحالة الثانية كانت الجرافات تهدم دون هوادة في اتجاهين الاول هدم ما كان قائما على خلفيات انتقامية عقابية واخافة واحباط جراء اعمال المقاومة الفلسطينية للاحتلال ، واما الاتجاه الثاني فكان هدفه اساسا وما زال اقتلاع اصحاب الارض الشرعيين وتهجيرهم منها بمنعهم من البناء والتكاثر والحد من النمو الديموغرافي لهم . وكلا الاتجاهين يهدفان الى بسط النفوذ وفرض الوجود والامر الواقع وان تظل خارطة اسرائيل في نهاية الامر ذات لون واحد هو اللون الإسرائيلي .

❋) وفي حقيقة الامر ان إسرائيل منذ العام 1967 لم تهدأ جرافاتها لحظة واحدة بغض النظر عن اشكال السياسات التي كانت تحركها يسارية ام يمينية ام وسطية ، او سواء كانت اسرائيل في حالة حرب مع العرب أو تحت ظلال العملية السلمية التي يفرتض انها قامت على اساس مبدأ الأرض مقابل السلام ، ذلك ان الاستيطان من منظور إسرائيلي هو خارج معادلة أي سلام . وعلى ما يبدو ان اقصى ما يمكن ان تقدمه اكثر السياسات الاسرائيلية تسامحا وتساهلا هو فترة استراحة لجرافاتها والياتها الاخرى تلتقط انفاسها خلالها استعدادا لنشاط موعود جديد ومخطط له .

❋) وخلاصة القول : ان اسرائيل لم تأت بشيء جديد في أي وقت من الاوقات ، فقبل قيامها وغداته رسمت سيناريوهات المراحل القادمة نم حياتها وبخاصة المرحلة الحالية التي تسمى مرحلة "العملية السلمية" وبنتها على تصورات خاصة بها انطلاقا من ان كلمتها في المنطقة ستظل هي العليا كونها "المنتصرة" . وان أي سلام تطبيعي

هو سلامها وهي راعيته ويفتر ض ان يخدم مصالحها الاستراتيجية ، وهذا السلام ينبغي له ان يكون مع الوطن العربي ، ذلك انه لا يوجد قضية فلسطينية في تفكيرها . والوطن العربي من منظورها يتسع لطموحاتها وتوجهاتها ومخططاتها وكذلك لضحايا جرافاتها وممارساتها التعسفية الذين هجروا من وطنهم هربا من القتل والدمار والارهاب والهدم . ان استمرار لعبة الهدم والاستيطان المزدوجة هذه وكما يبدو هي الطرح الوحيد والاسهام اللذان يمكن ان تقدمهما اسرائيل لساحة السلام الذي تريده لنفسها دون غيرها ، ومشكلتها انها راهنت في كثير من الاحيان على الذاكرة الفلسطينية او على النفس الفلسطيني حيث توهمت انها بكل ممارساتها يمكن ان تغتال هذه الذاكرة ما تختزنه من ذكريات عن الارض والوطن والتاريخ والتراث ، كما توهمت ان النفس الفلسطيني قصير سرعان ما يلهث وينقطع ، وفي كلا الحالتين اخطأت ذلك ان كل بيت هدم ما زال قائما في تفكير صاحبه الشرعي وكل ارض صودرت بغير حق ما زالت مرسومة في وجدانه .

الاستيطان الى أين ؟

❋) بعد هدوء ظاهري على جبهة الاستيطان الاسرائيلي في الاراضي الفلسطينية ، كشف النقاب مؤخرا عن نية الحكومة الاسرائيلية تنفيذ مخططات استيطانية تمثلت في بناء 800 وحدة سكنية تضاف الى مستوطنة " معاليه أدوميم " المقامة أصلا على أرض الخان الاحمر التابعة لمدينة القدس العربية . كذلك ثمة خطة لانشاء 2000 وحدة سكنية تضاف الى مستوطنة " أريئيل " جنوب مدينة نابلس .

*) الا أن أخطر هذه المخططات يتمثل في انشاء مستوطنة جديدة تقام ما بين القدس ومستوطنة " معاليه أدوميم " وبذا يتم فصل شمال الضفة الفلسطينية عن جنوبها ، ويستكمل الاطباق على مدينة القدس .

*) اسرائيليا ، ليس ثمة ما يمكن أن يضاف الى اهداف مثل هذه المشروعات سوى أنها تسير في خط توسيع المستوطنات القائمة وتعزيزها ، وبخاصة تلك التي لا تتضمنها " خطة الانسحاب الأحادي " من قطاع غزة وبعض التجمعات الاستيطانية في الضفة الفلسطينية التي طرحها رئيس الوزراء الاسرائيلي الجنرال شارون ، وثارت حولها " ضجة ومعارضة يمينية داخلية " وترحيبا من جهات خارجية دولية مؤيدة لاسرائيل ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الاميركية التي تعتبر أن هذه الخطة انجاز كبير على طريق ايجاد حل لمشكلة الصراع الفلسطيني الاسرائيلي . ولا يخفى على أحد ان الجانب الآخر من هذه الخطة يتمثل أساسا في تعزيز الاستيطان .

*) ان بناء 800 وحدة سكنية في مستوطنة " معاليه ادوميم " ، و2000 وحدة اخرى في مستوطنة " أريئيل " ، وبناء مستوطنة جديدة بين القدس ومعاليه أدوميم – والحبل على الجرار- تؤكد جميعها على عدة حقائق . أولاها أن حكومة اسرائيل لم ولن تتخلى تحت أية ظروف عن مشروعات الاستيطان . وثانيتها أن رؤية اسرائيل لأي حل نهائي تلتف على هذا الكم الهائل من المستوطنات التي تريد أن تجعل منها أمرا واقعا من خلال تغيير معالم خارطة الاراضي الفلسطينية جغرافيا وديموغرافيا .

*) وثالثة هذه الحقائق أن اسرائيل في اصرارها على مشروعاتها الاستيطانية ، انما تنطلق من منظورها العقائدي السياسي المتمثل في أن فلسطين من النهر الى البحر هي أرض اسرائيل الكبرى . وهو منظور دأبت سياساتها على توظيفه على أرض الواقع منذ اليوم الأول لاستكمال احتلال بقية الاراضي الفلسطينية في العام 1967 .

*) ورابعة هذه الحقائق ان اسرائيل – وفي هذه الاوقات بالذات ، وهي بالنسبة لها عصر انطلاق وتحرك ذهبي – تستمد قسطا وافرا لطاقة هذا الانطلاق والتحرك من ظروف دولية واقليمية مواتية لها جدا . فعلى الصعيد الدولي وتحديدا الولايات المتحدة ، تستغل اسرائيل حمى مزادات الانتخابات الرئاسية الاميركية ، حيث تفاقمت شهية المرشحين المتنافسين على الاصوات اليهودية ، والتي ترافقها حالات تقمص اميركية واسعة للسياسات والرؤى الاسرائيلية .

*) وفي ضوء هذا المشهد السياسي الاميركي ، فانه من المستبعد ان تمارس الادارة الجمهورية في البيت الابيض أية ضغوطات فعلية على اسرائيل لثنيها عن مخططاتها هذه ، حتى وان كانت تتناقض كليا مع خارطة الطريق الاميركية .

*) وأخيرا وليس آخرا ، فانه حتى لو لم تكن هناك انتخابات رئاسية أميركية ، فالسياسة الاميركية اصلا منحازة الى اسرائيل انحيازا مطلقا تجلى في سكوتها عن الجدار الفاصل ، ومعارضة قرار محكمة العدل الدولية ، ومواقفها الداعمة لاسرائيل في مجلس الأمن . وقد كان وعد الرئيس بوش لشارون بالغاء حق العودة للفلسطينيين وتأييده عدم انسحاب اسرائيل من المراكز الاستيطانية الكبرى ، واعتبار الكونغرس الاميركي القدس عاصمة اسرائيل برهانا دامغا لهذا الانحياز ، أو بصحيح العبارة التقمص المطلق .

*) اقليميا ، والمقصود هنا العالم العربي ، فالانظمة العربية لم تعد تملك من اوراق هذه اللعبة السياسية اية ورقة في ظل ما آلت اليه احوالها . فثمة الدول العربية الغائبة كليا عن ساحة القضية بكل تبعاتها . وثمة التي خرجت من دور المشارك الى دور الوسيط المحايد . وهذه وتلك تسيران في ركب السياسة الاميركية ، والجري وراء مصالحها الخاصة .

*) فلسطينيا ، ليس ثمة فرق بين مستوطنة تقام هنا أو هناك . وليس ثمة ما هو شرعي أو غير شرعي ، فكله خارج على الشرعية أيا كان مصدرها . ان الاستيطان بكافة اشكاله له معنى واحد ووحيد يتمثل في نزع ملكية فلسطين تدريجيا من اصحابها التاريخيين الشرعيين

*) الا أن مستوطنة " معاليه أدوميم " وتلك المستوطنة المنوي اقامتها بين القدس وبينها ، وكل المشروعات الاستيطانية حول القدس تشكل في مجموعها خطورة متنامية وصلت حدها ألاقصى على هذه المدينة باعتبارها عاصمة الدولة الفلسطينية ، والعاصمة الروحية التاريخية للمسلمين في العالم .

*) وها هو الجدار الفاصل الذي أخذ يشكل اطارا جامعا وحاميا للمستوطنات قد أطبق على القدس كما أطبق على غيرها . وها هي المستوطنات والتجمعات السكانية الاسرائيلية تحيط بها من كل حدب وصوب . وكيف لا والعرب والمسلمون صامتون لا يتحركون . لكن الأنكى والأخطر من هذا كله تلك الاصوات الاسرائيلية التي سمعت مؤخرا وهي " تحذر " من امكانية هجوم متطرفين يهود على المسجد الاقصى يهدف الى هدمه وتدميره . والسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هنا : هل هو سيناريو معد مسبقا للاستيلاء على الاقصى المبارك وبناء الهيكل استكمالا لتهويد القدس ؟ ان الايام القادمة حبالى ، ويخشى أنها تحمل في رحمها ما لا تحمد عقباه .

*) لقد نسفت حكومة اسرائيل كل المشروعات السلمية ابتداء من مؤتمر مدريد عام 1991 مرورا بأوسلو وكامب ديفيد و واي رفر والبيت الأبيض وطابا حتى خارطة الطريق التي تنص على وقف الاستيطان . الا أن هذا الاستيطان ظل هو العنصر الاساسي في السياسة الاسرائيلية . وتحت ظلاله أصبح من السهل الاجابة عن سؤال الاستيطان .. الى أين ؟ . لكن الأهم من ذلك كله ان لا تصحو الانظمة العربية لا سمح الله متأخرة من غفلتها ولامبالاتها بعد أن يكون المشهد الاستيطاني قد اكتملت كل أبعاده .

الأسرى:
ولا بدّ للّيل أن ينجلي

٭) يعيش الشعب الفلسطيني هذه الأيام في الوطن والشتات بعامة ، وآلاف الأسر الفلسطينية بخاصة أياما تضامنية عصيبة جراء اعلان آلاف الأسرى الفلسطينيين الاضراب عن الطعام مطالبين بقدر معقول من ممارسة حقوقهم الانسانية التي سلبت منهم أو انتهكت خلف قضبان المعتقلات الاسرائيلية .
*) بداية ، ثمة ملاحظتان لا ينبغي اغفالهما . الاولى تخص الأسر الفلسطينية التي يرزح ابناؤها في جحيم المعتقلات الاسرائيلية . ان معاناة هذه الاسر لم تكن في يوم من الايام موسمية، أو انها ردود افعال لظروف او حالات معينة يعاني جراءها الاسرى ، أو أنها مجرد احياء تقليدي ليوم الأسير الفلسطيني . انها في الواقع معاناة على مدار الساعة ، تعيش تحت ظلالها القاتمة هذه الاسر ممثلة في ابناء الاسرى وبناتهم وآبائهم وامهاتهم واخوانهم واخواتهم وزوجاتهم وكل احبائهم .
*) وثانية هذه الملاحظات ، أن الشعب الفلسطيني بكل شرائحه يشارك هذه الاسر المساحة الكبرى من معاناتها . ومنذ اليوم الاول لوقوع أول أسير فلسطيني ، أصبح هناك افراز آخر للنكبة الفلسطينية يتمثل في أسراها الذين تزايدت اعدادهم الى ان بلغت الآلاف نساء ورجالا واطفالا . وهو افراز لا يقف عند حدود ، ذلك ان الاسرى في تزايد مستمر ما دامت شهية الاحتلال الاسرائيلي المتعنت مفتوحة على الاعتقال .
*) ان قضية الاسرى الفلسطينيين بكل الوان الطيف السياسي الذي يمثلونه لم تكن في يوم من الايام ولن تكون قضية فردية او فصائلية تخص شريحة او اخرى من المجتمع الفلسطيني وقع ابناؤها في أسر الاحتلال . ان هؤلاء الاسرى هم جزء لا يتجزأ من منظومة النضال الفلسطيني عبر تاريخه الطويل ، والتي أجمع عليها الفلسطينيون باعتبارها الوسيلة الوحيدة لاسترجاع حقوقهم المغتصبة ، بعد أن اغلقت في وجوههم كل السبل الاخرى ، وصمت آذان العالم عن سماع شكواهم ، وعميت عيونه عن رؤية مشاهد مآسيهم ، ونآى " بضميره " كي لا يكون شاهدا منفعلا فاعلا ، وأبى له أن يكون منافحا عن حق انساني أقرته الشرعية الدولية .
*) ان مأساة الاسرى الفلسطينيين وهي حلقة من حلقات المأساة الفلسطينية تنبع أساسا من كون الاحتلال الاسرائيلي ما زال قائما بلا مبرر أو مسوغ ، علاوة على انه لا يعترف بهم كمقاتلين وأسرى حرب ، بل يعتبرهم سجناء " ارتكبوا جرائم وتلطخت ايديهم بالدماء " وهي تهم باطلة لا تستند الى مبررات وأدلة قانونية ومنطقية ، وتفتقر الى الموضوعية والعدالة ، ما دام هناك صراع هو الصراع الفلسطيني الاسرائيلي .
*) وتحت ظلال هذه الرؤى الاحتلالية القمعية الظالمة غير المسبوقة في لاانسانيتها ، تكدس الاسرى الفلسطينيون في معتقلات الاحتلال الاسرائيلي التي انعدمت فيها ابسط بسائط ما تنص عليه اتفاقيات جنيف الدولية . فعدا عن المحاولات المستمرة لكسر ارادة الاسرى الفلسطينيين والنيل من صبرهم وصمودهم الاسطوريين ، ثمة منظومة عقوبات يومية فرضت عليهم بدءا بالتفتيش العاري المذل واقتحام غرفهم بشكل استفزازي والعبث بحاجياتهم أو مصادرتها أو تدميرها ، مرورا بعمليات القمع والاعتداء المستدامة ، علاوة على المعاملة الاستفزازية والمهينة من قبل السجانين ، ووقوفا عند عقوبات العزل الانفرادي او الجماعي .
*) ولا يعني هذا ان المشهد الاعتقالي المأساوي قد اكتملت صورته ، اذ لا بد لاكتمالها أن يضاف اليها هذا الاكتظاظ والازدحام في الغرف ، يرافقهما اغلاق متعمد للشبابيك ، الامر الذي يجعل منها جحيما لا يطاق في ظل تقنين مشدد لفترة " الفورة " . واما الطعام كما ونوعا فهو الآخر مشكلة مستدامة مما أدى في ظل هذه الظروف الى تدهور صحة الاسرى واعتلال اجسامهم وتراجع قدراتهم الجسدية ، في الوقت الذي كان فيه العلاج ولا يزال محدودا وهزيلا ، والدواء شحيحا . لكن الأنكى من هذا كله تلك الغرامات المالية الباهظة التي تفرض على كثير من هؤلاء الاسرى دون مبرر .
*) صحيح أن اسرانا هم ابناؤنا واخوتنا واخواتنا وأهلنا وجزء لا يتجزأ من حياتنا وتفكيرنا وعواطفنا واحاسيسنا ، وان معاناتهم تفرز مساحة شاسعة من معاناتنا . الا أن هناك جانبا من معاناتهم وهو الأشد والأقسى والأنكى وهو

يقع عليهم كونهم يرزحون تحت ظلال مثل هذا الاعتقال والأسر . وكما يقول المثل : " ان من يده في النار ليس كمن يده في الماء " ، وان كانت ايدي الشعب الفلسطيني تعاني ما تعاني من نار الاحتلال .
*) ان الحديث عن الاسرى الفلسطينيين ذو شجون وأشجان ، الا أن كل مسارات هذا الحديث تنطلق من أن قضية الاسرى الفلسطينيين هي قضية الشعب الفلسطيني ، ولا يمكن فصلها عن أية تسوية لايجاد حل عادل للصراع الفلسطيني الاسرائيلي ، وهي من الثوابت ، ولا يعقل ان يكون هناك أي شكل من أشكال السلام دون أن يكون تحريرهم شرطا فلسطينيا مسبقا . وهذا ما أجمع ويجمع عليه الشعب الفلسطيني ، وهو أقل الواجب تجاه ابنائه المناضلين .
*) والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل من دور للعالم العربي انظمته السياسية وشارعه الجماهيري تجاه هؤلاء الاسرى ؟. ان الرد على هذا السؤال يفترض اجابة واحدة لا ثانية لها مفادها أن هناك التزاما قوميا واخلافيا وانسانيا تجاههم من قبل امتهم العربية . ان هؤلاء الاسرى الذين حملوا ارواحهم على أكفهم وضحوا بالغالي والنفيس ، وتنازلوا عن كل مرفهات الحياة ومباهجها ، لم يفعلوا ما فعلوه عبثا ، وانما من اجل تحرير الوطن الفلسطيني وانهاء احتلاله ، وتحقيق سيادته واستقلاله ، واسترجاع حقوقه السليبة ، وما كانت انتفاضته الاخيرة الا لاجل هذا وبادىء ذي بدء من اجل القدس وأقصاها المبارك وصخرتها المشرفة ، وقد تشرفوا بان جلهم كانوا أسرى انتفاضة الاقصى المبارك الذي يفترض انه للعرب والمسلمين جميعا وليس للفلسطينيين وحدهم .
*) ان العرب انظمة سياسية وشارعا جماهيريا ، اذا ما أرادوا فان باستطاعتهم أن يفعلوا الكثير . والفلسطينيون لا يريدون من أي شقيق أن يضحي بحياته استشهادا أو اصابة أو اسرا ، الا أن أقل الواجب القومي والعقائدي يفترض ويفرض معايشة شرعية قضيتهم قوميا ، ومن ثم نقلها الى المنابر الدولية ، وفضح الظروف اللاآنسانية التي يعيشونها والتي تخالف كل الاتفاقيات الدولية ، وان تكون قضية الأسرى احدى أهم مسارات السلام ومنطلقاته .
*) لكن الأهم من هذا كله هو الضغط للاعتراف بهم كأسرى حرب لا قتلة وارهابيين كما يدعي الاحتلال والعمل بجدية لتحريرهم . وهذا أقل الواجب العربي وأبسطه في هذا الزمن العربي الذي انقلب على انتماءاته القومية وتخلى عن كثير من ثوابته ، وكاد يخرج من جلده . ورحم الله شاعرنا العربي التونسي أبا القاسم الشابي يوم أنشد رائعته :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلـــي ولا بد للقيد أن ينكســـر

حق الحرية للأسرى

❋) لا بد لنا أن ننطلق من تعريف مفهوم الأسير كما هو في القوانين والاعراف الدولية . للأسير تعريف واحد ينطبق على كل من ألقي القبض عليه من قبل الخصوم والأعداء سواء كان ذلك في غمرة القتال ، أو الاستعداد له أو الاغارة عليه في عقر داره ،فهو عندئذ يكون أسير حرب . وفي العصر الحديث أقرت الانسانية والشرعية الدولية " اتفاقيات جنيف " بشأن أسس معاملة الأسير وبقية الاجراءآت التي ينبغي على الآسرين أن يطبقوها عليه بحذافيرها بما فيها حتمية منحه حق الحرية بالافراج عنه ، والعودة الى وطنه وأهله مهما طالت مدة أسره .

*) ثمة فرق كبير بين الأسير والسجين . فالسجين هو شخص آخر يطلق عليه " سجين الحق العام " أي كل من ارتكب مخالفة قانونية أو جنحة أو جريمة أيا كانت وأمره يعود الى قوانين بلاده . وهناك السجناء السياسيون أو الموقوفون السياسيون جراء معارضة أو ممارسة سياسية أو اختلاف في الرأي . وفي العالم الثالث يكثر هذا الشكل من السجناء على خلفية انعدام الديموقراطية وغياب منظومة حقوق الانسان .

*) والأسير لا يحاكم ولا يحكم عليه بالسجن الا اذا ثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه ارتكب جرائم حرب ، أو جرائم ضد الانسانية ، فساعتئذ تتولى أمره محاكم دولية خاصة بهذا النوع من المحاكمات وهي المخولة في البت في أمره . والأسير لا يعامل معاملة السجناء العاديين ولا يحشر معهم في سجونهم .

*) وانطلاقا من هذه المقدمة القانونية المبسطة جدا نعرج على قضية اسرانا الفلسطينيين في المعتقلات الاسرائيلية . فمنذ العام 1948 هناك حرب دائرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين عبر اساليب قتال مختلفة ومتنوعة . وجراء هذه الحرب وقع عدد كبير من القتلى والجرحى والأسرى من كلا الطرفين .

*) فيما يخص القتلى والجرحى ، فثمة نسبة تعلو أحيانا وتنخفض أحيانا اخرى ، وقد كانت على مدار كل الحروب الفلسطينية الاسرائيلية لصالح اسرائيل كونها لها جيشها المنظم الحائز على كل اشكال السلاح والقادر على استخدام كافة تقنيات الحروب . وأعداد القتلى والجرحى الفلسطينيين أضعاف أمثالهم من الاسرائيليين ، وهذا ينفي عنهم تهم " القتل والاجرام " التي تصر اسرائيل على الصاقها بكثير من الأسرى الفلسطينيين . وهذا الحديث ينطبق على الأسرى ، فالملاحظ انه على مدار هذه الحروب كان جل الأسرى أيضا هم من الفلسطينيين لذات السبب الذي أشرنا اليه آنفا . وكانت هناك حالات محدودة ومعدودة لوقوع أسرى اسرائيليين في أيدي الفلسطينيين .

*) ان الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة منذ تأسيس دولة اسرائيل في العام 1948 حتى أيامنا الحالية قد انتهجت سياسة ثابتة تجاه الأسرى الفلسطينيين تتمثل في عدم اعتبارهم أسرى حرب، ودأبت على معاملتهم على أنهم " قتلة ، مخربون ، ارهابيون ، أو خارجون على القانون أو خطرون ، أو أعضاء في تنظيمات معادية " . وهكذا فان كل من وقع في يدها أو ألقت القبض عليه زجته في غياهب سجونها بعد أن قدمته الى محاكمهاالأمنية وأصدرت عليه أحكاما تتراوح مددها ما بين شهور الى سنين طوال وانتهاء بعشرات المؤبدات . وهناك في سجونها ومعتقلاتها فئة اخرى من الاسرى الفلسطينيين تطلق عليهم مسمى " الموقوفين اداريا" وهم لا يحاكمون وانما يمكن تجديد مدة موقوفيتهم وهي في الغالب ستة أشهر قابلة للتجديد التلقائي .

*) والحكومات الاسرائيلية دأبت على تصنيف الأسرى الفلسطينيين . فهناك فئة تقول عنها ان ايديها " ملطخة بالدم " ، واخرى تقول عنهاانها منتمية لهذا التنظيم أو ذاك ، وثالثة تقول انها لن " تتوب " فيما لو تم الافراج عنها وستعود الى ارتكاب ما ارتكبته . ورابعة لا " تبدي ندما على ما اقترفته " وهذه الفئات في مجموعها ومن منظور اسرائيلي لا يمكن أن تدخل في أية تسوية لاطلاق سراحها .

*) وفي ذا ت السياق ، وعلى خلفية هذا المنظور الاسرائيلي في تعاملها مع الاسرى الفلسطينيين فان ظروف اعتقالهم تظل احدى القضايا الانسانية اللافتة للنظر ، والاكثر تأثيرا في الشارع الفلسطيني . فهي لا تخضع لاتفاقيات جنيف بأي شكل من الاشكال . وبناء عليه فلم يعد وصف احوال هؤلاء الأسرى ضربا من التخيل أو التخمين . فالأسرى يعيشون في معتقلات نائية محاطة بالاسلاك احدى أهم سماتها الاكتظاظ الشديد وانقطاعها عن العالم الخارجي . وأما الظروف الحياتية فهي سيئة للغاية وتنعدم فيها أبسط الشروط لايواء البشر علاوة على عوامل العزلة ، وانقطاع الاتصال بالأهل ، كون الزيارات تخضع هي الاخرى لمعايير خاصة فرضتها الحكومات

الاسرائيلية المتعاقبة . وهذا يفسر الاضرابات المتلاحقة عن الطعام التي يقوم بها الأسرى بين الفينة والاخرى احتجاجا على هذه الظروف اللاانسانية .
*) ان الحكومة الاسرائيلية الحالية شأن سابقاتها وفي هذه المرحلة بالذات تضع العراقيل امام اغلاق ملف الاسرى الفلسطينيين . فهي من ناحية تضع اشتراطات ومعايير مرفوضة فلسطينيا . وهي من ناحية خرى تحاول أن تصور أن هناك ضغوطات عليها من قبل وزراء هم جزء من الائتلاف الحكومي ، أو أن هناك رفضا من قبل الشارع الاسرائيلي ، أو من يسميهم اعلامها " عائلات ضحايا الارهاب الفلسطيني " متناسية ومتجاهلة آلاف العائلات الفلسطينية الثكلى جراء ممارسات الاحتلال الاسرائيلي . وأيا كان الأمر فهذا شأن اسرائيلي داخلي يفترض أن تتم تسويته اذا كانت هناك رغبة جادة وصادقة في السلام .
*) ان موضوع الأسرى الفلسطينيين بالغ الأهمية ، وهو جزء لا يتجزأ من القضية الفلسطينية التي يطالب كل فلسطيني ويصر أن يوجد لها حل شامل وعادل ، وهذا الحل لا يمكن أن يكتمل الا باغلاق ملف الأسرى الذي هو واحد من منظومة الثوابت الفلسطينية فالفلسطينيون صغيرهم قبل كبيرهم لا يتصورون سلاما يحل في المنطقة دون آخر أسير يتحرر من المعتقلات الاسرائيلية . ومؤخرا سمعت أصوات اسرائيلية تنادي بالافراج عن كل الأسرى الفلسطينيين " لأنه بدونهم لا يكون سلام ".
*) وخلاصة القول ، انهم أسرى فلسطينيون ، وليسوا سجناء عاديين . وليس لهم أية صفة اخرى سوى أنهم أسرى نضالات الشعب الفلسطيني . انهم لم يقاوموا الاحتلال والاغتصاب الا باسم فلسطين وباسم شعبها وهو حق مشروع كفلته الشرائع السماوية والوضعية . ولا فرق بين أسير وأسير فكلهم أبناء فلسطين . وأما المواصفات والمعايير والمسميات الاسرائيلية فهي تخص اسرائيل وحدها ، وهي لا تتقاطع بأي شكل من الاشكال مع المواصفات والمعايير الخاصة بالعملية السلمية التي لا يضمن لها النجاح الا على أرضية نظيفة من الاضغان والاحقاد والمواقف التعصبية . والفلسطينيون أخيرا لا آخرا ليسوا مهزومين حتى يقبلوا بشروط الآخرين واملاءآتهم ومعاييرهم . ويظل السلام الحقيقي كفتي ميزان متعادلتين .

الجدار:
هذا الجدار اللعين

*) كان الصينيون أول شعب في التاريخ القديم يبني سورا دفاعيا بحجم سور الصين العظيم هدفه حماية بلادهم من الهجمات المعادية . وبلا أدنى شك فان هذا السور الذي ما زال قائما هذه الأيام قد حقق للصينيين جل الاهداف التي من أجلها تم انشاؤه ، ذلك أنهم من ناحية حسبوها بدقة ، وكون الاسوار والقلاع والحصون من ناحية اخرى شكلت في تلك العصور آلية هندسية لعبت دورا أساسيا في استراتيجيتها العسكرية وتحديدا الأمنية منها .
*) في العصور الوسطى الاقطاعية وما بعدها ، احتلت الأسوار والقلاع مكانتها في الدفاع عن المدن وباقي التجمعات السكانية , فبنيت المدن محاطة بالأسوار . واذا كانت هذه الأسوار قد فقدت أهميتها الاستراتيجية في العصور الحديثة ، الا أن ثمة ظاهرة تمثلت في لجوء الاتحاد السوفييتي لتشييد سور برلين الشهير في الستينات من القرن العشرين المنصرم ، خدمة لأهداف في مقدمتها العزل والحصر والتحكم والسيطرة على الشعب الألماني الذي كان الروس يحتلون جزءا من بلاده , وكان لهم فيه مآرب أخرى .
*) ومما لا شك فيه أيضا أن تقنيات الحروب والقتال قد تغيرت في العصر الحالي الأمر الذي جر معه تغييرا جذريا وشاملا في وسائل الدفاع والهجوم والأمن والأمان . ومع ذلك فان هذا التغيير لم يمنع حكومة اسرائيل من أن تقيم " سورها العظيم " الذي شاءت له أن يكون جدار فصل بينها وبين الفلسطينيين بهدف ظاهري هو حماية الاسرائيليين من " الهجمات الفلسطينية".
*) واذا كان هذا هو الهدف الظاهري المعلن وراء اقامة هذا الجدار ، والذي نشط الاعلام الاسرائيلي اينما وجد في تسويقه عالميا بعامة ، واميركيا بخاصة ، فان هناك اهدافا اخرى باطنية هي الاهداف الحقيقية خلف بناء هذا الجدار لا تعلن عنها اسرائيل التي ما فتئت تحتمي بظلال المبررات الأمنية منذ قيامها حتى هذه الأيام والى ما شاء الله .
*) استراتيجيا وأمنيا ، لقد قيل الشيء الكثير عن مدى " مصداقية وجدوى " هذا الجدار ، وأكثر هذا الذي قيل جاء على ألسنة غير فلسطينية ، بعضها محايد ، وأغلبها صديقة لاسرائيل وعلى أعلى المستويات الاستراتيجية . وملخص هذا القول أن الأسوار الأمنية في هذا الزمان ليس لها مكان ، وقد عفت عليها الأيام فأصبحت فعلا ماضيا ، ذلك أنها لم تعد قادرة أن تواجه تقنيات القتال الحديثة بأي شكل من الأشكال .
*) واسرائيل تعلم هذه الحقيقة الخاصة بالأسوار ، كونها كيانا يستخدم أحدث الوسائل القتالية العصرية ، وبرغم ذلك فهي ماضية في تشييد هذا الجدار الذي لا تتقاطع أسسه واحداثياته وبقية مواصفاته الأخرى مع الاستراتيجيات العسكرية الحديثة من ناحية ، ولا مع أي اسس سلام يمكن أن يقوم مع الشعب الفلسطيني – وهذا هو الأهم – ولا حتى مع منظور كثير من أصدقاء اسرائيل سواء في الاتحاد الاوروبي أو في الولايات المتحدة الاميركية التي بات هذا الجدار يسبب لها " نوعا من الازعاج " ، وتصفه بأنه " مشكلة " .
*) على الجانب الفلسطيني المواجه لهذا الجدار المقام على ما تبقى من الأراضي الفلسطينية ، تعمل الجرافات الاسرائيلية على اجتثاث معالم الحياة الخضراء لتحيل ما تبقى من الأرض الى صحراء قاحلة مكشوفة تشكل مصيدة قاتلة على مرمى نار أبراج الحراسة لكل من يقترب منها من المزارعين الفلسطينيين . وبلغة اقتصادية انزال خسائر مادية باهظة بالمواطن الفلسطيني الذي يعتاش أساسا على الزراعة ، وهو المرهق أصلا من آثار الحصارات والاطواق والاغلاقات والاجتياحات المستمرة , اضافة – وهنا بيت القصيد – الى تقليص وتحجيم وتقزيم ما يمكن أن يبقى من الأرض لاقامة دولة فلسطينية عليها .
*) واضافة الى كل هذه الاهداف من تشييد هذا الجدار اللعين ، فثمة هدف خطير له يتقاطع مع تكريس الاستيطان الاسرائيلي القائم اغتصابا على الارض الفلسطينية . وهو يأتي ليثبت وجود المستوطنات الاسرائيلية ويجعل كثيرا منها داخله أو قريبة منه ، الأمر الذي يجعلها من منظور اسرائيلي خارج نطاق أية تسوية سلمية محتملة ، وبذا تحقق اسرائيل فرض سيطرتها على الارض التي دأبت سياساتها منذ أزمان على اغتصابها من اصحابها الشرعيين .
*) وهكذا فان أي كيان فلسطيني سيقوم جراء أية تسوية سياسية ما سيكون – والحال هذه - محكوما مسبقا بحدود تتمثل من كل الجهات بهذا الجدار وهذه المستوطنات التي تحتل قمم الجبال الفلسطينية وتشرف على الطرقات

وشبكة المواصلات ، وتطوق التجمعات السكانية . وهي في الواقع ليست حدودا بقدر ما هي في الحقيقة منظومة حصارات تستهدف التحكم الجغرافي والديموغرافي والنموي والاقتصادي والاجتماعي والاتصالي للمواطنين الفلسطينيين.

*) ولا تنتهي أهداف هذا الجدار عند هذه الحدود . فثمة هدف خطير للغاية يكمن في تطويق الشعب الفلسطيني وحصره تحت رحمة ابراجه وبلوكاته الاسمنتية وحراساته الالكترونية . وليس هناك مبالغة في القول بان أفضل وصف للأراضي الفلسطينية داخله هو " معتقل كبير قائم على أساس فصل عنصري " . وباختصار فان هذا الجدار يشكل كارثة تحمل رياحها بذور معاناة ومأساة جديدة تضاف الى مآسي الشعب الفلسطيني المتلاحقة .

*) لدى الحديث عن هذا الجدار لا بد من التطرق الى موقف الولايات المتحدة التي نصبت نفسها راعية " للعملية السلمية " ازاءه وعلى الارجح فان هذا الموقف مثله كمثل سابقاته من المواقف ازاء كل الممارسات الاسرائيلية كان ولا يزال يدور في محاور السكوت والرضى التام والتفهم المدافع عنها ، أو غض النظر والتجاهل ، أو محور الموقف المائع المتقلب الذي يحمل أكثر من مضمون . وهذا الأخير هو ما يمكن استقراؤه بوضوح من تصريحات ساسة الادارة الاميركية مؤخرا حول تفهمها للضرورات الأمنية لهذا الجدار ، وأحقية اسرائيل باقامته كونها دولة مستقلة .

*) وخلاصة القول ان هذا الجدار اللعين الذي تشيده اسرائيل تحت ذرائع التصدي لما تدعي انه ارهاب فلسطيني بهدف استجلاب الأمن للاسرائيليين ما هو الا جدار آخر في سلسلة جدران اقامها التعنت الاسرائيلي على طريق عدم الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة منذ أن كانت هناك قضية . وان كل هذه التحركات باسم العملية السلمية وما يسمى خارطة الطريق ما هي الا توغل في المتاهات ، وهدر للوقت والجهد . فالسلام الحقيقي له مواصفات اخرى ونوايا لا تتوافر حاليا لدى الاسرائيليين والاميركيين . والفلسطينيون يعون اللعبة جيدا ، وهم من الذكاء والاصرار على حقوقهم كاملة بحيث يلعبونها جيدا حتى النهاية . ويظل السلام رهن القناعات الفلسطينية به ، وليس رهن الجدران والخرائط وكافة اشكال التسويات المفروضة على القضية .

الجدار والعرب ومجلس الأمن

❋) بداية لا بد لنا من الانطلاق من هذه العناوين الثلاثة . فالجدار هو الجدار الفاصل الذي تبنيه اسرائيل في الاراضي الفلسطينية ، بحجة الأمن الاسرائيلي وذلك تحت ظلال مشاركة ومباركة من الولايات المتحدة الاميركية .

*) أما العرب فالحديث هنا عن الانظمة السياسية العربية التي تدين بالولاء والطاعة لأميركا . وبناء عليه وحفظا لماء الوجه وذرا للرماد في العيون فقد قدمت هذه الانظمة شكوى لمجلس الأمن ضد هذا الجدار ، وهي تعلم علم اليقين أن هذه الشكوى مآلها الفشل حيث الفيتو الأميركي بالمرصاد .

*) أما مجلس الأمن فمهما قيل عنه يظل أداة في أيدي القوى الدولية العظمى وتحديدا الولايات المتحدة الاميركية التي استخدمت الفيتو عشرات المرات في وجه القضايا العربية بعامة والقضية الفلسطينية بخاصة . وأما تلك المرات التي لم يكن فيها شبح الفيتو حاضرا ، فظلت قراراته حبرا على ورق . ورحم الله القرارات " 1397/194/338/242 " وغيرها الكثير الكثير .

*) ولا يحتاج المرء الى كبير عناء ، ولا يحيد عن جادة الصواب اذا ما خرج بنتيجة مفادها ان الجدار والأنظمة العربية ومجلس الأمن تسير جميعا وفق ارادة الولايات المتحدة وحسب مشيئتها ، وأن هناك مخططا استراتيجيا تطبقه السياسة الاميركية في المنطقة . وفي هذا السياق فهي لا تسمح لأي عنصر من هذه العناصر الثلاثة ان يخرج عن المسار الرئيس لهذه السياسة . وأما هذا التحرك العربي فما هو الا حرث في الماء . وكما يقول المثل العربي "تسمع قعقعة ولا ترى طحنا " .

*) في ظل هذه الاجواء والمعطيات والحقائق ، فان اسرائيل ماضية في بناء هذا الجدار الذي بلغ طوله حتى الآن "150كم" . وعلى شرفه تفترس الاراضي الفلسطينية . فمرة تقضم وثانية تستقطع وثالثة تصادر ورابعة تجرف وخامسة تضم ، وهكذا فان هذه الافعال الماضية والحاضرة والمستمرة أصبحت من قاموس السياسة الاسرائيلية ، وشكلت فصلا يضاف الى فصول المأساة الفلسطينية ، وأصبح كل فلسطيني يدرك مغزاها ومرماها ويعيش افرازاتها المريرة .

*) ورحم الله الشاعر الذي قال : " وشر البلية ما يضحك ". والحديث هنا عن العملية السلمية وخريطة الطريق ووعود الدولة ، هذه الوعود التي ما زالت الولايات المتحدة الاميركية تعزف على اوتارها ، وما زالت اللجنة الرباعية تتغنى بها متجاهلة ايقاع الجرافات الاسرائيلية العملاقة التي ما هدأ لها هدير منذ العام 1967 حتى هذه الايام والى مدى لا يعلمه الا الله .

*) والأسئلة التي تطرح نفسها على وقع هذا الايقاع : ماذا تبقى من الأرض الفلسطينية ؟ وأية دولة ستقوم على أرض محاصرة مجزأة مجروفة ؟ وماذا تبقى للفلسطينيين ، وهم أنى توجهوا وحيث نظروا كانت هناك المستوطنات تحاصر مدنهم وتحيط بقراهم وتشرف على طرقاتهم ومواصلاتهم واتصالاتهم وتتحكم بتحركاتهم وارزاقهم ، وأخيرا لا آخرا هذا الجدار الذي لم يبق من القضية شيئا ولم يذر .

*) واذا كان هذا هو الحال مع الجدار بكل ما يحيط به من ظروف . فما يهمنا هو الحال العربي ممثلة بالأنظمة السياسية العربية . وحقيقة الأمر ليس هناك أدنى شك في أن هذه الانظمة قد خسرت كل أوراق اللعبة السياسية . فلم يعد لديها ما تدلي به ، أو أنها بصحيح العبارة أعجز من أن تقدم شيئا تثبت من خلاله أنها ما زالت تحتفظ ببعض من المصداقية والارادة .

*) ان قراءة الواقع العربي تؤكد أن هناك ابتعادا قد يكون مقصودا عن العمل القومي العربي وأن هذه الأنظمة السياسية العربية تدخل عصرا جديدا من التقوقع القطري والانكماش على الذات ، لا يحمل الا النذر اليسير من مخلفات العصر القومي العربي وما كان يفرض من واجبات على تابعيه .

*) وسواء شئنا أم أبينا فان الراهن العربي الموصوف بالعجز والتخاذل قد وصل على ما يبدو الى مرحلة الرضى عن واقعه هذا في اطار قطرية كل نظام سياسي من أنظمته وفرديته ونزوعه الى التحرر من أية روابط قومية عامة على طريق توجهه " وانفتاحه على العولمة " توظيفا لمصالحه الخاصة .

*) الا أن هذه الأنظمة لا تريد الاعتراف بهذه الحقيقة التي بات الكثيرون يعرفونها ويدركون أبعادها ، وهي كذلك تصر على الاحتفاظ بمصطلحات كالعمل العربي ، ومؤسسات كجامعة الدول العربية افرغت من محتوياتها وباتت شكلا بلا مضمون . فالعمل العربي بات مقتصرا على اجتماعات أشبه ما تكون بلقاءات مجاملة ، أما الجامعة العربية فهي بكل بساطة مرآة تعكس هذا الواقع العربي الذي نحن بصدده

*) فيما يخص " العمل العربي في اطار الجامعة العربية " فهذه المرة هي واحدة من عشرات المرات التي سبقتها والتي توجهت فيها الانظمة العربية الى مجلس الأمن . ويتكرر السيناريو الثلاثي الأبعاد من شاك وشكوى ومشكو عليه .

*) أما الشاكي فهو الأنظمة العربية صاحبة أكبر رصيد من الشكاوى في تاريخ الأمم المتحدة. أما المشكو عليه فهو اسرائيل وهي أيضا صاحبة أكبر رصيد في الشكوى عليها . وأما الشكوى فهي ضد الجدار الفاصل وهو واحد من ممارسات اسرائيل على الأرض الفلسطينية منذ أن كانت هناك قضية .

*) في اعتقادنا أن مصارحة الشعوب العربية من قبل أنظمتها أنها ما عادت تملك سيناريو فعالا ومؤثرا ومثمرا ، افضل بكثير من أن تكرر سيناريو الشكوى الى مجلس الأمن ، والمآل هو الرفض المحتوم ، سوليت الأمر يقف عند هذه الحدود ، بل انه في كل مرة يزيد من رصيد الهم العربي ويعمل على تعميق خيبة الأمل والشعور بالاحباط والعجز وفقدان الثقة بالنفس واليأس ، الامر الذي يفسح مجالات جديدة وعديدة لكل المتربصين بالعالم العربي لكي يوسعوا رقعة عدوانهم وسيطرتهم عليه .

*) وأخيرا لا آخرا فهاهي الولايات المتحدة قد استخدمت الفيتو ضد هذه الشكوى العربية، ونجا الجدار من الادانة وهنا لا بد من التنويه الى حقيقة مفادها ذلك التناقض في السياسة الاميركية بين ما هو نظري وما هو تطبيقي . فهي من حيث النظرية تدعي أنها لا تؤيد اقامة مثل هذا الجدار ، ومع ذلك فهي تغض النظر عنه وتسمح له بالبناء وتسهم في تمويل تشييده . ومن ناحية اخرى فحينما يتعرض هذا الجدار للادانة الدولية فهي تهب للدفاع عنه بكل ما اوتيت من قوة .

*) وخلاصة القول هناك جداران يواجهان الفلسطينيين والعرب . الأول هو الذي يقام على الارض الفلسطينية ويحمل اسم الجدار الفاصل . أما الثاني فهو جدار قديم قدم مجلس الأمن يحمل اسم " جدار الفيتو الاميركي " . الذي يقف للقضايا العربية بالمرصاد . واذا ما كانت الانظمة العربية جادة في دعاواها فليس مجلس الأمن ولا الجمعية العمومية التابعة للمنظمة الدولية هما العنوان . وليس بالشكوى والبكاء والعويل يزول هذا الجدار .

الجدار .. والمحكمة الدولية

❋) كثيرة هي الملاحظات والتساؤلات على صعد شتى واتجاهات مختلفة التي يثيرها سيناريو انتقال ملف الجدار الفاصل الذي تبنيه اسرائيل في الأراضي الفلسطينية ، الى محكمة العدل الدولية في لاهاي الهولندية . والهدف من وراء ذلك استصدار رأي قانوني دولي في " شرعيته " في ما اذا كان له ولو مثقال ذرة من الشرعية .
*) ولعل اولى هذه الملاحظات تتجه صوب عدد الدول التي لم تصوت – او بصحيح العبارة انها امتنعت عن ابداء رأيها وقد بلغ عددها " 74" دولة – في الجمعية العمومية التابعة للأمم المتحدة الى جانب قرار تصدره باحالة قضية هذا الجدار الفاصل الى محكمة العدل الدولية لتبت في أمره .
*) وهنا لا بد من التركيز على نقطتين هامتين اولاهما ان هذا العدد الكبيرمن الدول الممتنعة كان مفاجئا للمواطن العربي بعامة والفلسطيني بخاصة ، وقد يكون مثيرا لمشاعر الاحباط وخيبة الأمل . واما النقطة الثانية فهي تخص دولا بحد ذاتها ، والمقصود هنا دول الاتحاد الاوروبي التي يفترض ان لها " مواقف مساندة الى حد ما للقضايا العربية " ، او بصحيح العبارة اخرى تختلف عن مواقف كل من الولايات المتحدة واسرائيل .
*) والتساؤلات التي تطرح نفسها هنا كثيرة هي الاخرى في هذا السياق . وبداية فاذا كانت ادعاءآت الولايات المتحدة قد أصبحت معروفة لكل ذي بصر وبصيرة ، فان مواقف الاتحاد الاوروبي لا بد وأن تثير فيضا من التساؤلات : الا يتساوى في هذا الصدد الامتناع عن التصويت والتصويت المضاد ؟ الا يعني هذا الامتناع عدم الاقتناع بشرعية المطلب العربي وعدالته ؟ او لا يمكن ان يكون له تأثيرات سالبة على أي قرار سوف تتخذه محكمة العدل الدولية لاحقا ؟ أو ليس هذا الامتناع هروبا من تحمل المسؤولية ، أو ان فيه خشية من ان يظهر الحق ويزهق الباطل ؟ أو ليس فيه ارضاء مبطن للولايات المتحدة واسرائيل ؟ الا ان السؤال الأخطر الذي يكمن في مدى جدوى هذه المحكمة الدولية فيما اذا كانت هناك قيود وتحفظات حتى على مجرد رفع القضايا لها ؟
*) وبرغم ذلك فان القرار قد اتخذ في الجمعية العمومية وفاز بأغلبية ما ، وان لم تكن مطلقة ، وسوف يمثل الجدار الفاصل قريبا أمام محكمة العدل الدولية متهما ، لتبت في أمره بناء على قوانين الشرعية الدولية التي يفترض ان يكون ميزانها قائما على العدل والمساواة دون أي تحفظ .
*) فلسطينيا وعربيا ، فمن السابق لأوانه الحديث عن نصر دبلوماسي كامل ، أو توقع السيناريوهات التي سترافق هذه القضية من بدئها مرورا بفيض المداولات وانتهاء بالقرارات
الا ان ثمة ما يمكن التكهن به في هذا المضمار وهو كثير جدا . فالتجارب ما زالت ماثلة مع قضايا سابقة كقضية طابا ، وقضية النزاع القطري البحريني على مجموعة من الجزر ، وقضية النزاع الاريتيري اليمني على جزيرة احنيش ، وتؤكد كل هذه القضايا أن المداولات والمرافعات والمراجعات والاستئنافات والطعون سوف تستغرق سنين طوالا في حالة الجدار.
*) واذا ما صدر قرار ما يوما ما ، فلا يعلم أحد كيف سيكون شكله ومضمونه ، وفيما اذا كان سيرضي طرفا ويغضب آخر ، وفيما اذا كان هذا الآخر سيقبل به ويمتثل للشرعية الدولية وهو الذي في ذمته الكثير الكثير من الاستحقاقات السابقة .
*) وحتى يصدر هذا القرار ، فان الأهم والأخطر من ذلك كله هو ما سيكون قد حل في الجدار على أرض الواقع . أغلب الظن انه سوف يكون قد اكتمل بناؤه ، وأصبح من منظور السياسة الاسرائيلية المدعومة بالتأييد الاميركي أمرا واقعا على الأرض . وكثيرة هي الأمور التي أصبحت واقعا في تاريخ الصراع الفلسطيني الاسرائيلي وأبرزها وأخطرها هذه المنظومة من المستوطنات التي ما فتئت تفترس الأرض الفلسطينية ترابا وشجرا وحجرا ، وتعمل في مرتفعاتها ومنخفضاتها سلبا واغتصابا ، وتسبغ عليها السياسة الاسرائيلية " ثوب شرعيتها " .
*) وعند هذه النقطة لا بد من فتح ملف التعامل العربي مع القضايا العربية بعامة وتبعات القضية الفلسطينية بخاصة ، وطرح سؤال حول جدوى هذا التعامل على كافة الاصعدة وخصوصا الدولية منها .

*) لقد التزمت الأنظمة العربية خطا سياسيا واحدا لم تحد عنه تمثل في القاء أعباء قضاياها على كاهل المنظمة الدولية سواء في مجلس الأمن أو في الجمعية العمومية ومؤخرا في المحكمة الدولية . فماذا كانت النتيجة منذ العام 1947 حتى هذه الأيام ونحن على مشارف العام الرابع من القرن الحادي والعشرين ؟
*) ثمة شقان للاجابة عن هذا السؤال . الشق الأول وهو أقصى ما حققه العرب ويكمن في مجموعة قرارات صادرة عن مجلس الأمن ، ومثالا لا حصرا " 194 ، 242 ، 338 " وغيرها الكثير التي ما زالت حبرا على ورق ويخشى ان يكون قد تقادم عليها الزمن . وهناك قرارات الجمعية العمومية المؤيدة والمناصرة والتي لا حصر لها الا أنها لا تسمن ولا تغني من جوع كونها غير ملزمة .
*) أما الشق الثاني فهو يتمثل في الاخفاقات المتكررة جراء السيناريو الواحد والوحيد القائم اساسا على الشكوى الى مجلس الأمن حيث " غول الفيتو الاميركي " بالمرصاد ، والذي تحت ظلاله وصلت الأوضاع في الاراضي الفلسطينية والقدس الى ما وصلت اليه .
*) وهنا لا بد من الاعتراف ان العيب كان ولا يزال في الاسلوب العربي للتعامل مع القضية الفلسطينية وغيرها من القضايا . فالانظمة العربية " تواكلت " وحررت نفسها وأعفتها من مسؤولياتها القومية تجاه هذه القضايا وألقت بها على كواهل الآخرين الذين أوصلوها الى هذه الهاوية .
*) ثمة الكثير الذي يمكن أن يقال في هذا الصدد ، وأوله أن اللوم يقع على العرب الذين فرطوا بهذه القضية واستهانوا بها وجيروها - اما جهلا واما هروبا من المسؤولية – الى " الشرعية الدولية " دون أدنى اسناد لها أو تفعيل للامكانيات العربية ، أو على أقل تقدير الوقوف وقفة واحدة متحدة والتكلم بصوت عال وبلغة يفهمها من في يده صنع القرار الدولي ونقصد به الولايات المتحدة الاميركية .
*) ان الأنظمة العربية لم تتعامل مع الولايات المتحدة بندية ، مع أن هذه الأخيرة كانت ولا تزال بحاجة للعرب . الا أن الانظمة العربية آلت على نفسها أن تظل قاصرة وأن تكون الولايات المتحدة وصية عليها تتحكم بها كما تشاء . وحقيقة الأمر ودون أي مبالغة فان الموارد والامكانيات والطاقات العربية والمصالح الاميركية في الوطن العربي كفيلة بأن تغير مسار السياسة الاميركية الأحادي المتجه صوب العالم العربي الى مسارين متوازيين عربي وأميركي.
*) وخلاصة القول انه لا ينبغي الانتظار حتى يمثل الجدار امام المحكمة الدولية ، والى حين صدور القرار أيا كان فالمسافة الزمنية طويلة . الا أن ثمة طريقا آخر لا بديل عنه يتمثل في تفعيل القرار العربي الموحد ذي الصبغة القومية والذي طال انتظار الجماهير العربية له .

ادانة الجدار .. وماذا بعد

*) " الجدار الفاصل الذي بنته اسرائيل في الاراضي الفلسطينية من منظور قانوني وانساني وجغرافي غير شرعي ، وهو مخالف للقانون الدولي ، وعلى اسرائيل ان تزيله ، وان تعوض كل الذين تضرروا جراء اقامته أيا كانوا " .
*) كان لا بد ان تصدر هذه الفتوى الاستشارية على هذا النحو الذي أصدرتها محكمة العدل الدولية في مدينة لاهاي الهولندية بحق الجدار العازل الذي اقامته اسرائيل في الاراضي الفلسطينية بمنطق القوة ، والدعم الاميركي المطلق لسياستها ، ضاربة عرض الحائط بكل القوانين الدولية .
*) ان محكمة العدل الدولية - وهذا هو المفترض – قد تأسست وهي تحمل في مسماها وفي ادائها أقدس المعاني والقيم السماوية والوضعية وهو " العدل " . وهي في فتواها هذه التي استهللنا بها حديثنا قد أكدت للشعوب المغلوبة على امرها بعامة ، والشعب الفلسطيني بخاصة أن الحق لا يزهقه الباطل ، وان الشر لا يعلو على الخير ، وان الظلم لا يدوم .
*) الا أن هذه المعاني والقيم التي نتحدث عنها في المجال النظري ما زالت بحاجة الى القوة لتوظيفها وتطبيقها واستثمارها على أرض الواقع ، ذلك ان الطرف الآخر من المعادلة الصراعية – وهو هنا اسرائيل في حالة الجدار – لا تغيرها قوانين المحاكم الدولية ولا حتى تعيرها أدنى اهتمام ، والا لما كانت اقترفت ما اقترفته تحت طائلة الاصرار والتعنت والحجج الواهية الباطلة .
*) بداية قد يكون الجدار العازل الذي مثل امام محكمة العدل الدولية " معركة " ، الا أنها معركة في حرب شاسعة الاطراف والاتجاهات ، والانتصار العربي في هذه المعركة ليس انتصارا مطلقا ، وانما يفترض به أن يكون حافزا لما ينبغي فعله ، وهو بكل تأكيد قد يكون ورقة رابحة في أيدي الفلسطينيين والعرب اذا هم احسنوا استغلالها ، والعكس صحيح تماما حينما تصبح هذه الورقة لمجرد التذكير أو التلويح بها في المنابر الدولية ، أو الوقوف العربي على اطلالها .
*) ان الانظمة العربية قد عادت مرة اخرى الى الامم المتحدة ، في اطار خطة تحرك عربي بهدف استصدار قرار ضد الجدار في ضوء هذه الفتوى . واول خطوة تتمثل في اعادة طرح موضوع شرعية الجدار على مجلس الامن الدولي . ومرة اخرى والى ما شاء الله فان اجواء مجلس الأمن لم تتغير ولن تتغير ، فالفيتو الاميركي ما زال في المرصاد بل ان الولايات المتحدة تعتبر القرار من منظورها تشويشا حادا على العملية السلمية ، وانحرافا عن مسارها . وثمة ملاحظة هامة ينبغي اخذها في الحسبان مفادها ان التصويت في محكمة العدل الدولية كان أربعة عشر صوتا مقابل صوت واحد معارض هو صوت القاضي الاميركي ، وهذا له دلالته السياسية الفاضحة .
*) ومرة اخرى سوف تشد الانظمة العربية الرحال الى الجمعية العمومية آجلا او عاجلا كما في كل مرة فشلت فيها في مجلس الأمن . وسوف تحظى هذه الانظمة بما تريد كما حظيت في مرات سابقة ، وقبل هذا " الانتصار " المعنوي في لاهاي . الا أن السؤال الذي يطرح نفسه وينتظر الجواب : وماذا بعد ؟
*) في اعتقادنا – والحال العربية على ما هي عليه من الفرقة والانقسام والضعف والانفراد القطري وعدم تفعيل المقومات القومية – ان اللجوء الى المنظمة الدولية بدءا بمجلس الأمن وانتهاء بالجمعية العمومية هو مضيعة للوقت ، كون اقصى ما يمكن أن تفعله الانظمة العربية ، وأعلى سقف للعمل العربي هو هذا اللجوء للحصول على قرار جديد يدين الجدار ويصمه باللاشرعية ،ـ ويطالب اسرائيل بازالته ، وهو قرار شكلي لا جديد فيه وهو غير ملزم وسبق ان حصل العرب من الجمعية العمومية على مثيله .
*) أما مجلس الأمن فلا أمل فيه للأنظمة العربية طالما أن الفيتو الاميركي في المرصاد لكل القرارات الداعمة للقضايا العربية . وغداة صدور رأي محكمة العدل الدولية في عدم شرعية الجدار الذي رفضته اسرائيل قلبا وقالبا ، طالبت الولايات المتحدة بالتصدي له في مجلس الأمن الدولي ، وهذا هو السيناريو المتوقع ، انه الفيتو الاميركي مرة اخرى ولن تكون الأخيرة . واللافت في الامر أن رئيس الوزراء الاسرائيلي قد هاجم هذه المحكمة وتحداها ، وأمر اجهزته بالاسراع في اتمام بناء الجدار .

*) ولنفرض أن مجلس الأمن قد صوت هذه المرة ضد الجدار – وهو مجرد فرض خيالي – فهل سيكون مصير القرار الذي سوف يصدر عن مجلس الأمن أفضل من القرارات المؤيدة للقضايا العربية التي سبق وأصدرها هذا المجلس على مدى سنوات هي عمر المنظمة الدولية. ومثالا لا حصرا ، وتذكيرا ليس الا : أين هي القرارات الدولية التي تحمل الارقام " 181، 194، 242، 338،" وغيرها الكثير الكثير ؟ . والجواب يعلمه القاصي قبل الداني .

*) ان الانظمة العربية مطالبة أن تعيد النظر في سياساتها ذات الشأن بالقضية الفلسطينية ، اذا ما كانت جادة في التعامل معها ومتابعتها حتى النهاية . وثمة حقائق كثيرة ينبغي على هذه الانظمة أن تدركها حتى يكون لما تمارسه من سياسات مصداقية وشيء من المنطق .

*) أولى هذه الحقائق ان قضية الجدار هي واحدة من قضايا اخرى خطيرة والمقصود هنا الاستيطان . وعلى ما يبدو أن اسرائيل مصرة على الابقاء على الجدار والاستيطان ، ناهيك عن رفضها حق العودة والرجوع الى حدود 67 وكل ما يخص الدولة والعاصمة . وهنا ينبغي على الانظمة العربية أن تغير اسلوب التعامل والتخاطب مع الولايات المتحدة التي هي صاحبة الشأن الاولي ، وفي يدها كثير من أوراق القضية . والانظمة العربية اذا ما ارادت ، فان لديها الكثير من الوسائل والامكانيات للضغط والاصرار على الموقف

*) وثانية هذه الحقائق ، واستكمالا للحقيقة الاولى ، فان الامور في هذا العصر – وهو عصر القوة والتكتلات والعولمة والانحياز والانفراد والاحادية – لا تحل للأسف الشديد بالقانون الدولي ، فللعرب في ذمته الكثير من الاستحقاقات ، والفلسطينيون بخاصة ما زالوا منذ عقود يرزحون تحت ظلال خيبة الامل والاحباط من انصراف المجتمع الدولي عنهم ، واللامبالاة التي يبديها ازاء معاناتهم المستديمة .

*) وثالثة هذه الحقائق – وقد لا تكون الاخيرة – تخص حالة التمزق العربية والتقوقع والعمل الفردي ، أو بصحيح العبارة انخفاض وتيرة العمل العربي الى ما دون الحد الأدنى ، وصمت البعض ، وانتقال البعض من دور الشريك الى دور الوسيط المحايد ، وهي حقيقة لا يملك الفلسطينيون ازاءها الا أن يرفعوا ايديهم الى السماء داعين الله ان يعيد شمل هذه الامة ، وان يجمعها على الصراط المستقيم لتحقيق اهدافها انطلاقا من القضية الفلسطينية التي هي جزء لا يتجزأ من العقيدة السمحاء والتاريخ العربي الاسلامي المجيد .

القضية وأميركا
أميركا .. وتصفية القضية

*) بداية أنوه الى أنني استخدمت مصطلحين في عنوان حديثي هذا . أولهما مصطلح القضية الفلسطينية ، وهو مصطلح لم يعد يستخدم لعدة دوافع وأسباب ، منها كونه المسمى الحقيقي للصراع الفلسطيني الاسرائيلي والذي تحاول كل الاطراف المعادية ان تخرج من جلده . ولأن قضية الشرق الأوسط وهو المسمى البديل لم يعد يصور أو يعكس مضمون القضية ، كون العنصر الوحيد الذي بقي في أتون الصراع هو الفلسطينيين ، بعد خروج كل العناصر الأخرى والمقصود هنا العناصر العربية والشرق أوسطية الاخرى التي كان لها علاقة بالموضوع .
*) واضافة الى كل ما ذكر واستكمالا للعنوان ، فالولايات المتحدة قد قامت بتجيير هذه القضية لحسابها ، وأخذت تتصدى لعناصرها العنصر تلو الآخر الى أن استحوذت عليها جميعا ، وكأن أرض فلسطين التاريخية قد أصبحت ملكا مشروعا لها ، فحللت وحرمت على هواها وكيفما شاءت ، الى درجة ان السياسة الاسرائيلية ممثلة في سلطاتها الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية ، قد أصبحت تعتمد كليا على الرأي والرؤيا الاميركيين ، وتسير على هداهما .
*) وانطلاقا لم يعد سرا ولا أمرا خافيا على أحد أن العلاقة بين الأنظمة العربية والولايات المتحدة الاميركية هي ليست ندية ولا متوازنة ، وانما تسير في اتجاه مؤثر واحد مساره من البيت الأبيض الى هذه الانظمة التي أصبحت تسير في فلك السياسة الاميركية التي تمكنت من اخراج العنصر القومي من معترك القضية الفلسطينية أو تحييده . فاصبح اما انه غائب عن ساحة القضية كليا كما هو حال كثير من الانظمة العربية . واما انه اصبح وسيطا محايدا بعد أن كان مشاركا اساسيا ، وبصحيح العبارة جزءا لا يتجزأ من القضية .
*) وكمحصلة لتحييد أهم عناصر القوة المحركة للقضية الفلسطينية ممثلة بالعروبة وبالبعد القومي انفردت الولايات المتحدة بالقضية قلبا وقالبا ، وتبنتها لحساب السياسة الاسرائيلية . وقد ترجمت هذا الانفراد باستصدار منظومة تشريعات ورؤى وتصريحات وأحكام وقوانين تخص القضية الفلسطينية ، وبطبيعة الحال كانت لصالح طرف واحد هو اسرائيل . وهي منظومة أقل ما يقال فيها انها منحازة حتى العظم وتحمل في صلبها تصفية مبرمجة ومخططا لها لعناصر القضية الفلسطينية ومركباتها الاساسية .
*) أما المصطلح الثاني فهو التصفية التي تقودها سياسة الادارة الاميركية الجمهورية القابعة في البيت الأبيض والتي تخوض سباقا محموما صوب تجديد البيعة لها عبر صناديق الانتخاب ومغازلة الصوت الاميركي اليهودي هذه التصفية للقضية موجهة نحو أهم عنصرين من عناصرها هما الارض والشعب العنصر الأول وهو تصفية الارض فيمثلها الاستيطان الذي باركته الولايات المتحدة أو مولته ، أو غضت النظر عنه على مدى سبعة وثلاثين عاما من الاحتلال للأراضي الفلسطينية .
*) والى هنا كان من الممكن أن يبدو الأمر روتينيا وليس ثمة من جديد في السياسة الاميركية يخص الاستيطان الى أن اعطى الرئيس الاميركي جورج بوش الابن وعده المشؤوم لرئيس الحكومة الاسرائيلية الجنرال شارون والذي ينص على " أحقية اسرائيل " في الاحتفاظ بالكتل الاستيطانية الرئيسة . ومؤخرا أضافت الولايات المتحدة تأييدها لتوسيع هذه المستوطنات رأسيا ، وان كانت اسرائيل لا تعترف في هذه المرحلة الا بالتوسع الأفقي ، فهو العنصر الفعال في مصادرة الأرض وضمها وزيادة المساحة الجغرافية التي هي من أهدافها الاستراتيجية .
*) واذا ما أضفنا الى هذا وذاك موضوع الجدار ، وما أحدثه من افرازات جغرافية وديموغرافية سالبة على القضية شعبا وأرضا ، مضافا الى هذا المشهد تلك المشروعات الاستيطانية الجديدة التي باركها وعد بوش الذي أفتى لاسرائيل بجواز عدم العودة الى حدود عام 1967 ، فان مشهد التصفية للأرض الفلسطينية لا يقبل الجدال فيه ، والحبل على الجرار.
*) وأما تصفية الشعب فهو العنصر الثاني من عناصر القضية وتتمثل في الغاء حق العودة لملايين اللاجئين الفلسطينيين المنفيين الى بلاد الشتات . صحيح أن اسرائيل منذ بداية النكبة الفلسطينية تنكر هذا الحق على اصحابه الشرعيين الذين هجرتهم الى الشتات وما يزالون هناك قابعين ، الا أن أخطر ما في الأمر هو هذا الدعم اللامحدود

من قبل الولايات المتحدة الاميركية التي أعطى رئيسها الحالي وعده بالغاء حق العودة ، وهذا من منظوري السياستين الاسرائيلية والاميركية يعني " توطين " اللاجئين الفلسطينيين حيث هم متواجدون ، يضاف اليهم ما يمكن أن يستجد من عمليات تهجير جديدة بصورة أو بأخرى جراء سياسات القمع الاسرائيلية ومصادرة الأراضي ، وفعاليات التضييق المبرمج على المواطنين الفلسطينيين .
*) وأما ما يخص القدس فان البرنامج الاستيطاني التهويدي الخاص بها يكون قد أوشك على الانتهاء فور اكمال بناء مستوطنة جديدة هدفها اقامة تواصل بين مستوطنة معاليه أدوميم المقامة على اراضي الخان الأحمر المقدسية وبين مدينة القدس ، وبذا فان اسرائيل ستطبق على هذه المدينة وتفصلها عن أراضي الضفة الفلسطينية ، اضافة الى أنها بهذا المخطط سوف تفصل شمال هذه الضفة عن جنوبها . ويهمنا هنا أن نضيء حقيقة سكوت الولايات المتحدة ومباركتها لهذه المشاريع الاستيطانية . وأما القدس من منظور الكونغرس الاميركي ، فقد أعطى نفسه الحق باعلانها عاصمة اسرائيل .
*) وفي ضوء ما ذكر يتضح لنا أن الولايات المتحدة الاميركية قد نسفت كل " وعودها " المتعلقة بخارطة الطريق التي يفترض أنها تعارض الاستيطان أو التوسع به . وأما الدولة الفلسطينية التي " بشر " بها الرئيس الاميركي لحاجة في نفسه ، فعلى ما يبدو أن رؤيته بخصوصها ولدت ميتة ، أو انها كانت مجرد فقاعة في الهواء .
*) ان الولايات المتحدة الاميركية التي منحت نفسها حق رعاية العملية السلمية لم تكن على قدر كاف من المسؤولية ، ذلك أن سياستها كانت منحازة لاسرائيل انحيازا استراتيجيا ، ومن ناحية اخرى فانها لا تقيم وزنا لأصحاب القضية ولا للعرب أو المسلمين . ولعل العيب هنا يكمن في هؤلاء العرب والمسلمين الذين تخلوا عن ثوابتهم وتحولوا الى وسطاء محايدين أو صامتين غارقين في شؤونهم الخاصة متفيئين ظلال الهيمنة الاميركية .
*) وبرغم ما وصلت اليه القضية الفلسطينية من تآمر عليها بهدف تصفيتها أرضا وشعبا ، فان الفلسطينيين وهم أصحاب القضية الشرعيون ينظرون الى هذه المرحلة رغم قساوتها على أنها واحدة من أخطر المراحل التي تردت قضيتهم في مهاويها . الا أنهم برغم ذلك كله لم يستسلموا ولم يذعنوا وهم متمسكون بحقهم المشروع ، ومؤمنون بأن أي سلام لا بدّ وأن يمرّ عبر طريق رضاهم وعودة حقوقهم ، وان غدا لناظره قريب .

خطاب .. لا مبال بالقضية

❋) في خطاب ألقاه مؤخرا أمام الجمعية العمومية التابعة للأمم المتحدة في انعقادها التاسع والخمسين دعا الرئيس الامريكي جورج بوش الابن الفلسطينيين والدول العربية الى التخلي عن العلاقات مع " الارهاب " ، واستطرد محرضا قادة العالم ضمنا على قطع كل علاقة أو صلة مع الرئيس الفلسطيني .
*) وكعادته منذ أن بشر " برؤيته " التي تخص الدولة الفلسطينية غداة أحداث الحادي عشر من ايلول 2001 ، عبر في خطابه هذا عن تفاؤله بشأن التوصل الى تسوية للنزاع الفلسطيني الاسرائيلي على اساس خريطة الطريق أو ما سماها خطة السلام الدولية ، على مراحل ، وصولا الى اقامة دولة فلسطينية مستقلة بحلول العام 2005 .
*) وحتى يبدو متوازنا ويكسب تأييدا عربيا لاحتلاله العراق – وهكذا فسرت الامر حليفته اسرائيل – وجه نقدا الى اسرائيل وطالبها بمد يد المساعدة في عملية السلام عبر تنفيذ خريطة الطريق ، واختصر تبعات القضية الفلسطينية وافرازاتها الكارثية بأن طالب الاسرائيليين بتجميد الاستيطان ، وازالة " المستوطنات العشوائية " ، ووضع حد لأساليب الاذلال للفلسطينيين .
*) مرة اخرى من مرات عديدة سبقتها ، يتذكر الرئيس الاميركي في غمرة انشغاله بمعركة الانتخابات الرئاسية – ولغاية في نفسه – القضية الفلسطينية ، أو بصحيح العبارة يتطرق الى واحدة أو اثنتين من افرازاتها المأساوية التي لا تكاد تحصى ، ويتجاهل الحديث عن المشهد الحقيقي لهذه القضية – أسبابه ونتائجه ومساراته وما يحمل من ظلم تاريخي غير مسبوق حل بالشعب الفلسطيني – وهو قبل هذا وذاك يتجاهل ويتناسى لب الصراع الفلسطيني الاسرائيلي.
*) في حقيقة الامر ، لقد فعل الرئيس الاميركي الحالي ما لم يفعله أي رئيس قبله ، انطلاقا من انحيازه الاعمى والمطلق الى اسرائيل على حساب قضية الشعب الفلسطيني ، وجراء هذا الانحياز عانى هذا الشعب ما عاناه خلال

فترة السنوات الاربع الماضية ، وهي عمر انتفاضته الثانية التي وصمها بالارهاب والعنف ، ووقف منها موقفا معاديا .
*) فالرئيس الاميركي والحال هذه لم يحاول ولو لمرة واحدة أن يسأل نفسه : لماذا ينتفض الشعب الفلسطيني ويضحي بالغالي والنفيس ؟ هل هو حقا السير في ركاب الارهاب كما يدعي؟ أم أنه اليأس والاحباط اللذان أدخلاه الى نفق مظلم لم يعد يرى منه أي بصيص نور أو أمل في الخروج منه جراء انكار وجوده وحقه المشروع في حياة شريفة ووطن استباحه الاحتلال وأنزل به معاناة على مدار الساعة واليوم
*) في حقيقة الامر ليس هناك من جديد فيما قاله الرئيس الاميركي في خطابه هذا ، بل انه بكل بساطة خطاب لامبال بالقضية وباصحابها لعدة اسباب اهمها وأخطرها انه قال رأيه بصراحة يوم أعطى وعده المشؤوم لحليفه رئيس الوزراء الاسرائيلي الجنرال شارون فيما يخص الغاء حق العودة ، والاحتفاظ بالكتل الاستيطانية الكبرى في الضفة الفلسطينية ، والسماح لاسرائيل بعدم العودة الى حدود العام 1967 فأباح بذلك مبدأ الاحتلال . وهنا لا بد من الوقوف عند " قانون القدس " الذي شرعه الكونغرس الاميركي ، والذي بموجبه أعلن أنها عاصمة الدولة الاسرائيلية .
*) والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : وماذا تبقى من القضية الفلسطينية بعد الغاء أهم عناصرها؟ وأية عملية سلمية دولية كانت أم اميركية ممثلة في خريطة الطريق يمكن لها النجاح ، وملايين اللاجئين الفلسطينيين يقبعون في منفاهم على هامش الحياة الانسانية ، ألغى الرئيس الاميركي حقهم بجرة قلم
*) وهذا الاستيطان ، وهذا الجدار اللذان استفحلا كالسرطان فيما تبقى من الأرض الفلسطينية، ألم يقوما على مصادرة الارض وسرقتها جهارا نهارا من أصحابها الشرعيين فبأي عقل وأي منطق وأي قانون بعد هذا كله يبيح للرئيس الاميركي طي ملف هذا السطو على حقوق الآخرين ؟ أليس هو منطق القوة وقانون الغاب ؟ والأنكى من هذا كله تكريس مصطلحي استيطان قانوني ، واستيطان عشوائي غير قانوني . فما هو " قانوني " يبقى في حوزة اسرائيل، وما هو " غير قانوني وعشوائي " " يرجو" الرئيس الاميركي اسرائيل أن تفككه
*) ان الدولة الفلسطينية التي بشر الرئيس الاميركي بوش الابن برؤيتها ، والتي ما زالت نطفة في رحم الغيب السياسي ، ان هذه الدولة من منظور فلسطيني وبمواصفات فلسطينية هي حق للفلسطينيين لا منة من أحد . وهذه الدولة ليست كما يريدها الآخرون مجرد مسمى خال من أي مضمون حقيقي للدول .
*) ان دولة الفلسطينيين العتيدة بكل بساطة وانطلاقا من مفاهيم وقوانين دولية شرعية لا بد وأن يكون قيامها مرتبطا ارتباطا وثيقا بايجاد حل عادل وشامل ومشرف - يرضى عنه الفلسطينيون – لكل تداعيات قضيتهم وافرازاتها التي مضى عليها نيف وسبعة وخمسون عاما ، وما زالت تزداد كارثة ومأساوية ، والاخطر من ذلك كله أن اليد الفلسطينية التي امتدت للسلام لم تجد حتى الآن من يصافحها ويشد عليها من الطرف الآخر .
*) ان الرئيس الاميركي يعلم يقينا أن ما تحدث عنه في خطابه الأخير الذي أشبعه اتهاما وتحريضا وتجاهلا لحقائق الامور ، ليس هو المدخل الصحيح لايجاد حل للصراع الفلسطيني الاسرائيلي . ان التركيز في هذه الآونة على طلب اصلاحات فلسطينية كشرط مسبق للدولة في ظل ظروف احتلال اسرائيلي بغيض لم يتطرق الرئيس الاميركي ولو بكلمة واحدة له ، هو بمثابة لامبالاة بالقضية وتجن عليها ، وهو تهرب من المسؤولية ، وانحياز ما بعده ولا قبله انحياز يصل الى درجة معاداة الشعب الفلسطيني ، وانكار تام لأهم حقوقه المشروعة التي اعترفت بها الشرعية الدولية ممثلة بقرارات الامم المتحدة التي يعرفها الجميع .
*) واذا كان الرئيس الاميركي لا يعرف حقا ماهية العلة ، فان العلة في الاحتلال ، وسرقة الارض ، وامتهان كرامة الفلسطينيين ، وعدم الاعتراف بالحقوق المشروعة التي أقرتها الشرعية الدولية ، ومازالت قراراتها حبرا على ورق جراء السياسات الاميركية المنحازة .
*) وحتى يجيء رئيس اميركي يعترف بهذه العلة ، فان الرئيس الاميركي الحالي ، أو أي رئيس آخر يتبع خطاه وينتهج نهجه وينحاز انحيازه ، هم غير جادين ولا مبالين في ايجاد حل للقضية . وهم أيضا غير مؤهلين لرعاية عملية سلمية حقيقية لافتقارهم الى عناصر الموازنة والموضوعية والعدالة في سياساتهم . ويظل الحال على ما هو عليه الى ما شاء الله .

بوش .. مرة أخرى

❋) وأخيرا خرج المرشحان من حلبة المنافسة على الرئاسة الاميركية " جون كيري " الديموقراطي ، و " جورج بوش الابن " الجمهوري بفوز هذا الاخير بولاية ثانية مدتهااربع سنوات اخرى . وقد تكون هذه النتيجة أثلجت صدور البعض ، ولكنها في ذات الوقت أصابت بالاحباط البعض الآخر وهو كثير ، سواء كانوا أميركيين أو اوروبين أو عربا أو مسلمين أو غيرهم .

*) ونحن باعتبارنا عربا بعامة وفلسطينيين بخاصة لم تكن تعنينا تلك المنافسة الحادة والحامية الوطيس بين المرشحين الاميركيين . وفي اعتقادنا أن ليس بيننا من راهن على واحد منهما دون الآخر ، كونهما في حقيقة الامر وجهين لعملة سياسية واحدة . وكونهما منحازين قلبا وقالبا الى اسرائيل بهدف أن يستمدا منها الدعم والتأييد .

*) في عودة بوش الابن الى البيت الابيض ، لم يصب الشارع الفلسطيني بالاحباط ولن يصاب . فعلى مدار اربع من السنوات خلت ، وهي الولاية الاولى له حدث الشيء الكثير للعرب والمسلمين والعالم بعامة والفلسطينيين بخاصة .

*) وعلى سبيل التذكير ، فقد بدأ الرئيس الاميركي بوش الابن عامه الاول من ولايته الاولى لامباليا بما يجري في الاراضي الفلسطينية ، وغير عابىء بكل تداعيات القضية الفلسطينية وافرازاتها ، حتى كانت أحداث ايلول 2001 التي كانت مفصلا خطيرا في سياسته ، وغداتها التفت الى الاراضي الفلسطينية لفتة سيظل الفلسطينيون يذكرونها بغصة وألم . وليس الفلسطينيون وحدهم ، بل ان العرب والمسلمين هم الآخرون قد عانوا ما عانوه على مدى ثلاث من سنوات ولايته الاولى ، وما زالوا يعانون .

*) انه الرئيس الاميركي جورج بوش الابن الذي فاز بولاية رئاسية ثانية قد كال الوعود العرقوبية للفلسطينيين لغاية في نفسه . ومثالا لا حصرا بدأ برؤيته حول الدولة الفلسطينية التي ما زالت في رحم الغيب السياسي ، وقد تظل هكذا في ولايته الثانية . ثم انه رسم للفلسطينيين خارطة طريق لحل قضيتهم المستعصية ، الا أن كل ذلك ظل حبرا على ورق مزقها الاحتلال الاسرائيلي .

*) وفي المقابل كال الرئيس الاميركي وعودا لاسرائيل الغى بموجبها حق العودة الذي هو بمثابة العمود الفقري للقضية الفلسطينية ، وأباح حرية الاستيطان فيما تبقى من أراضي الفلسطينيين المغتصبة التي افترسها وقطع أوصالها ذلك الجدار العازل الذي غضت السياسة الاميركية الطرف عنه بل وباركته وشرع الكونغرس في زمنه قانون القدس التي أعلنها عاصمة لاسرائيل متحديا بذلك مشاعر العرب والمسلمين التاريخية والعقائدية .

*) الا أن شهية الانحياز الاميركي لاسرائيل ومعاداة الفلسطينيين كانت مفتوحة على مصراعيها يوم أدخلت السياسة الاميركية في عهد هذا الرئيس مجمل النضالات الفلسطينية ضد الاحتلال في حلبة صراعها مع ما تسميه الارهاب ، وكل ذلك تم جراء توأمة بين السياستين الاسرائيلية والاميركية على حساب الفلسطينيين والعرب والمسلمين

*) لم يكن أحد من الفلسطينيين ليصدق أن السياسة الاميركية في أي زمن ومن أي لون سياسي سوف تتصرف ضدهم شعبا وقيادة وقضية على هذه الشاكلة التي حدثت في زمن بوش الابن . الا انها الحقيقة النابعة من عدم التبصر في الامور والالتفاف على العدالة ، والانحياز المطلق للآخر ، ونكران الجميل للأمتين العربية والاسلامية اللتين لهما في فلسطين والقدس مالهما من تاريخ عريق وتراث عقائدي ، وحق مستحق لهما كفلته لهم قرارات الشرعية الدولية التي تجاهلتها السياسة الاميركية .

*) واذا كنا نذكر الامتين العربية والاسلامية في حديثنا هذا ، فمن منطلق أننا نحن الفلسطينيين لسنا وحدنا نصطلي في جحيم السياسة الاميركية . ان العالمين العربي والاسلامي هما الآخران قد وقعا فريسة لهذه السياسة التي أضعفتهما كثيرا ، وهي لهما بالمرصاد من المحيط الى الخليج عربيا ، وكل القارات اسلاميا .

*) لقد احتلت أميركا في عهد بوش الابن افغانستان الاسلامية ، وأتبعتها بالعراق العربية الاسلامية . وعلى خلفية حجج واهية مزقت هاتين الدولتين وأعملت فيهما خرابا ودمارا وقتلا وتشريدا . ولم تكتف السياسة الاميركية بهاتين الدولتين ، فعلى ما يبدو أن مخططي سياستها التي تتقاطع مع السياسة الاسرائيلية في كل نقاطها ، قد وضعوا نصب أعينهم خارطة العالم العربي ، وأنهم قد أعدوا سيناريوهات لكل دولة من دول هذه الخارطة

*) فها هي ذي سوريا تلاحقها قرارات مجلس الأمن بتوجيه أميركي . وهذه القرارات تشكل بكل تأكيد مقدمة لعمل ما أميركي ضد هذا القطر العربي . والسودان هو الآخر تحت الانظار الاميركية وملاحق هو الآخر بقرارات مجلس الأمن التي تقف وراءها السياسة الاميركية .
*) أما بقية العالم العربي فحبله على الجرار ، ذلك أن مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي أعدته الادارة الاميركية في عهد الرئيس بوش الابن " يبشر " بتصدير نمط الديموقراطية والحرية وحقوق الانسان للعرب الذي " طبقه في العراق ". والأنكى من ذلك أن السياسة الاميركية ما زالت تتبجح أنها انما تريد ان تنشر هذه الحرية والديموقراطية في العراق وافغانستان على أنقاض هذا الخراب والدمار وبحار الدماء .
*) لقد عاد الرئيس بوش الابن " بملف انجازاته هذه " الى البيت الابيض مرة اخرى . والسؤال الذي يطرح نفسه : هل سيسير على نفس المنوال ويكمل مشواره الذي بدأه في ولايته الاولى ؟ أم انه سوف يبدل من سياسته كونه قد تحرر من الحاجة الى الصوت اليهودي ، فليس هناك ولاية ثالثة يطمع بها ؟ الا أن هناك ثلاثة أسئلة اهم من كل الاسئلة السابقة . السؤال الاول فلسطيني : هل اقتنع الرئيس بوش أن الشعب الفلسطيني صاحب حق ، وأنه رغم كل ما عاناه وحيدا لم تكسر له شوكة ولم تلن له قناة ، وأنه مصر على حقوقه ؟
*) والسؤال الثاني عربي وتحديدا عراقي : هل اقتنع الرئيس بوش الابن انه ورط نفسه وحكومته وجيشه وشعبه في مستنقع العراق ، وهل هذا الدمار والقتل هو ما يريد ، أم انه كان يخطط لشيء آخر وخاب ظنه ؟ . وسؤال ثالث عالمي : هل اقتنع الرئيس الاميركي أنه جعل العالم أكثر خطورة وأفقده أمنه وأمانه وأنه سوف يسعى الى اعادة الاستقرار له بالتنازل عن عناده السياسي هذا ؟
*) وسواء أجاب الرئيس بوش الابن عن هذه الاسئلة بالايجاب أو النفي ، وسواء اقتنع أو لم يقتنع ، وساء بدل سياسته او لم يبدلها ، ثمة حقائق اولاها أن العالم العربي يرفض سياسته وانحيازه ولا يقبل أن يفرضا عليه فرضا ، وهو متمسك بحقوقه وثوابته وثقافته وحقه في النضال ضد الاحتلال والظلم والقهر في فلسطين والعراق وغيرها . وأخيرا لا آخرا ان الحرية والديموقراطية وحقوق الانسان التي يتوق لها العرب لا يمكن أن يتقبلوها وهي مشحونة على متون حاملات الطائرات والصواريخ والدبابات . وان غدا لناظره قريب .

هكذا يخاطب بوش الفلسطينيين

❋) الرسائل التي تضمنها الخطاب الأخير للرئيس الاميركي جورج بوش الابن في أروقة الجمعية العمومية للأمم المتحدة في انعقادها السنوي لم تفاجيء الشعب الفلسطيني الذي بات على ادراك تام لكل مركبات الخط السياسي الذي ينتهجه تجاه قضيته . وفي ذات السياق فان هذا الشعب قادر على استقراء كل الدوافع والمحركات الرئيسة والفاعلة المتحكمة بهذا الخط السياسي المنحاز قلبا وقالبا الى الطرف الاسرائيلي . وقد يكون تصريح وزير الخارجية الامريكي كولن باول أن " اميركا دولة يهودية مسيحية " يفسر الكثير من منظومة الرأي والرؤيا الاميركية صوب القضايا العربية الاسلامية بعامة والقضية الفلسطينية بخاصة .

*) وللتذكير ، فان الرئيس بوش وهو جمهوري حينما اعتلى سدة الحكم في البيت الابيض في بدايات العام 2001 ، لم تكن القضية الفلسطينية تشكل اهتماما أو هما بالنسبة له ، حتى غداة أحداث ايلول / سبتمبر 2001 ، حيث تمكن رئيس الوزراء الاسرائيلي الجنرال شارون من أن يضيف مجمل النضالات الفلسطينية الى بنود لائحة الارهاب الاميركية ، وان يخلق توأمة روحا وجسدا بين اسرائيل وأميركا .

*) في خطابه الاخير هذا ، وجه الرئيس بوش كلاما للعالم شوه فيه القضية الفلسطينية ، واصفا اياها بعبارة " أحقاد قديمة " يقوم بتحريكها قادة فلسطينيون تسلقوا الى السلطة من خلالها وعبر " تدمير انجازات غيرهم " على حد ادعائه .

*) وحقيقة الأمر أن الشعب الفلسطيني يتمتع بذاكرة فعالة ووقادة . فهو لا يتذكر أي قائد أو زعيم فلسطيني لم تكن الثوابت الفلسطينية نهجه ومنهاجه ، أو أنه زاد عليها أو أنقص منها منذ أن كانت هناك عملية سلمية .

*) انها هي هي ذات الثوابت . فما يخص العام 1948 وهو عام النكبة ، ظل الحديث عن حق العودة والتعويض قائما . وفيما يخص العام 1967 ظل الحديث نفسه عن انهاء الاحتلال وتفكيك الاستيطان ، واخلاء سبيل الاسرى وفي هذه الايام ايقاف العمل في الجدار الفاصل . وأما ما يخص الحل فهو دولة فلسطينية حرة ذات سيادة لها حدودها ومعابرها وكل المقومات والأسس التي تقوم عليها الدول الاخرى مضافا الى كل ذلك اصرار الفلسطينيين على القدس عاصمة لهذه الدولة .

*) وهذه هي القضية بكل ثوابتها كما يفهمها الشعب الفلسطيني ، لم تتبدل ولم تتغير وهي حقوق مشروعة اقرتها له الشرعية الدولية ممثلة بمنظمة الامم المتحدة ، وعبر سلسلة طويلة من قراراتها . الا أن منظور الرئيس بوش لها يختلف كليا ، فهو يعتبرها " أحقادا قديمة " ينبغي على الشعب الفلسطيني أن يتخلى عنها .

*) وحقيقة الأمر أن الرئيس الاميركي يفكر على هذا النحو وأصبح أسيرا لهذا النمط من التفكير . وهو لم يعد قادرا على التفكير الا في اطار هذه الرؤى والمفاهيم الخاصة بالمحتلين المغتصبين ، ذلك انه باحتلاله كلا من افغانستان والعراق أصبح رئيس دولة محتلة مثله كمثل اسرائيل التي تحتل الوطن الفلسطيني فهل يعقل والحال هذه أن يلومها ؟ وكيف ينهاها عن شيء وهو فاعل له ؟ .

*) والغريب في الامر أن الرئيس الامريكي بوش يتحدث عن خريطة الطريق التي ابتدعتها ادارته وكأنه لا يرى أرتال الدبابات الاسرائيلية وقد أصبح اجتياح الاراضي الفلسطينية مشوارها الوحيد ، وشغلها الشاغل . أو أنه لا يرى الجرافات العملاقة تهدم البيوت الفلسطينية وتدمرها عن بكرة ابيها . أو أنه لا يرى هذه الجرافات وهي تغتال الحياة الخضراء وتفترس الاراضي الفلسطينية قربانا للجدار الفاصل . أو أنه لا ترى عيونه هذا التسرطن الاستيطاني في هذه الاراضي . وأخيرا لا آخرا أو أنه لا يرى الدم الفلسطيني المراق الذي لم يتوقف نزيفه يوما واحدا . وهناك الكثير الكثير من مسلسل الآلام هذا .

*) الا أن الأغرب من هذا كله هو حديثه عن الدولة الفلسطينية التي اصبحت مسلسلا بدأ بثه غداة أحداث ايلول 2001 يوم كان بحاجة الى دعم عربي واسلامي . وما زالت حلقات هذا المسلسل الوهمي تتوالى وتلف وتدور حول الرؤيا التي " بشر" بها الفلسطينيين ، والتي أقل ما يقال فيها انها ما زالت " نطفة " تسبح في رحم الغيب ليس لها عظم ولا لحم ، ولا يعرف متى ستصبح جنينا ، ولا متى سيكون ميلادها ، وهل هو يسير أم أنه من المؤكد عسير .

*) أما اللغة الجيوسياسية الخاصة بنشوء الدول وحدودها ومساحاتها وعواصمها ومعابرها وكل المقومات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الاخرى ، فيبدو أن الرئيس الامريكي لا يريد أن يتحدث بها ، أو أنه بصحيح العبارة محظور عليه أن يتحدث بها . انه يفضل والحال هذه أن يترك هذه الدولة الموعودة عالقة في مدارات الاحتمالات والاهواء والمناقصات والمزايدات والترهيب والترغيب والتنظير والتحذير والاشتراطات حتى قبل أن تبصر النور .

*) ان الرئيس الاميركي يقول " ان الشعب الفلسطيني يستحق أن تكون له دولة ". وهذا كلام منصف وعادل لو أنه توقف عند حدود هذا النص . الا أنه استطرد مشترطا على هذه الدولة قبل قيامها أن تمارس صلاحيات الدول الحقيقية القائمة والمعترف بها ، " فتقوم بعمليات اصلاح ، وتقاوم الارهاب ، وتعمل على احلال السلام " . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : وكيف يتم هذا والاحتلال ما زال قائما ، وكل شيء من البنى التحتية أصبح مدمرا ؟ أليس هذا منطقا غريبا عجيبا تعجيزيا ؟ أليس هذا بمثابة وضع العربة أمام الحصان ؟ .

*) والرئيس بوش في خطاباته ورسائله للشعب الفلسطيني ينتهج نهج التنظير ، وكأن هذا الشعب قاصر لم يبلغ سن الرشد السياسية . فهو يطالبه أن يتخذ مما يجري في العراق من "انجازات ديموقراطية انموذجا وقدوة " وهو باسم هذه الديموقراطية التي جلبها للعراق على متون الدبابات والقاذفات وحاملات الطائرات يشترط على هذا الشعب انتخاب قيادة ترضى عنها أميركا واسرائيل ، والا فلن تكون له دولة . والرئيس الاميركي يعلم يقينا أن هذا الشرط مرفوض حتى لو بقي الفلسطينيون بلا دولة قرنا آخر من الزمان ، ذلك انه يتناقض وأبسط قواعد الديموقراطية من جهة ، ويغتال واحدة من القيم السياسية والاخلاقية الفلسطينية الرئيسة من جهة اخرى .

*) والسؤال المتشعب المتكرر على لسان كل فلسطيني وفي ضوء هذه الخطابات والرسائل التي يوجهها الرئيس بوش للفلسطينيين : ماذا تبقى من القضية ؟ وأية دولة يتحدث عنها ؟ وأية احلام فلسطينية سيعمل على تحقيقها ؟ وأية خريطة طريق ؟ وهل حقا أنه قادر أن يحقق دولة للفلسطينيين وهو في حقيقة الامر لا يقدر أن يمنع اسرائيل من اقامة الجدار الفاصل ؟.

*) وخلاصة الامر ان السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية ملخصة في خطابات الرئيس الامريكي بوش للشعب الفلسطيني تلعب في الوقت الضائع وهي على اعتاب الانتخابات الاميركية الرئاسية الجديدة متطلعة الى استرضاء اسرائيل باي ثمن . والادارة الجمهورية برئاسة بوش وكما اثبتت الايام والتجارب منحازة قلبا وقالبا الى اسرائيل ، وهي لا تفكر الا بما تفكر به اسرائيل ، ولا يمكن أن تخرج من قمقم السياسة الاسرائيلية .

الرباعية .. في المدار الاميركي

❋) هناك دافعان وراء فتح ملف اللجنة الرباعية والخوض فيه . أولهما الدعوة التي سمعت مؤخرا بخصوص توسيع قاعدتها . والثاني هو بيانها الأخير المنحاز ضد الشعب الفلسطيني، والذي أكد بلا أدنى شك أنها تدور في المدار الاميركي .

*) حينما نتحدث عن اللجنة الرباعية المنوط بها الاشراف على تطبيق ما حل للقضية الفلسطينية ، أو ما اصطلح عليه قضية الشرق الاوسط ، فنحن نتحدث عن الأمم المتحدة والاتحاد الاوروبي وروسيا الاتحادية . لكن الأهم من ذلك كله هو الضلع الرابع المتمثل بالولايات المتحدة الاميركية التي أولت نفسها منصب الحكم في ملعب هذه اللجنة الغائبة فعلا ، والحاضرة اسما ، وهذا الحكم هو الذي وحده في يده البطاقات الصفراء والحمراء ، وهو الذي بامكانه أن يشهرها في وجه أي لاعب كما يشاء ، او حتى في وجوه كل اللاعبين مجتمعين .

*) بداية لا بد من قراءة لحقيقة العلاقات بين هذا الثلاثي في الرباعية مع الولايات المتحدة التي تنفرد باتخاذ القرارات وتصر على أن تكون هي المرجع الاول والأخير . وأقل ما يقال في هذه العلاقات ان الولايات المتحدة لا تقيم وزنا كافيا لهم ، وانها في كثير من الاحيان تتجاوزهم وتنظر اليهم نظرة استعلاء ، وتحد وعدم اكتراث .

*) في علاقاتها مع الامم المتحدة ، تصرفت على مدى عمر هذه المنظمة الدولية معها على اساس انها في كفة والعالم كله في كفة ، وان كلمتها هي العليا تحت طائلة المعاقبة والمحاسبة بشتى الوسائل كونها تملك سلاحي العون المادي والفيتو . ولعل سيناريو علاقاتها مع هذه المنظمة عشية العدوان على العراق وفي اثنائه وبعده ما يؤكد هذه العلاقة غير المتوازنة القائمة على عدم ايفاء هذه المنظمة ما تستحقه من مكانة واحترام وتقدير واهتمام بالسماح لها بتنفيذ ولو قدر يسير من القرارات التي أصدرتها بشأن القضية الفلسطينية ، بدءا بالعام 1947 حتى هذ الأيام ، أو بشأن الغاء دورها أو تحجيمه فيما يخص الازمة العراقية .

*) في علاقاتها مع الاتحاد الاوروبي ، فان المثالين الألماني والفرنسي اللذين يمثلان اوروبا القديمة من منظور اميركي قسم بموجبه اوروبا الى اثنتين جديدة مطيعة متعاونة ، وقديمة معاندة رافضة ، ان هذين المثالين ما زالا يشكلان في علاقاتهما مع الولايات المتحدة بؤرة اختلاف حاد في الرأي والرؤيا حول كثير من القضايا . واذا ما كان هناك انفراج ما في الآونة الأخيرة ، فانه قد جاء على خلفية اطماع هاتين الدولتين وغيرهما في الاتحاد كيما يكون لهما نصيب ما في الكعكة العراقية ، الى جانب أن الاتحاد منطلقا هو الآخر من مصالحه ومطامعه والضغوطات الاميركية عليه قد أخذ مؤخرا بالتزام الخط السياسي الاسرائيلي ، وتراجعه عن مواقفه السابقة .

*) اما روسيا الاتحادية وريثة الاتحاد السوفييتي السابق فقد فقدت معظم آليات الدولة العظمى التي كانت تتمتع بالندية . ولا يخفى على احد ان الازمات الاقتصادية الخانقة التي تمر بها وحاجتها الى دولة غنية كالولايات المتحدة جعلتها " تفوت " كثيرا من الامور لها ، او تغض النظر عنها ، أو تتجاهلها ، أو على أقل تقدير أن تبدي " عدم رضاها " صوريا .

*) وهكذا فان الولايات المتحدة تصول وتجول في ملعب اللجنة الرباعية ومعها اسرائيل بحرية شبه تامة ، وتفرض رؤاها ومفاهيمها وارادتها . ولا تختلف الحال عنها في أروقة الامم المتحدة وتحديدا مجلس الأمن حيث الفيتو الاميركي بالمرصاد . وبمعنى آخر فان ظلال السياسات والتوجهات الاسرائيلية تخيم على هذه اللجنة ، وهذا واضح وجلي في بيانها الأخير المنحاز قلبا وقالبا لاسرائيل والمتجني على الشعب الفلسطيني ، مما يؤكد أنها تدور في المدار الاميركي .

*) في بيانها الأخير التزمت الرباعية النهج الاميركي فيما يخص القضية الفلسطينية ، أي الانطلاق من النتائج وليس من الاسباب التي تجاهلتها أو قزمتها . وكالعادة أدين ما يسمى العنف والارهاب الفلسطينيين . وطولب الفلسطينيون بالكف عنهما . وهذا ما هو مقصود بالنتائج . أما الاسباب فعلى ما يبدو لا تهم الرباعية ، أو بصحيح العبارة الولايات المتحدة الاميركية التي تريد أن تختزل القضية الفلسطينية الى " جريمة عنف وارهاب " ينبغي على العالم استئصالها .

*) ان الاسباب هي التي تشكل في كمها الهائل والمتزايد مع الايام مأساة الشعب الفلسطيني الذي فقد كل شيء الا الايمان بالله والوطن والحق السليب . ولا نشك أن الرباعية بكل مركباتها وعناصرها تجهل المنطق ، الا انها

تتجاهله بالوقوف عند النتائج . وتذكيرا ليس الا، فان المنطق فيما يخص الحال في الاراضي الفلسطينية يفترض ان يفرض تفكيرا واحدا هو الانطلاق من الاحتلال الاسرائيلي ، وهنا تكمن منظومة الاسباب التي أشرنا اليها .
*) ومرة اخرى وقد ستكون هي المرة الألف فان هذه المنظومة الاحتلالية هي التي تكمن فيها الاسباب ونوردها هنا بالتفصيل الممل : انها الاجتياحات / الاقتحامات / التوغلات / المداهمات / اعمال الهدم والتدمير / الاغتيالات / اعمال القتل / الاعتقالات / مصادرات الاراضي / الاستيطان / الجدار الفاصل / الحصارات / الاغلاقات / الحواجز / الاطواق / حالات منع التجول ، وهناك الكثير الكثير من هذه الفعاليات والآليات الاحتلالية المصحوبة بالغطرسة والتعالي والتحكم والقمع والقهر والاذلال والتشريد وسلب أبسط الاعتبارات الانسانية .
*) واذا ما اضفنا الى هذه القائمة ما يخص اساسيات القضية الفلسطينية من استحقاقات ممثلة بكل القرارات الدولية المجمدة بدءا بحق العودة ، وعدم الاعتراف باحتلال الارض ، وعدم الاعتراف بضم القدس وحق التقسيم ، فان المأساة الفلسطينية تصبح كارثة تتفاقم مع الايام ولا تترك خيارا امام الفلسطينيين الذين غرقوا في بحر متلاطم من اليأس والاحباط وخيبة الأمل ، وعندها فلا بد ان الحياة تساوي عدمها ، وتظل على الدوام كل الاحتمالات مفتوحة امام اليائسين المحبطين الذين طوال ستة عقود لم يروا أي بصيص نور في النفق الذي حشروا فيه.
*) ان الفلسطينيين يتوقون كغيرهم من الشعوب بل ربما اكثر من غيرهم الى انهاء الصراع الفلسطيني الاسرائيلي بالطرق السلمية . ولكنهم يشعرون يقينا أن رياح الاطماع الدولية تسير بعكس ما تشتهي سفنهم . وهم يشعرون أيضا انه لا الدول الكبرى ولا المنظمات الدولية ولا هذه اللجنة الرباعية قد انصفتهم . وحقيقة الأمر انها عادت بهم الى المربع الأول ، مضافا اليه عنصر التجريم والادانة .
*) والفلسطينيون على يقين أن الحلول المطروحة عليهم ما زالت نظرية عالقة في مهب الاهواء والاطماع والمزايدات والمناقصات ، وانها بمجموعها لا تصل الى ما دون سقف امانيهم واحلامهم ، وانما هي تستهدف فرض حل يشتم منه كسر شوكتهم ، ولي ذراعهم ، وتخفيض هامتهم . الا انهم في كل مرة يزدادون صلابة وعنادا لاسترجاع حقهم السليب . وهم ما عادوا يأبهون بهذه التهم الظالمة الجائرة التي تكال لهم من قبل دول وجهات ولجان وآخرها هذه الرباعية ، تكتال بأكثر من مكيال ، وتفتقر الى الانصاف والعدل والموضوعية والمنطق ، وايديها ليست نظيفة في تعاملها مع قضايا الشعوب .

بوش والدولة الفلسطينية

❋) في مستهل ولايته الثانية ، عاد الرئيس الاميركي جورج بوش الابن يعزف على أوتار "رؤيته" القديمة عن دولة فلسطينية "يمكن" ان تقوم في العام 2009 . ان اختيار هذا التاريخ فيه ما فيه من مكر ودهاء . فهو ينقلنا فورا الى ثلاثة مشاهد محتملة تتقاطع مع بعضها في كل النقاط .

❋) المشهد الأول حيث تكون ولاية الرئيس بوش قد شارفت على الانتهاء . وهنا نجد أنفسنا في معترك المشهد الثاني حيث تكون الولايات المتحدة الاميركية غارقة في خضم الانتخابات الرئاسية ، حيث التنافس بين الجمهوريين والديموقراطيين يكون على أشده في هذه الآونة التي تتسم بحساسية مفرطة تجاه الارتماء في أحضان السياسة الاسرائيلية طمعا في الحصول على أصوات الناخبين من يهود أميركا . وأما المشهد الثالث فهو بدء ولاية رئيس امريكي جديد له منظوره الخاص في السياسة الخارجية ، وليس بالضرورة متبعا لخطى من سبقه .

❋) لقد استغل الرئيس بوش رحيل الزعيم الفلسطيني المغفور له الرئيس ياسر عرفات عن الساحة الفلسطينية ، وعاد "يبشر" الفلسطينيين بوعده باقامة الدولة الفلسطينية . وهو حديث تفوح منه رائحة الاتهام المباشر للرئيس عرفات انه كان حجر عثرة في وجه العملية السلمية ، وان الامور سوف تكون بعده افضل ، وان هناك امكانية لان تكون للفلسطينيين دولة في العام 2009 .

❋) وحقيقة الامر ان الحديث الاميركي عن الدولة الفلسطينية ما هو الا مجرد كلام يقال . الا ان الحديث الذي له اعتبار عن هذه الدولة التي ما زالت نطفة في رحم الغيب السياسي الامريكي ، والتي هي رهن تلك الالتزامات او بصحيح العبارة منظومة الاشتراطات الاميركية الاسرائيلية التي ينبغي على الفلسطينيين تنفيذها ، والتي اعيد التأكيد عليها في الاجتماع الذي جرى مؤخرا في واشنطون بين الرئيس بوش وطوني بلير رئيس الحكومة البريطانية .

❋) وهذا ان دل فانما يدل على ان الوتر هو نفس الوتر ، والنغمة هي نفس النغمة ، ونفس الاصرار على ان الكرة هي في الملعب الفلسطيني وليس في الملعب الاسرائيلي . وكان من المفترض ان يكون الاحتلال الاسرائيلي للاراضي الفلسطينية ، والحقوق الفلسطينية الاخرى وكذلك المستوطنات ، وعمليات التوسع في الاستيطان ، والجدار العازل ، وغيرها من القضايا التي ينبغي على اسرائيل ان تبت فيها لصالح الفلسطينيين وهي كثيرة ، ويفترض انها اكثر بكثير مما هو مطلوب من الفلسطينيين .

❋) لقد دأب الرئيس الاميركي بوش في ولايته الاولى على كيل الاتهامات للرئيس الفلسطيني الراحل بايحاء من الجنرال شارون رئيس الحكومة اليمينية الاسرائيلية ، فاتهمه بتأييد اعمال العنف والارهاب والتستر عليها ، وجراء هذه الاتهامات الباطلة ، فان الرئيس عرفات رحمه الله – وعلى حد ادعاء هذه الاقاويل الباطلة – ضيع فرصة قيام الدولة الفلسطينية كونه "لم يعد شريكا في العملية السلمية" .

❋) ولسنا هنا بصدد الدفاع عن مواقف الرئيس الراحل ابي عمار . ان الحقيقة التي يعرفها القاصي قبل الداني انه لم يفرط في القضية الفلسطينية ، برغم انه مد يد السلام للاسرائيليين . الا ان هذا السلام كان له معنى واحد هو الجلاء عن اراضي الضفة والقطاع وتفكيك المستوطنات وتفعيل حق العودة والشروع في اقامة الدولة السيادية الحرة المستقلة وعاصمتها القدس العربية ، وهو اولا واخيرا لم يتنازل عن الثوابت التاريخية للقضية .

❋) واذا كانت اسرائيل وامريكا تتحاملان على الفلسطينيين في شخص الرئيس الفلسطيني الراحل ، وتصفان المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال ، ومنظومة النضالات الاخرى من اجل استعادة حقوقهم المشروعة بالعنف والارهاب ، فلكونهما لا يريدان هذا السلام الذي اراده ابو عمار وهو الحد الادنى الذي يمكن ان يقبل به الفلسطينيون بعد ان سلبت بلادهم واراضيهم وهجروا عنها عام 1948 . وكونه سلاما مستوحى من قرارات الشرعية الدولية "194 ، 242 ، 338" وغيرها من القرارات ، وهي قرارات تتجاهلها اميركا واسرائيل .

❋) ان الفلسطينيين ليسوا من السذاجة بحيث تنطلي عليهم مثل هذه "البشائر والوعود" التي يعزف على اوتارها الرئيس الاميركي . والفلسطينيون ما زالوا يتذكرون "رؤيته" عن الدولة الفلسطينية ابان ولايته الاولى والتي ذهبت ادراج رياح النوايا الاسرائيلية في تصفية القضية من جذورها ، فكان الاجتياح التدميري الشامل بالاسلحة الامريكية للاراضي الفلسطينية التي يفترض ان تشكل نواة الدولة .

❋) ويومها غض بوش الطرف عما يجري ، وانحاز ضد القضية واهلها وما زال . والانكى من ذلك انه اعطى الوعود لاسرائيل بالغاء حق العودة والاحتفاظ بالمستوطنات ، وقدم الكونغرس في زمنه بقانون اميركي القدس عاصمة لاسرائيل للابد . الا ان اخطر ما فعله الرئيس بوش انه صدق ادعاءات شارون ان المقاومة الفلسطينية هي ارهاب ، وان المقاومين هم ارهابيون ، وان الرئيس الفلسطيني المرحوم عرفات يناصر الارهاب ويتستر عليه .
❋) ان الولايات المتحدة ممثلة برئيسها بوش الابن في ولايته الثانية تخطئ خطأ فادحا اذا كانت تتوهم ان رحيل الرئيس عرفات يعني ان المجال قد اصبح متاحا لتنفيذ المنظور الاسرائيلي للحل النهائي ، وهو المنظور الملتف على الثوابت الفلسطينية التاريخية ، والذي تتبناه اميركا دون تبصر بعواقب الامور .
❋) ان المطلوب من الادارة الاميركية وتحديدا من الرئيس بوش ليس المزيد من البشائر والوعود ، وانما اعادة السياسة الامريكية الى سكة التوازن وعدم الانحياز والتخلي عن ازدواجية المعايير . ويقينا لو كان الرئيس الامريكي جادا في طرحه عن الدولة الفلسطينية لسعى الى قيامها في غضون اشهر دون مماطلة وتسويف ووعود ليس لها رصيد على ارض الواقع ، ودون تلك الاشتراطات بطلب المستحيل من الفلسطينيين بعد ان قدموا الحد الاقصى ، كون هذا المستحيل هو التنازل عن اساسيات القضية في مقابل دولة ان قامت فستكون منزوعة المقومات الحقيقية للدول ، ولا تلبي ما دون الحد الادنى من الاماني والاهداف الفلسطينية .

نحن والكارثة الاميركية

❋) تشكل الكارثة الدامية التي حلت بالولايات المتحدة الاميركية مؤخرا واحدا من احداث التاريخ المعاصر الخطيرة ، كونها حلت بأقوى دولة في العالم وأغناها وارقاها علما وتقنية وكونها بكل المقاييس قد تشكل مفصلا بين عصر انتهى وعصر تبدلت فيه الموازين الاستراتيجية على خلفية امكانية ظهور قوى اخرى غير تلك التي عرفت حتى الآن .

*) وبداية فليس في حديثنا هذا أية ذرة من ذرات التشفي او الشماتة . فنحن الفلسطينيين لنا نكبتنا التي فرضها الآخرون علينا ، والذين ما زالوا على مدار نصف قرن ونيف يلحقون بنا الكارثة تلو الاخرى . ولعل اول ما علمتنا اياه نكبتنا دروس معمقة في الانسانية جعلتنا نتعاطف مع كل الشعوب التي تحل بها الكوارث ، وان لا نتمنى ان يحل بها ما حل بنا .

*) وفي ذات السياق وانطلاقا من حقيقة ان الشعب الاميركي يتعامل في شتى مرافق حياته مع الاحصائيات والارقام والتشبيهات والاوصاف ، فاننا نقدم له مثالا لا حصرا بعضا من ملف النكبة الفلسطينية : ان حجم الركام والحطام والدمار الناجم عن كافة المرافق الفلسطينية التي دمرها الاحتلال تفوق مئات المرات نظيرتها الناجمة عن حطام برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك .

*) ولا نبالغ في القول اذا ما اكدنا انه لو قيس ارتفاع هذه المرافق الفلسطينية المدمرة ، لتجاوز مئات المرات مجموع ارتفاع برجي نيويورك ، وشكل بالتالي مئات الابراج . لكن الاخطر من ذلك كله انه اذا ما اضيف الى ما ذكرناه مئات الآلاف من القتلي والجرحى والمشردين والمنفيين من وطنهم ،علاوة على حقيقة الحقائق ان الشعب الفلسطيني أصبح بلا وطن ولا أمن ولا سلام ولا حرية ، تصبح الكارثة الفلسطينية هي كارثة العصر دون سواها .

*) ان الشعب الفلسطيني وهو يشاهد الكارثة الاميركية " لا يبرر " دوافعها بأية صورة كانت ، ولكنه كغيرة من الشعوب المقموعة المقهورة له الحق ان " يفسر " هذه الدوافع ذلك انه أقدر من سواه على تفسيرها فهو كان ولا يزال يصطلي نار جحيم الارهاب .

*) وهنا ينبغي التفريق بين المشاعر الانسانية التي ابداها ولا يزال يبديها الشعب الفلسطيني بخاصة والعربي بعامة تجاه الشعب الاميركي كون هذه المشاعر غير قابلة للجدال او اللغط او التأويل مهما حاول المناورون والمصطادون بالمياه العكرة ، وبين مشاعر الصدمة والألم والغضب تجاه السياسات الاميركية المنحازة والتي لها أكثر من مكيال . ان الفلسطينيين والعرب يشعرون ان صناع القرار السياسي الاميركي هم فريسة اللوبيات الاسرائيلية الضاغطة كونهم يميلون بزاوية انعطاف حادة جدا الى الطرف الاسرائيلي في الصراع ، دون الأخذ بمشاعر العرب والفلسطينيين ، ولا حتى التفكير بان مساحة كبيرة من المصالح الاميركية الحيوية مرتبطة بالوطن العربي .

*) وفيما يخص الشعب الاميركي بالذات فلا تستطيع اية جهة أيا كانت ومهما حاولت ان تضع الشعب الفلسطيني في مصاف اعداء الشعب الاميركي . فسجل العلاقات الفلسطينية الاميركية على مستوى شعبي نظيف لا تشوبه أية شائبة . والاميركيون يتجولون بكل حرية بين الفلسطينيين ويلقون كل ترحاب . وليس هناك مرة واحدة اعتدى فيها فلسطيني على اميركي وهذه حقيقة يعرفها كل اميركي تعامل مع الفلسطينيين . وهي تنطبق الى اقصى الحدود على الوطن العربي .

*) ان المحاولات المسعورة والحالات المفبركة التي تعرض على الشعب الاميركي عبر شاشات تلفزته ما هي الا عمليات اصطياد في المياه العكرة ، وهي واحدة من مسلسل الدعايات المسمومة والمغرضة التي برع اعداء الفلسطينيين والامة العربية في تسويقها والترويج لها وتبقى الحقيقة الناصعة ان الشعب الفلسطيني لا يعادي الشعوب ومنها الشعب الاميركي الذي وقع فريسة اعلام معاد قدم له الاضاليل والاكاذيب على اطباق مصالحه الخبيثة .

*) ان اعداء الشعب الفلسطيني الحقيقيين هم الذين يشوهون صور نضالاته المشروعة ويحجبون حقائقها عن بصيرة الشعب الاميركي وبصره . وها هم هذه الايام يختبئون تحت مظلة الركام الاميركي وغباره ليسجلوا حلقة جديدة من نواياهم الشريرة على ثلاثة محاور المحور الاول هدفه تحقيق مكاسب على حساب ما تبقى للفلسطينيين

بهدف الاجهاض عليهم . والثاني هدفه تشويه سمعتهم والصاق صفة الارهاب بهم وبنضالاتهم . والثالث هدفه اذكاء نار البغضاء والكراهية ضد العرب والمسلمين في اميركا والعالم .
*) والفلسطينيون - وما حصل قد حصل – قد تكونت لديهم منذ زمن بعيد قناعات كغيرهنم من الشعوب حتى تلك الأقرب الى الولايات المتحدة ثقافة وحضارة ، ان الولايات المتحدة الاميركية قد جنت في النهاية حصاد ما زرعته سياساتها على مدار عقود عديدة منذ نهايات الحرب العالمية الثانية وحتى بدايات القرن الحادي والعشرين الحالي .
*) ولسنا هنا بصدد محاسبة الولايات المتحدة على مجمل سياساتها وتحكمها بالعالم وهيمنتها عليه باعتبارها القطب الاوحد . انما يهمنا هنا هو قضيتان اساسيتان . الاولى مطالبتها ان تعيد النظر في حساباتها مع القضية الفلسطينية التي حاق بها وبأهلها ظلم تاريخي وذلك في ضوء الكارثة الانسانية التي حلت بها مؤخرا عساها تزيل الغشاوة عن بصيرتها وتدرك وهي تعاني مرارة ما عاناه الآخرون وفي مقدمتهم الشعب الفلسطيني .
*) والحقيقة الثانية تخص العلاقة مع شعب الولايات المتحدة . فالوطن العربي ومنه الفلسطينيون كان وما يزال مصلحة من أخطر المصالح الاميركية على كافة الصعد الاقتصادية والامنية والسياسية والتسويقية والاستثمارية . والمستفيد الاول والاخير هو الشعب الاميركي . ويبقى السؤال المطروح : الا يستحق هذا الوطن وأهله ان يرد لهم الجميل في احترام قضاياهم ومساعدتهم على تحقيق امانيهم المشروعة ؟
*) وخلاصة القول لقد جربت الولايات المتحدة حتى الآن نمطا واحدا من سياسات الهيمنة والعولمة والتحكم بمصائر الشعوب ومقدراتها خدمة لمصالحها هي ، والمحصلة كانت هذه الكارثة على سياساتها وشعبها . واذا كانت معنية حقا بالقضاء على الارهاب فعليها ان تبحث في دوافعه ومسبباته ، فهي دون ادنى شك كامنة في قهر الشعوب والتعالي عليها والكيل لها بمكيال خاص . وهي تحديدا متجذرة في النكبة الفلسطينية . وعسى ان تشكل هذه الكارثة اساسا للتغيير الايجابي الذي دون أدنى شك سيجلب الخير والرفاه والأمن والسلام لشعوب العالم وفي مقدمتها شعب الولايات المتحدة الاميريكة قبل غيره .

في ضوء ادانة الكونجرس الاميركي للانتفاضة الفلسطينية
العرب .. والسياسات الاميركية

❋) بداية لا بد من الاستهلال بملحوظتين اثارتهما احتفالات بدء الالعاب الاولومبية في العاصمة الاسترالية " سيدني " . وتخص الملاحظة الاولى الاستقبال الحافل الذي حظي به " الوفد الرياضي الكوري الموحد " ، والذي اثار في النفوس العربية غصة ، وتمنيا على الله ان ياتي اليوم الذي تتحد فيه كافة الوفود العربية ومنها الرياضية في وفد عربي واحد في كافة المحافل الدولية ايا كانت . وتاتي الملاحظة الثانية كتساؤل يطرح في هذا السياق مفاده : متى سيصبح بامكان العرب ان يفرضوا وجودهم ، ويوظفوا امكانياتهم الهائلة لاستضافة دورة العاب اولومبية في احدى عواصمهم العربية ؟ .
❋) ومرة اخرى ، وبعد انتهاء دورة " سيدني 2000 " ، فان فتح ملف الرياضة في الاقطار العربية يصبح امرا ذا مغزى ولا بد منه ، وذلك على ضوء الانجازات الهزيلة التي فقدت بريق الذهب ولمعانه ، وطرحت السؤال الذي يتردد على السنة الكثيرين في الوطن العربي وربما خارجه والذين تابعوا الالعاب الاولومبية ، او الذين يهمهم ان يكون لوطنهم العربي مكانة مرموقة على خارطة الرياضة العالمية ، فالرياضة هي النشاط الانساني الوحيد الذي لا يشكل خطرا على أي نظام سياسي ايا كانت جغرافيته وتوجهاته . وهي اللغة العالمية التي يفهمها كل بني البشر على اختلاف اجناسهم والوانهم ولغاتهم ، والوحيدة التي تجمع الشعوب في ميدان واحد . وكونها في الدرجة الاولى استثمارا للطاقات الانسانية التي خص الله بها بني البشر ، بهدف اطلاقها من مكامنها تجسيدا لقدرات الانسان وطموحاته في الوصول الى اقصى ما يريد . وعلى الصعيد العربي ، كون الرياضة الامل الوحيد في تحقيق انجاز ما عالمي في غمرة غيابهم عن ساحات الانجازات العلمية والتقنية والفنية ، وقناعتهم المفروضة عليهم في ان يكونوا " متلقين مقلدين استهلاكيين " في عالم لا يحترم الا " المبدعين المبادرين المنتجين " .
❋) وثمة دافع اخر لفتح هذا الملف كون الاقطار العربية في هذا المضمار لم تعد تكتفي بان يكون لها رياضة على مستوى محلي . وتطمح لان تصدر نماذج من رياضتها الى خارج اوطانها على مستوى اقليمي او قاري او عالمي

. بمعنى انه يفترض عليها والتوجه هذا ، ان تقبل التصدى لكل التحديات والمنافسات ، واستخدام الاساليب والتقنيات والاليات الحديثة لتطوير رياضتها في اطار توظيف خبرات متطورة ، ورصد موارد مالية كافية ، وقبل كل هذا وذاك ان تصبح الرياضة منهج حياة لدى ابنائها ، لا مجرد وسيلة ترفيه او هواية ، وذلك ضمن مناهج رياضية نظرية وتطبيقية معد لها بكفاءة عالية ، تشمل كل الفئات العمرية انطلاقا من الطفولة المبكرة . ودافع اخر يخرج عن نطاق المحلية الاقليمية يكمن في رغبة جامحة تتجسد في ان تكون هناك رياضة على مستوى قومي ، ذلك انه حتى الان لا يوجد هناك على ارض الواقع " فريق رياضي عربي " لا يحمل صفة الاقليمية . ويبقى هناك دافع على جانب من الاهمية كون الرياضة تشكل المنطلق الحركي والمستودع الاسلم لتفريغ الطاقات بشكل سلمي وحضاري وابداعي للفئات العمرية العربية في سني الطفولة بكل مراحلها وكذلك الفئات الشبابية وحتى الرجولة . اذ يفترض ان يكون هناك تاريخ من التقاليد والانتصارات الرياضية كمرجعية يستند اليها الرياضيون العرب ينطلقون منها معززين بها اهدافهم وطموحاتهم لتحقيق المزيد من هذه الانتصارات وفي اعتقادنا ان الامجاد الرياضية عنصر لا يقل اهمية عن بقية العناصر الاخرى التي تعمل على تفعيل دور الرياضيين وحثهم وحفزهم للوصول الى فضاءاتا رياضية اكثر اضاءة واشراقا .

❋) وعودة الى الانجازات الهزيلة ، او حتى الخروج من المشاركات دونما أية انجازات ، وهي السمة الغالبة على مشاركات معظم الاقطار العربية في الساحات الدولية . وهذا يدفعنا ايضا للحديث عن البنية التحتية لواقع الرياضة في الاقطار العربية . وبداية فان الرياضة لا تحتل المكانة التي ينبغي لها ان تحتلها في سلم الاولويات . او انها بمعنى اخر يفترض من مخرجاتها اكثر بكثير مما يضخ من خلال مدخلاتها . وهذه في اعتقادنا احدى التوقعات المبالغ بها ، والتي تحمل في كثير من الاحيان عكس المرجو منها . ومن نافلة القول عدم اعتماد مقولة ان الرياضة استثمار على اكثر من صعيد . ولكن هنا يهمنا في الدرجة الاولى تحقيق الاهداف الثلاثة الرئيسة للرياضة وهي " اقوى ، اعلى ، اسرع " . وهذا لا ينفي ان للرياضة بكل اشكالها مردودات مادية لافتة للنظر في ما لو احسن الاستثمار فيها .

❋) وعلى خلفية ما ذكر فان الرياضة في الاقطار العربية بحاجة الى اعادة النظر في الاسس التي تقوم عليها ، في ما لو ارادت ان تدرج ضمن قائمة الاقطار الرياضية التي لها تواجد حقيقي على الساحات الرياضية الدولية . ان الاقطار العربية - وكل حسب امكانياتها ومواردها المادية والبشرية ، ودرجة تطورها ورقيها الحضاريين – مطالبة والحال هذه ان يكون لها استراتيجية رياضية ، او ان تعيد النظر في " استراتيجيتها " القائمة . ان الالعاب الاولومبية وكل الارقام القياسية الدولية التي يتم تحقيقها في ساحاتها وميادينها وملاعبها ومسابحها وقاعاتها يكمن ان تشكل مدخلا رافدا لهذه الاستراتيجية . وفي نفس الوقت يمكن دراسة العوامل الكامنة خلف هذه الارقام والانتصارات . ومما لا شك فيه ان ثمة عنصرين اساسيين في ازدهار رياضة الاقطار المتطورة والتي تحصد الذهب والفضة والبرونز في الالعاب الاولومبية والمراكز الطليعية في غيرها . اولاهما ان الرياضة ملك للجميع وتبدأ مع الطفولة المبكرة ضمن اطر منهجية علمية وتقنيات متطورة . وثانيهما ان الرياضة لا تاتي من عدم ، وانما بقدر ما يضخ لها من موارد مالية بقدر ما تؤتي من ثمار .

❋) وخلاصة القول ان الانتصارات التي يحققها بعض الرياضيين والرياضيات العرب تؤكد ان الانسان العربي ايا كانت اقطاره لا يقل عن غيره فيما لو احسنت تربيته الرياضية ، ولقي من الرعاية والتدريب والوسائل والاجهزة والحوافز المادية والمعنوية . وانه دون ادنى شك – والحال هذه – قادر ان يحقق انجازات باهرة له ولامته ووطنه العربي .

رايس والدولة الفلسطينية

❋) مرة أخرى وقد لا تكون الأخيرة تشكل الدولة الفلسطينية موضوعا عابرا في ملفات السياسية الاميركية ، لكن هذه المرة على أجندة وزيرة خارجية الولايات المتحدة الاميركية ، وتحديدا في جلسة المصادقة على تعيينها في منصبها أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الاميركي .
*) في هذه الجلسة عرضت الدكتورة كوندوليزا رايس رؤيتها لدولة فلسطينية اسوة برئيسها جورج بوش الأبن الذي ما فتىء يتحدث عن هذه الدولة في مناسبات اختارها بدقة ابتداء من العام 2001 غداة أحداث ايلول /سبتمبر ، ولا يخفى على أحد أنها رؤية له فيها مآرب كثيرة .
*) تتلخص رؤية وزيرة خارجية الولايات المتحدة بثلاثة أفكار نوهت لها هي : مستقلة ، ديموقراطية ، غير مفككة الاراضي . وفي هذا الصدد قالت ان دولة مفككة الاراضي لا تتمكن من أداء وظيفتها كدولة مستقلة وديموقراطية .
*) ولا يختلف أحد من الفلسطينيين مع الدكتورة رايس فيما يخص هذه الافكار التي يمكن وصفها بأنها مفاهيم عامة ونظرية . فالفلسطينيون يريدون لدولتهم العتيدة أن تكون دولة حقيقية مستقلة وذات سيادة متواصلة الأراضي . أما ما يخص طبيعة النظام السياسي والاجتماعي لهذه الدولة ، فالفلسطينيون متحرقون الى أن يكون ديموقراطيا بمعنى الكلمة ، ولا غرابة في ذلك فلديهم المؤهلات والمقومات والرغبة لأن يكونوا ديموقراطيين كباقي الشعوب الديموقراطية .
*) ان ما قالته السيدة رايس فيما يخص الدولة الفلسطينية قد يبدو كثيرا من وجهة نظرها ، الا أن ما لم تقله من وجهة نظر فلسطينية هو أكثر بكثير ، بل انها قصدت أن تظل رؤيتها – وهذا على ما يبدو هو التوجه الامريكي - تسبح في فضاء مفاهيم عامة ونظرية كان بالامكان أن تنطلق بها من هذه الدائرة المغلقة الى الاسس الجيوسياسية التطبيقية التي يفترض أن تقوم عليها الدولة الفلسطينية .
*) ما لم تتطرق اليه السيدة رايس هو حدود هذه الدولة التي ينبغي أن تكون حدود العام 1967 بما فيها القدس الشرقية باعتبارها عاصمة هذه الدولة . والاهم من ذلك كله انها لم تتطرق الى كون هذه الاراضي الفلسطينية ما زالت محتلة ، وان ثمة قرارين دوليين قد صدرا عن مجلس الأمن هما 242 و 338 لا يقران مبدأ الاحتلال ولا الاحتفاظ بالاراضي المحتلة من قبل المحتل أو مصادرتها . وفي ذات السياق فان الوزيرة لم تتطرق الى المستوطنات الاسرائيلية التي اقيمت على أراض فلسطينية مصادرة ، ناهيك عن قضية الجدار الفاصل وافرازاته الكارثية .
*) واستكمالا فان هذه الدولة من منظور سياسي اميركي بعامة وما طرحته الوزيرة رايس بخاصة لم تحظ بعد وهذا المفترض بخارطة تبين شكلها ومساحتها وحدودها ومعابرها وعاصمتها وماهية التواصل بين اجزائها . وعلى ما يبدو أن عدم الحديث عن هذه الموضوعات له دلالته ومغزاه ، ويمكن استقراء ما بين سطوره المتمثل في عدم اغضاب اسرائيل أو اجبارها أو فرض أية رؤى عليها ، أو بمعنى أصح خضوع الرؤيا الاميركية في هذا الصدد للضغوطات الاسرائيلية .
*) وعلاوة على كل ما ذكر فأن الحديث عن الدولة الفلسطينية لا ينبغي له أن يكون في معزل عن استحقاقات القضية الفلسطينية الاساسية ولا افرازاتها المأساوية المتمثلة في قضية اللاجئين الذين ما زالوا منفيين مشتتين خارج حدود وطنهم التاريخي ، يعيشون على هامش حياة تنتفي فيها أبسط مقومات الحياة الانسانية .
*) والسؤال المتعدد الجوانب الذي يطرح نفسه بالحاح هنا : كيف يمكن قيام دولة فلسطينية حقيقية قابلة للحياة ومعظم شعبها خارجها ، في حين أن الادارة الاميركية على لسان الرئيس الاميركي جورج بوش الابن قد أعطت وعدها بالغاء حق العودة ؟ وكيف يمكن لهذه الدولة أن تقوم ومعظم اراضيها محتلة ولا تعترف الادارة الاميركية بأنها محتلة ؟ وكيف يمكن لهذه الدولة أن تكون مستقلة ذات سيادة - على فرض أنها قامت - وهي محاطة ومحاصرة ببحر من الاستيطان افترس هواءها وماءها وثرواتها الاخرى وأبسط شروط قيامها والادارة الاميركية رئيسا ووزيرة خارجية وكونغرس يباركون هذا الاستيطان

*) وعودة مرة اخرى الى خطاب الوزيرة رايس . فمقابل هذه الافكار العامة والمبهمة التي تخص رؤيتها للدولة الفلسطينية ، افردت مساحة كبيرة من الحديث عن أمن اسرائيل ، والمطالبة بايقاف ما تعتبره عنفا وارهابا من قبل الفلسطينيين ضدها .
*) لقد تجاهلت الوزيرة الاميركية وهذه سياسة اميركية على ما يبدو أصبحت تقليدية حقائق كثيرة تخص الفلسطينيين . اولاها أمن المواطن الفلسطيني وما يمارس ضده من عمليات اجتياح عسكرية على مدار اليوم والاسبوع والشهر والسنة ، لا فرق في ذلك بين ليل أو نهار.
*) ويقينا أن الوزيرة رايس تعرف أعداد الشهداء والجرحى والأسرى الفلسطينيين ، وتعرف اعداد المنازل التي هدمتها قوات الاحتلال الاسرائيلية ، وتعرف مساحة الاراضي الفلسطينية المصادرة ، وتعرف المآسي التي خلفها جدار العزل ، وهي تعرف ما يمارس من اذلال للفلسطينيين على المعابر والحواجز ، وهي في النهاية تعرف الفوارق الهائلة في القوة العسكرية التدميرية بين اسرائيل والفلسطينيين . والسؤال هنا : الا يستحق كل هذا ولو بضع كلمات من الوزيرة ، أم أن الانحياز المطلق هو المحرك الرئيس للسياسة الخارجية الاسرائيلية ؟ وأين هو ما أعلنته عن اعتمادها الاسلوب الواقعي في سياستها الخارجية ؟
*) كلمة أخيرة تقال للوزيرة الاميركية ، ومن قبلها قيلت للرئيس الاميركي جورج بوش الابن: ان قيام دولة فلسطينية لا يحتاج الى كل هذه الرؤى والوعود والمماطلات والاشتراطات والاملاءات والتواريخ البعيدة . فاذا ما صدقت النوايا الاميركية وكانت خالصة لوجه الحق والعدالة والتوازن والمعيار الواحد والحرية التي يتحدث عنها الامريكيون فان قيام الدولة الفلسطينية اقرب وأسهل وأيسر بكثير مما يتصوره أي مسؤول أيا كان منصبه في سدة الحكم الاميركي .

انتفاضة الاقصى
قراءة .. في انتفاضة الأقصى

❋) كثيرة هي الملاحظات والرسائل التي يمكن استقراؤها من خلال انتفاضة الاقصى المبارك، انطلاقا من دوافعها العقائدية والقومية والوطنية الخالصة ، ووقوفا عند احداثها وما يمكن ان تجره من تداعيات وردود افعال عليها عربيا واسلاميا واسرائيليا . وبداية فانه من نافلة القول تفسيرها على انها حدث محلي ، او انها مجرد انفعال آني كونها ذات بعد عقائدي الهب مشاعر المسلمين في كافة ارجاء الدنيا . ان عملية الاقتحام المدججة بالسلاح لساحة المسجد الاقصى المبارك كانت بمثابة رسالة تحد للفلسطينيين الذين هم الامناء الشرعيون على المقدسات الاسلامية في القدس ، كون الاقصى امانة اسلامية تاريخية في اعناقهم وفي ايديهم .

❋) وزيادة في التحدي تم توقيت هذا الاقتحام ليصادف الذكرى الثامنة عشرة لمذابح صبرا وشاتيلا في عام 1982 ، وكذلك الذكرى الرابعة لأحداث نفق الاقصى في عام 1996 . فجاء عامدا متعمدا ليصب الزيت على النار المتقدة في جوارح الفلسطينيين الذين يصارعون هذه الايام كل الطروحات التي تستهدف انتزاع هذه المقدسات من ايديهم في اطار تسوية هزيلة وثمة رسالة اخرى يمكن قراءتها من حيثيات هذا الاقتحام . فهي موجهة الى العرب والمسلمين كافة تحمل طابع التحدي والاستخفاف والاستهانة بمقدساتهم ومشاعرهم الدينية في جو من الغطرسة والاستعلاء واللامبالاة . وهنا لا بد من التأكيد على ان جريمة الاقتحام هذه ليس لها الا مخطط ومدبر ومنفذ واحد هو الاحتلال الاسرائيلي بغض النظر عن شخصية "المقتحم" ولونه السياسي ، او ماضيه العسكري .

❋) ان حالة الاحتقان والغليان والاحباط التي تسيطر على الشارع الفلسطيني بكل الوان طيف شرائحه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في الوطن والشتات ، كانت ولا تزال محصلة طبيعية لما افرزته العملية السلمية من انكار لمجمل الحقوق الفلسطينية على خلفية تعنت اسرائيل المؤيدة بالدعم الامريكي المطلق ، واصرارها على منظور لا يتقاطع مع هذه الحقوق . فقد ادرك الشعب الفلسطيني بما لا يدع مجالا للشك ان المقصود من هذه العملية هو سلام اسرائيل وامنها ورفاهيتها والاعتراف بها عربيا واسلاميا ، والتطبيع معها على كافة الصعد ، وبالتالي صيرورتها عنصرا اقليميا فاعلا ومؤثرا ومهيمنا على كافة المرافق الحياتية في الوطن العربي . وكل ذلك في مقابل تسوية هزيلة ليس لها رصيد حقيقي على ارض الواقع ، ومفرغة من كل مدخلات النضال الفلسطيني واساسياته وثوابته عبر سنواتها الطوال . ولعل الانكى من ذلك كله مخططات انتزاع حق سيادة الفلسطينيين على الحرم القدسي الشريف توطئة لمؤامرة تحاك ضده لم تعد تخفى على احد خيوطها ولا نواياها .

❋) لقد جاءت ردة الفعل الفلسطينية فورية ومباشرة واثبتت منذ ساعاتها الاولى انها وبكل معنى الكلمة "الانتفاضة الثانية" والتي تشرفت بانتسابها للاقصى المبارك ، متجاوزة بذلك نطاق المحلية الوطنية الى آفاق العالمية العربية الاسلامية . لكنها تنطلق من وحدة الدم الفلسطيني في الوطن وداخل الخط الاخضر والشتات . واذا كانت الانتفاضة الفلسطينية الاولى في العام 1987 قد وضعت الشعب الفلسطيني على طريق اثبات وجوده وشرعية مطالبه وحقوقه الاخرى ، وبعثت فيه الامل بتحقيق حريته واستقلاله ، رغم مرارة شعوره انه ظل وحيدا في ساحات نضاله ، ذلك انه فقد مساحات شاسعة من العمق العربي جراء رؤى الانظمة العربية الاقليمية ، وحالات الانقسام والتشرذم في ما بينها فان انتفاضة الاقصى الحالية قد احدثت تطورات هائلة وخطيرة على كافة الساحات العربية والاسلامية وحتى العالمية ، وهي لا تزال في ايامها الاولى . وسواء طال مداها الزمني ام قصر ، فان قوة فاعليتها تكمن في انها تمكنت من كسر الحواجز وايصال رسائلها الى من يهمهم الامر في العالمين والعربي والاسلامي وغيرهما .

❋) وكما كانت هي فورية ومباشرة ، فقد جاءت ردود الافعال عليها اسرع مما يمكن ان يتصوره انسان ويبدو ان ضمير الشارعين العربي والاسلامي قد صحا اخيرا . وكان الكثيرون قد راهنوا على "شلله" . وبدا ان هناك رسائل كثيرة يمكن قراءتها ايضا من خلال "انتفاضة هذين الشارعين" ، تؤكد ان انتفاضة الاقصى قد عادت بالقضية الفلسطينية الى اوليتها وان المشاعر العربية الاسلامية التي كانت تعاني حالة اختناق قد تدفقت مرة اخرى . لقد اعادت انتفاضة الاقصى الاعتبار للجماهير العربية والاسلامية ، واكدت على استحالة تفسخ الرابطة العضوية التي لا انفصام لها في ما بينها وبين قضاياها القومية والعقائدية . والاخطر من ذلك كله انها حفرت عميقا في العلاقات ما بينها وبين انظمتها السياسية التي كانت حتى اللحظة تظن انها تحت ظلال ممارساتها الاقليمية الضيقة قد الغت

دور هذه الجماهير القومي والعقائدي . ان انتفاضة الاقصى وما تولد عنها من انتفاضات في الشارعين العربي والاسلامي قد وضعت الانظمة السياسية العربية والاسلامية على مفترق طريقين لا ثالث لهما . فاما ان تصر الانظمة العربية على الاستمرار في نهجها الذي ارتأت فيه طريقا وحيدة لها . واما ان تسير في طريق العودة الى العروبة الحقيقية وما تفرضه من واجبات والتزامات اخوية واخلاقية تجاه الاشقاء اينما كانوا وتجاه كل القضايا العربية لأنها في النهاية قضية واحدة . وان تكون بحجم المسؤوليات التي تفرزها تحديات لم تفرض على الفلسطينيين وحدهم وانما على الامتين العربية والاسلامية تستهدف البعدين العقائدي والقومي اللذين تمثلها فلسطين والقدس والاقصى .

❋) وخلاصة القول فان الجماهير العربية هذه المرة لا تكتفي بمد يد المعونات الانسانية والطبية بقصد شفاء جراح المصابين الفلسطينيين ومواساتهم على شهدائهم . فهناك جريحان آخران لا يمكن شفاء جرحيهما الا "بدواء عربي اسلامي مشترك" وهذا الجريحان هما الاقصى في احضان القدس الاسيرة ، والكرامة العربية الاسلامية . ولقد قدم الفلسطينيون الكأس الاولي من هذا الدواء مترعة بدماء شهدائهم .

الانتفاضة .. تحولات واتجاهات

*) في الذكرى السنوية الاولى لانتفاضة الأقصى الفلسطينية ، لا بد من الوقوف مليا عند أهم التحولات التي أفرزتها تجربة عام كامل من الصراع الفلسطيني مع الاحتلال الاسرائيلي ، واستقراء الاتجاهات التي يمكن ان تتمحور حولها . وبداية فنحن لا نبالغ او نحيد عن الحقيقة حينما نؤكد ان هذه التجربة بكل حذافيرها ومعطياتها وتفاعلاتها وتداعياتها وآثارها على الصعيدين الفلسطيني والاسرائيلي توازي حصيلة العديد من السنوات النضالية الفلسطينية ، وربما تتفوق عليها شكلا ومضمونا كونها من جهة اتخذت من أرض الوطن قاعدة لها ، وكونها من جهة اخرى تتصدى لقوة عسكرية قل نظيرها عددا وعدة وتقنية .

*) على الصعيد الفلسطيني فان اولى التحولات الجذرية ان الشعب الفلسطيني هذه المرة اعاد الزخم الى قضيته الاولى وجعلها في واجهة الاحداث ، اضافة الى انه قال "لا" بأعلى صوته للاحتلال ولم يخش من سداد فاتورة تكلفتها من دماء ابنائه ومعاناته الانسانية جراء اشرس التحديات التي انصبت على مدنه وقراه ومخيماته فحرمته من أبسط بسائط الحياة الانسانية . ومع ذلك استمر في تصديه ذلك انه كسر حاجز الخوف من أية اخطار يمكن ان تنزل ساحته . فالشارع الجماهيري الفلسطيني أصبح على يقين انه قد جرد المحتل من كل اساليبه ووسائله ، فبات هذا يكررها بعدما فقدت الكثير من فاعليتها .

*) الا ان التحول الاخطر في الساحة الفلسطينية كان يتمثل في ان الفلسطينيين لم يعودوا يتلقون الضربات في عقر دارهم وحدهم ، بل انهم استطاعوا ان ينتقلوا في مرات عديدة من طور الدفاع الى الهجوم ، والى خلق حالة من توازن الرعب بينهم وبين الاحتلال .

*) وثمة ظاهرة يمكن اضافتها الى هذا التحول الاخير . فلقد خسر كل الذين راهنوا على نقيضها ، وتخص الوحدة الوطنية والبنيان المرصوص والتماسك المتلاحم الذي خرج به الشارع الفلسطيني الى العالم بكافة أطياف قواه السياسية التي انطلق منها الى مجمل فعالياته الميدانية . وهي ظاهرة يعود لها الفضل الاكبر في اكساب الجماهير الفلسطينية القدرة على التحدي والتصدي واخذ زمام المبادرة في احيان عديدة ، والاجماع على المواقف

*) وجراء كل ذلك اكتسب الفلسطينيون مناعة ضد كل ما كان يشكل بالنسبة لهم هما أمنيا واقتصاديا وانسانيا . ولا يشك احد في انهم اكتسبوا طاقة لا حدود لها في الصمود والتحمل والصبر والاصرار على الموقف والوقوف عند الهدف المنشود وعدم التخلي عنه بأي شكل من الاشكال .

*) وعلى الصعيد الاسرائيلي – سواء اعترف الاسرائيليون ام لم يعترفوا ، وهم على الاغلب يدركون ذلك في قرارة انفسهم – ان قوتهم العسكرية بكل اساليبها وقوتها الضاربة وتقنيتها العالية لم تقهر الفلسطينيين ، وانها لم تحل مشكلة الامن الاسرائيلي . وهي في المجمل لم تجلب لها أي انتصار بالمعنى الحقيقي للانتصار . فالانتصار يعني القضاء نهائيا على الخصم. وهذا الامر لم يحصل ولا مرة واحدة مع الفلسطينيين . والانتصار يعني قطف ثماره سلاما وأمنا وأمانا وراحة بال وطمأنينة ، وهو الآخر ظل أمنية عرجاء مشلولة .

*) وعلى عكس الشارع الفلسطيني الموحد في أهدافه النضالية الساعية الى زوال الاحتلال واقامة الدولة السيادية بعاصمتها القدس الى جانب منظومة الحقوق المستحقة للقضية الفلسطينية ، فان الشارع الاسرائيلي منقسم على نفسه فيما يخص رؤيته المتعصبة للقضية التي جرته الى حالات انعدام الأمن والاستقرار والتدهور الاقتصادي ، الى جانب تراجع احلامه بالتطبيع مع الاقطار العربية الاخرى . في حين ان هناك شرائح لها منظور مغاير تماما وان كانت ذات تأثير لا يكاد يذكر . الا ان الانقسام الحقيقي يبرز جليا في ما ينبغي فعله للخروج من هذا المستنقع .

*) لقد انقضى العام الاول من عمر الانتفاضة التي عرت السياسة الاسرائيلية من ورقة التوت التي كانت تسترها ، فبانت على حقيقتها تعاني من قصر النظر كونها لا ترى أبعد من أنفها ، ولا تعترف بالواقع ، وهي في النهاية تخدع نفسها وشعبها ، وتجر المنطقة الى حقل الغامها . ان كل ما جنته هذه السياسة حتى الآن انها عادت بالقضية الى مربعها الاول كونها لا تملك برنامجا سياسيا ، وكونها ما زالت تصر على الطروحات ذات المذاق الامني او المدى المرحلي ، وترفض ان تعترف ان جذور الازمة تعود الى ان الشعب الفلسطيني مصر على كامل حقوقه التي كفلتها له الشرعية الدولية .

*) وعلى خلفية المشهد العام للانتفاضة – وبتأثير الاحداث الدامية التي شهدتها الولايات المتحدة الاميركية مؤخرا – فثمة ثلاثة اتجاهات او سيناريوهات يمكن تصورها للخروج من دوامة العنف الاحتلالي والردود عليه . وهي بطبيعة الحال ليست بذات المستوى نفسه . فالسيناريو الاول يتمثل في اعادة الاوضاع الى ما كانت عليه قبل الثامن والعشرين من ايلول العام 2000 . وهذا ما تسعى اليه اسرائيل ويرفضه الفلسطينيون رفضا باتا .
*) والسيناريو الثاني وبضغط من الولايات المتحدة الاميركية بهدف تهيئة الاجواء لبناء تحالف ضد ما تسميه الارهاب يتمثل في العودة الى تنفيذ " تقرير ميتشل " . والفلسطينيون يشكون في صدقية النوايا الاسرائيلية ، ويتمثلون اساليبها في المماطلة والتسويف والتجميد وعدم احترام التواريخ ، والتفسيرات الخاصة بها للاتفاقيات ، اضافة الى لاءاتها ومحرماتها الايديولوجية تجاه مستحقات القضية الفلسطينية .
*) والسيناريو الثالث وهو أقرب الى الاحتمال والواقعية ويتمثل في استمرار فعاليات النضال الفلسطينية بصورة او باخرى الى النقطة التي تقتنع عندها كل من الولايات المتحدة واسرائيل معا ان لا مناص من الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني وضرورة التعايش معه . وهذا السيناريو يحتاج الى المزيد من الصبر والتضحيات على الصعيد الفلسطيني .
*) وخلاصة القول ان العبرة الاولى التي يمكن استخلاصها من تجربة عام انتفاضة الاقصى الاول ومن قبلها ثلاثة وخمسون عاما هي عمر النكبة ، تؤكد ان بركان الصراع والعنف سيظل يقذف حممه طالما ان حقوق الشعب الفلسطيني مغيبة . والعبرة الثانية ان هذا الشعب لم يستسلم يوما ولن يستسلم والعبرة الثالثة ان حقوق الفلسطينيين هي وحدها التي تحمل في طياتها بذور الأمن والأمان والسلام للجميع ، وما عدا ذلك فهو الوهم وحلم ابليس في الجنة .

الحرب على الفلسطينيين

*) قد يثير هذا العنوان بعض الاستغراب ذلك أن الحرب على الفلسطينيين ليست جديدة ، وانما هي قديمة قدم القضية الفلسطينية ، وفي ذات الوقت فهي مستمرة الا أن وتيرتها تتباين من آن الى آخر ، ولكن السنوات الثلاث الأخيرة وتحديدا منذ الاجتياح الاسرائيلي الأول للأراضي الفلسطينية في العام 2001 وحتى هذه الأيام ، حملت في ثناياها من شرور الحرب وشراستها وأحقادها وتحدياتها ما لم تحمله كل سنوات النضال الفلسطيني . ومع ذلك فهناك ما هو جديد جدا فيها وهو أنها أصبحت " حربا على الفلسطينيين " وحدهم دون أمتهم .

*) ان تعبير الحرب على الفلسطينيين جاء هذه المرة على لسان أمين عام جامعة الدول العربية الذي أعلن ان الجامعة سوف تعقد على " مستوى المندوبين الدائمين " لبحث ما يدور في الأراضي الفلسطينية من حرب على الفلسطينيين .

*) وبداية فان الفلسطينيين وهم جزء من الأمة العربية وهذا العالم العربي ممتنون لكل من يقف معهم ويؤازرهم في محنتهم سواء كانوا من اشقائهم او اصدقائهم . الا انهم في نفس الوقت لا يريدون من أحد أن يكلف نفسه ما لا طاقة له به ، أو أن يلعب في الوقت الضائع ، أو ان يقول ما لا يقدر على فعله ، أو بصحيح العبارة ما لا ينوي أن يفعله .

*) ان التجربة الفلسطينية مع الأشقاء العرب فيما يخص القضية الفلسطينية التي كانت قضية العرب الأولى تجربة مريرة . وأبسطها أنها لم تعد القضية الاولى ولا الثانية ولا الثالثة ولا حتى العاشرة . وليس في هذا القول أية مبالغة أو تجن على أحد . فالفلسطينيون الآن وحدهم في المعترك تنهب قضيتهم ، ويستباح حجرها وشجرها وبشرها ، وتراق دماء ابنائهم صباحا مساء ، ليلا نهارا تحت ظلال صمت مريب عربي قبل أن يكون عالميا .

*) والفلسطينيون على يقين أن كثيرا من العرب قد أصبحوا ينظرون الى القضية الفلسطينية من منظور سياسي قطري ضيق مجرد من بعده القومي متجاهلين أنها ما كانت في يوم من الأيام ولن تكون الا قضية تاريخ مشترك ومقدسات عقيدة يفترض انها تخص الجميع . وهل القدس بأقصاها المبارك ، وصخرتها المشرفة ، وبقية مقدساتها الأخرى تخص الفلسطينيين وحدهم ؟ وهل هي مجرد عاصمة لدولتهم العتيدة ؟ كلا وألف كلا ، فالقدس أكبر من ذلك وأقدس وأعم وأشمل ، شاء من شاء وأبى من أبى

*) ان الفلسطينيين وحدهم في المعترك . واسرائيل تحاربهم على جبهات عديدة . ومثالا لا حصرا جبهة الجدار الفاصل الذي بلغ طوله حتى الآن 150 كم وهو ماض في افتراس الأراضي الفلسطينية وتدميرها . وهناك جبهة الاستيطان التي ما هدأ لها هدير في توسعها الأفقي والعمودي وتسمين ما هو قائم . وهناك جبهة الاغتيالات الجوية . وهناك جبهة الاجتياحات شبه اليومية وهناك جبهة الحواجز والاغلاقات وحظر التجوال التي تتحكم بحركة البشر فأعادت الانسان الفلسطيني الى عصور سحيقة فقد فيها أبسط حقوقه الانسانية . وهناك جبهة المطاردة والملاحقة والاعتقالات . وهناك جبهة الاطباق على القدس وتطويقها تمهيدا للانقضاض على المسجد الاقصى لاقامة الهيكل الثالث . وهناك جبهة التحالف والتزاوج الاستراتيجيين مع الولايات المتحدة ، وجراءه أصبح ما هو نضال مشروع ارهابا ، وما هو تحرير ومقاومة لاحتلال عنفا واجراما . الا أن الجبهة الأكثر ايلاما وأذى للشعب الفلسطيني هي جبهة العلاقات العربية الاسرائيلية ، وهذه العلاقات والاجتماعات والزيارات وكأن السلام قد رفرف بجناحيه على المنطقة .

*) ان وصف الأمين العام لجامعة الدول العربية الحديث عن السلام في ظل هذه الحقائق الدامية على الارض الفلسطينية بأنه كلام فارغ ، ويجب بحث الموضوع على انه حرب على الفلسطينيين من قبل اسرائيل ، ان هذا الوصف تصوير حقيقي للواقع في شقه الأول . وهو في شقه الثاني يتضمن أبسط قواعد المنطق .

*) أما الشق الأول فيستطيع كل مسؤول عربي أن يدلي بما يشاء من أقوال تدين أو تستنكر أو تشجب أو ترفض – وان أصبحت مثل هذه الأقوال لغة عربية نادرة هذه الأيام - . أما الشق الثاني المتعلق ببحث الموضوع على أنه حرب على الفلسطينيين – وليته أشرك الأمة العربية في هذه الحرب – فهذا منطق تفرضه الاخوة والعقيدة والمصالح المشتركة .

*) الا ان السؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هنا بعد ان ترجل العرب عن مواقفهم ، والقوا بثوابتهم ، ورهنوا لاءاتهم في سوق الاعتراف والتطبيع : ماذا بقي لهم غير الكلام . حتى هذا الكلام اصبح شعاره " اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب " .
*) في حقيقة الأمر وفي ظل هذا الصمت العربي المطبق الرهيب المريب ، وغض النظر المحكم عما يدور في الاراضي الفلسطينية من مآس وعذابات ، فان أقصى غايات جود الانظمة العربية هو اللجوء الى مجلس الأمن حيث الصغير قبل الكبير يعلم ان الفيتو الامريكي بالمرصاد . وان قرارات الجمعية العمومية لا تغني ولا تسمن من جوع . وان الانتصار فيها وهم وسراب خادع .
*) ان الامر يحتاج الى اكثر من انفعال شكلي على شاشات التلفزة هدفه التسكين والتهدئة والتخدير . انه بحاجة الى فعل عربي صادق مخلص نابع من ضمير قومي عقائدي . انه بحاجة الى مراجعة النفس حول ما آلت اليه الامة العربية من هزائم وانكسارات للخروج من جحيمها . أما الشعب الفلسطيني الذي اعلنت الحرب عليه من كل الجهات بما فيها جبهة الصمت العربي المريب ، فهو لم ينكسر على مدى كل سنوات نضاله ، وان دفع ثمن ذلك غاليا وما زال . أما المنكسرون والمنهزمون فهم الهاربون من المعركة والصامتون والخارجون على الانتماءات القومية والعقائدية .

الاجتياح .. واعادة البناء

٭) الحديث عن الاجتياح العسكري الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية ذو شجون وأشجان . فهو من ناحية لم يتوقف وما زال يصبغ ربوع الوطن بكل ألوان طيفه واشكالها. ومن ناحية اخرى ثمة الكثير الذي يمكن أن يقال فيه من حيث أبعاده العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية الانسانية سواء على الصعيد الفلسطيني والعربي كل على حدة او الصعد الاسرائيلية والدولية وتحديدا الولايات المتحدة الاميركية .

*) وعلى الارجح فان هذا الاجتياح سوف يشغل بال الكتاب والمحللين السياسيين ردحا من الزمن أقله عند حدود توقفه ، وانطلاق المنطقة الى آفاق مغايرة على طريق تحقيق قدر معقول ومشرف للاهداف الفلسطينية المشروعة التي كان ولا يزال يتربص بها هذا الاجتياح .

*) بداية ان الصورة الأكثر وضوحا وجلاء للاجتياح الاسرائيلي في هذه المرحلة هي تلك الخاصة بحجم الدمار الهائل الذي أوقعه في البنية التحتية للحياة الفلسطينية . ومثالا لا حصرا في كافة أشكال المؤسسات والمباني والطرقات وشبكات الكهرباء والمياه والاتصالات والمواصلات مضافا الى كل ذلك الاضرار التي لحقت بالبيئة الفلسطينية ، ولا تستثنى الاجهزة والمعدات التقنية التي تستخدم في كثير من مجالات الحياة الفلسطينية من هذا السيناريو التدميري . لكن هذا الدمار يشكل زاوية أما الزاوية الاخرى فهي المتعلقة بالدمار الذي لحق بالأماكن التاريخية والأثرية والدينية العريقة كونها تراثا انسانيا فريدا لا يمكن تعويضه .

*) وبمعنى آخر فان حجم هذا الدمار الذي لحق بالوطن مدنه وقراه ومخيماته غير مسبوق الى الحد الذي وصف بأنه "زلزال" على أعلى درجات سلم اجتياح عسكري استخدم آلة حربية متطورة فائقة التقنية ذات قدرات تدميرية هائلة . ونحن هنا لا نستثني اولئك الذين سقطوا دفاعا عن ثرىالوطن وتطلعات ابنائه نحوالحرية والتحرر فأضافوا برحيلهم خسارة لا تعوض.

*) في ضوء هذه الصورة للوطن في اطار الاجتياح ، فانه لا ينبغي الاغفال عن حقائق تخص الشعب الفلسطيني الذي كان في الدرجة الاولى هو الهدف الحقيقي له . واولى هذه الحقائق ان قوافل التضحيات البشرية منذ مطلع القرن العشرين حتى مطلع القرن الحادي والعشرين الحالي لم تفت في عضده ولم تكسر شوكته ولم تنل منه منالا . وفي المحصلة لم تثنه عن ديمومة المطالبة بحقوقه المشروعة أو تجبره على التنازل عنها حتى في ذروة هذا الاجتياح الذي يمكن أن يوصف بأنه ثانية حروب القرن الحادي والعشرين بعد حرب افغانستان ولكنها حرب على طرف لا يملك أبسط بسائط الآلة الحربية ولا مقوماتها .

*) وثانية هذه الحقائق أن الفلسطينيين قد أثبتوا على الدوام قدرتهم الفائقة على امتصاص الصدمات الى الحد الذي تولدت لديهم عنده مناعة تحول دون المساس بروحهم المعنوية المتميزة أو اصرارهم على الوصول الى حقوقهم المشروعة في الحياة . ولا أحد ينكر أن الجرح هذه المرة عميق ومتعدد الاتجاهات . الا أن صورة هذا الحدث الجلل أبرزت شعبا رابط الجاش قوي الايمان بربه ووطنه وأهدافه ، لم يقعده الهلع مما جرى له ولن يقعده عن النهوض من بين الاطلال والرماد ، فلطالما كان ندا للتحديات .وكثيرة كثيرة هي الحقائق في هذا الصدد

*) وحقيقة ثالثة لا ينبغي الاغفال عنها وهي ان الفلسطينيين غداة نكبتهم الاولى في العام 1948 ، وفي اعقاب نكسة حزيران من العام 1967 قد شدوا رحالهم وما زالوا الى اقطار العالم بعامة والوطن العربي بخاصة مساهمين مساهمة فاعلة في بناء هذه الاقطار وتطويرها على كافة الصعد . وان بصمات ابداعهم الحضاري ما زالت ماثلة على جل مناحي الحياة هناك .

*) وانطلاقا من هذه الحقائق الآنفة الذكر وغيرها فان عملية اعادة البناء والترميم وازالة آثار الاجتياح وتطهير البيئة الفلسطينية لا تخرج عن كونها جزءا لا يتجزأ من نضالات هذا الشعب الذي وصف بانه طائر العنقاء الذي يخرج حيا من رماد الموت والدمار . وهي تجسيد لروح الجماعة وتوظيف لمعاني الوحدة الوطنية تتجلى في المساهمات التطوعية حيث هبت شرائح عدة من ابناء فلسطين وبخاصة الفئات الشبابية وتحديدا طلبة المدارس والجامعات الذين شمروا عن سواعدهم ذكورا واناثا بهدف اعادة الابتسامة لوجه الوطن الحضاري .

*) وعلى ما يبدو فان الوطن ومنذ أول وهلة اتيحت لأبنائه وبأقصى طاقات ممكنة متاحة لهم قد غدا ورشات عمل متعددة أضيفت الى ورشاته الاساسية . اذ لامكان للتأجيل والتسويف او الاعتماد على وعود قد تصدق أو لا تصدق

أو انها قد تتأخر لسبب أو آخر أو يطول انتظارها. وهنا وفي غمرة معترك ازالة آثار الاجتياح فان ابناء فلسطين يذكرون بكل فخر واعتزاز ويثمنون عاليا وغاليا المشاعر الصادقة لأشقائهم من جماهير العروبة والتي ترجموها الى دعم معنوي ومادي ووقفة مشرفة الى جانبهم .

*) ويقينا فان الشعب الفلسطيني حائز على رصيد وافر من ارادة العمل والتصدي للتحديات التي ألقت بأثقال جديدة في ساحة نضالاته فزادت من اعبائه . وليس من المستبعد ان تحمل له الايام القادمة المزيد من هذه الاثقال ، ذلك ان التحديات مستمرة طالما أن قافلته تشق طريقها الى الهدف المنشود .

*) وخلاصة القول ان اعادة البناء والترميم والاعمار لما دمره الاجتياح العسكري الاسرائيلي في المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية خط جديد من خطوط العمل الفلسطيني الدؤوب يضاف الى خطوط اهدافه الاخرى على طريق انهاء الاحتلال وتحقيق الحرية والسيادة والاستقلال ممثلة بالدولة وعاصمتها القدس مضافا الى كل ذلك استحقاقات نكبته الاساسية الاولى . والانسان الفلسطيني لديه الكثير من مخزونه الابداعي المتجدد على الدوام ومن عطائه الذي لا يقف عند حد . ان استقراء فصول مأساة الشعب الفلسطيني يضيء فضاءآت لم تقو التحديات على شراستها من اطفائها . واذا كانت الاحجار تنهار ، واذا كانت الاشجار تقتلع أو تحرقها النار ، لكن في النهاية يظل هذا الشعب واقفا لا ينهار .

نابلس .. ومسلسل الاجتياحات

❋) الاجتياح العسكري الاسرائيلي للمدن والقرى والمخيمات الفلسطينية بعامة ولنابلس بخاصة أصبح مسلسلا على أرض الواقع . الا ان هناك فارقا شاسعا بين مشاهدة هنيهات منه على شاشات التلفزة وبين معايشته دقيقة بدقيقة وساعة بساعة ويوما بيوم وشهرا بشهر وهو يصول ويجول في الميادين والشوارع والاحياء السكنية بدروعه وآلياته الحربية يتفيأ ظلال مروحياته وطائراته الهجومية يعزف على أوتار حديد يقدح نارا ، ويصلي الأرض جحيما .

*) ان مشاهدة عينات أولقطات مختارة ومنتقاة من سيناريو الاجتياح عبر وسائل الاعلام بعامة والعربية بخاصة لا يستغرق عرضها دقائق معدودة هي على الاغلب صامتة لا تصور الحدث أثناء وقوعه وفي زحمة حدوثه ووطأة معايشته ورهبة الانفعال به . فمعايشة الحدث على أرض الواقع سيناريو آخر تلتقي فيه كل الفصول والمشاهد والادوار وتستغرق من الوقت مساحة لا يعلم مداها الا الله ، وتثير من المشاعر والعواطف والاحاسيس الانسانية ما يخرجها عن طورها ومنوالها ووتيرتها .

*) في هذا السيناريو الاجتياحي لا يسمع الا أصوات هدير الدبابات والمجنزرات والجرافات وآلات الهدم العملاقة وأزيز عواصف الطلقات النارية ودوي الانفجارات ولا يرى الا غبار عمليات تفجير المباني والتلال من ركام الهدم والتدمير . انها أحدث أشكال الحرب الحقيقية يحملها الاجتياح على أجنحته الشيطانية فيغتال السلام والأمن والأمان ويصبح كل شيء مباحا مستباحا . وأما الانسان الذي يتغنى الآخرون بأنه الأغلى والاعلى فيصبح الأرخص والاخفض وأما التاريخ والحضارة فيصبحان تحت رحمة من لا يعرف الرحمة ، وغبار الاقتحام يدفن تحت انقاضه كل القيم والمثل الانسانية ، وتصبح الحقيقة أولى ضحاياه .

*) انها الحرب غير المتكافئة يجسدها هذا الاجتياح ، ولا شك أن الماضي ممثلا بالتاريخ والحضارة والتراث هدف من أهدافها . الا أن الهدف الأكبر يظل هو الحاضر والمستقبل ممثلين بشعب القضية والقضية ذاتها كونها في حصن حصين تخلد في الذاكرة لا تقوى عليها الاعاصير ، يحوطها الاصرار الذي لا يقف عند أي حدود .

*) وللاجتياح في كل الاراضي الفلسطينية بصمات يصعب على الايام أن تمحوها . الا ان اجتياح نابلس يحمل في طياته منظومة من القسوة والشراسة والعنف فاقت التصور . ففي الحادي والعشرين من شهر أيلول "2002" ويصادف الاعتدال الخريفي على أجندة الفصول الاربعة تكون نابلس قد قضت فصل الصيف كاملا دون نقصان وهي تصارع تحديات الاجتياح الاسرائيلي الخامس لها . وتحديدا فان صبيحة اليوم الحادي والعشرين من شهر تموز "2002" وتصادف الانقلاب الصيفي حملت معها هذا الاجتياح الاخير الذي ما زال يرخي سدول ظلاله الدامية السوداء على مدينة جبل النار الفلسطينية .

*) وعودة الى أول اجتياح عسكري لنابلس في أوائل أيام فصل الربيع . فيوم خرجت أرتال الدروع والمجنزرات والآليات الحربية منها في أواخر شهر نيسان ، لم يكن يخطر في بال البعض ان سيناريو الاجتياح بكل مشاهده سوف يتكرر مرارا وتكرارا على الساحة النابلسية ليصل تعداده الى خمسة حاملا في كل مرة في احشائه القسوة والعنف والشراسة . لكنها الحقيقة المريرة التي تتجرع نابلس افرازاتها ، والتي ما زال ظلام ليلها الطويل يعبر الفصول، وها هو يدخل فصل الخريف دون أن تلوح أية بادرة أمل في الافق أو بصيص نور في آخر النفق .

*) وحقيقة الامر ليس ثمة فرق بين اجتياح وآخر . فهو لم يخرج عن خطه في التربص للانسان الفلسطينيي مع موروثه من الاهداف التحررية والسيادية والأحقية في استرجاع مكانته على خارطة الوجود الانساني في اطار المشروعية النضالية لتحقيق هذه الاهداف . واذا ما أضيفت الى هذا التربص منظومة التاريخ والتراث والاصالة والتفرد التي حلقت نابلس على جناحيها وكللتها كاحدى عرائسها تصبح الخسارة أفدح والمصيبة أعظم . فها هي معاول الدمار مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة تحاول أن تطال بكل شراسة ذلك التاريخ المستعصي بعراقته وأصالته وتفاني المنتمين اليه .

*) في اجتياحها الخامس في الحادي والعشرين من حزيران 2002 حتى هذه الأيام تكون نابلس قد ضربت رقما قياسيا عالميا في فرض نظام منع التجوال على مواطنيها . وهي بهذا لم تسبقها مدينة اخرى في أي زمان أو مكان .

وقد تكبدت خسارة تدمير المزيد من معالمها ومبانيها القديمة والحديثة ليصبح العدد الاجمالي "مائتين وثمانين " معلما ومبنى اضافة الى مئات اخرى تصدعت أو اهتزت أساساتها أو انها أصبحت آيلة للسقوط .
*) وعلى مدى خمسة اجتياحات اصيبت قصبات نابلس التاريخية بحاراتها وبيوتاتها ومساجدها وقصورها ومدارسها وأسواقها ومصابنها وقناطرها وخاناتها القديمة . فالمنشأة التي لم تقصف نسفت أو جرفت أو تصدعت أساساتها .
وبات التغيير في الملامح والشكل والمضمون والصورة واقعا ملموسا في معالمها وكأن زلزالا ضربها فأوقع بها ما لم يوقعه زلزال عام "1927" من هدم ودمار .
*) ان التاريخ حزين على ثكله كل صرح من صروحه ، ورحبة من رحابه بين أحضان "شكيم الكنعانية " التي هي نابلس الرومانية البيزنطية العربية الاسلامية المملوكية العثمانية الفلسطينية . وأحدق اليوم في عيني هذا التاريخ لأراها تذرف دمعات ساخنة حرى على ما حل "بالوكالة الغربية " من تدمير كلي . وهذه الوكالة هي احدى أشهر معالم هذه المدينة الاثرية . فمنذ عهد المماليك بنيت وظلت خانا للقوافل التجارية عبر العهود التاريخية تأتيها من كل حدب وصوب محملة بما كانت تجود به تلك الأيام من بضائع ومنتجات ومصنوعات تلقي برحالها في باحاته الرحبة طالبة الراحة استعدادا لشد رحالها مرة اخرى الى بلاد الله الواسعة تصل القريب بالبعيد وتجمع ما بين الطريف والتليد .
*) ان نابلس حزينة على كل قطرة دم فلسطينية وعلى من ثكلتهم من ابنائها وبناتها الشهداء الابرار اطفالا ونساء رجالا وشيوخا وفي قلبها جرح وحسرة على أسراها وفي ذاكرتها صدمة على ما فقدت من تراثها المعماري التاريخي ، وعلى هذا التشويه المتعمد لوجهها التراثي الأصيل .ولكنها وبرغم الجراح والاحزان لم تطأطىء هامتها للاعصار ولم تهن في وجه التحديات رغم قساوتها وشراستها . وهي أولا وأخيرا لم ترفع الشكوى الا لربها في علاه ، ولها من تاريخها المحفور على صخرات جبل النار حكاية مجد وفخار وتحد واصرار على اكمال مشوار التحرر والسيادة .
*) نابلس جبل النار وشقيقاتها الفلسطينيات وهي تكافح وتنافح لرد هذا الوحش الاجتياحي لترجو من الله ما لا ترجوه من أحد في هذه الدنيا ، وتطلب منه العون والسند وشد الأزر ، وتسأله ان يغفر لها وأن يسامحها على أنها راهنت ذات يوم على من كانت تظن أنهم الأهل النشامى أو أنهم الصديق عند الضيق ، وتتساءل بحسرة وسخرية عن الشارع العربي والعمق الاستراتيجي ، وقبل أن تتساءل عن " الضمير العالمي" تتساءل بألم عن " الضمير العربي" .
*) نابلس وشقيقاتها ترفع أيديها الى السماء بكل شموخ وكبرياء ورثتهما عن جبليها جرزيم وعيبال وكل ذرة تراب فلسطينية ، وفي القلب جراح ولوعة ، وفي الروح اصرار على المسير حتى آخر المشوار ، وفي الحفظ والصون حجارة ما انهدم لتعيده مكانه كما كان ذات يوم . وسلام على كل أرض فلسطينية . سلام على نابلس جبل النار .

نابلس .. التاريخ والاجتياح

❋) نابلس احدى المدن الفلسطينية العريقة ذات الجذور الضاربة في أعماق التاريخ الانساني . ومنذ بدايات القرن التاسع عشر الميلادي اكتسبت لقب "جبل النار" يوم قادت معركة ظافرة ضد جيش نابليون بونابرت الغازي والعائد من حصار مدينة عكا آنذاك . وقد منحها المؤرخ "المقدسي " لقب " دمشق الصغرى" لما بين المدينتين من تشابه في كثير من المجالات .

*) بين أحضان سفوح جبليها " عيبال" شمالا و "جرزيم" جنوبا وعلى امتداد واديها المتجه من الشرق الى الغرب تتربع نابلس بكبرياء واباء قيمة على ميراث من الحضارة والتراث الانسانيين أكسبها طابعا فريدا متميزا على مدار الايام .

*) ونابلس في الأصل مدينة كنعانية أطلق عليها العرب الكنعانيون اسم " شكيم " . والشكيمة في اللغة العربية تعني الأنفة والعزة والرفعة وعدم الانقياد . وفي عهد الامبراطور الروماني "فسبسيانوس " أمر باعادة بنائها واعمارها تحت اسم لاتيني مركب هو "فيلافيا نيابولس" وبالعربية مدينة فيلافيا الجديدة وفيلافيا هو اسم عائلة الامبراطور "فسبسيانوس" . ومع الايام بقي من اسمها المقطع الثاني "نيابولس" الذي حرف الى اسم نابلس الحالية .

*) منذ بدايات نشأتها الاولى وحتى نهاية عهد الانتداب البريطاني في العام 1948 مرت على نابلس شعوب وحضارات كثيرة بدءا بالعرب الكنعانيين ومرورا بالرومان فالبيزنطيين فالمسلمين الذين تعددت دولهم ومنها الايوبية والمملوكية والعثمانية .

*) ونابلس التاريخية يطلق عليها مسمى " القصبة " او البلدة القديمة . وفي الحقيقة فان هذه المدينة تتكون من ثلاث قصبات رئيسة تمتد من شرقها الى غربها ، وهي محاطة بسور من المباني والمنشآت القديمة ، ولها كما تذكر الروايات والكتب التاريخية ست عشرة بوابة ، ومنها بوابتاها الرئيستان الشرقية عند الجامع الصلاحي الكبير ، والغربية عند جامع الخضر .

*) والقصبة عبارة عن ممر أو طريق ضيقة مرصوفة بالحجارة الملساء تقع على جانبيها الدكاكين ومحال التجار والصناع ، وهي في العادة تحتل الطابق الأول ، أما الطابق الثاني فكان يشكل بيوتات لأسر الصناع والحرفيين والتجار . وكانت هناك ولا تزال أحواش على أطراف هذه القصبات تؤدي الى دور سكنية متلاصقة تسكنها العائلات النابلسية الممتدة . كما أن هناك العديد من الاسواق المتخصصة تشكل حلقة وصل ما بين القصبات من الشمال الى الجنوب . وبين هذه القصبات تتموضع حارات نابلس القديمة وأسواقها التجارية والعديد من مرافقها الاساسية التي تنتسب الى التاريخ بشتى عصوره .

*) والحديث عن نابلس هو حديث عن التاريخ . وليس ثمة مبالغة حين توصف هذه المدينة بأنها توأم له . فهي كما يقول المؤرخون قديمة قدمه ، وتستمد عراقتها وأصالتها من عراقته وأصالته . ان جولة في قصباتها وتحديدا في حاراتها وأحواشها تقودنا الى قصورها ودواوينها العريقة حيث الفناءات الرحبة والقاعات ذات العقود والأقواس والأعمدة والشبابيك العالية المزركشة الزجاج والسقوف المحلاة بالرسوم والارضيات المرصعة بالبلاط الذي يشكل لوحات جميلة بعضهامن الفسيفساء . وهناك المساجد الفسيحة من عهود الايوبيين والمماليك والعثمانيين ومن أشهرها المسجد الصلاحي الذي بناه صلاح الدين الايوبي غداة تحريره هذه المدينة من الصليبيين الى جانب مسجد النصر في وسط المدينة الذي بناه أيضا هذا القائد وأطلق عليه اسم النصر احتفاء بانتصاره آنذاك . وهناك جامع "الخضرة" الذي لحق به دمار كبير جراء الاجتياح الاسرائيلي لمدينة نابلس . وتمتاز نابلس بمجموعة من الحمامات القديمة تعرض بعضها لدمار في كثير من معالمها .

*) وتضم نابلس بين أحضان قصباتها حارات وأسواقا تجارية قديمة وخانات هي بمثابة استراحات للقوافل التجارية التي كانت تفد اليها في تلك الأيام الغابرة . وهنالك عدد من الوكالات والسرايا والابراج والقنوات المائية الى جانب منظومة من عيون الماء وسبل المياه والزوايا والكنائس والمقامات والبوابات . وحين الحديث عن معالم المدينة فان الصبانات "مصانع الصابون النابلسي الشهير" تشكل احدى أبرزها ، وننوه هنا الى أن هذه الصبانات التاريخية القديمة قد تعرض ثلاث منها الى التدمير الشامل في هذا الاجتياح . ولعل من أبرز المعالم التاريخية لمدينة نابلس منارة الساعة في باب الساحة وهي من العهد العثماني الوسيط .

*) وكغيرها من المدن الفلسطينية الاخرى تعرضت نابلس الى اجتياح عسكري اسرائيلي متعدد الابعاد والاهداف . ومنذ اللحظات الاولى له كان هذا الاجتياح يعمل في عدة محاور واتجاهات تتقاطع معا في نقطة واحدة تتجسد في احداث أكبر مساحة ممكنة من التدمير والتصدع والتشقق والاهتزاز في كل ما يمكن أن تطاله الآلة الحربية الاسرائيلية وتصل اليه من مبانيها . وليس أدل على ذلك من استخدام الطائرات القاذفة للقنابل والصواريخ ذات الاوزان الثقيلة والفاعلية الخطيرة وكذلك الجرافات العملاقة الاضخم في العالم وتحديدا في نابلس التاريخية أو ما يسمى بالبلدة القديمة .

*) وكثيرة هي المآسي والكوارث التي خلفها هذا الاجتياح العسكري على صعد شتى . الا أن استهداف نابلس القديمة بميراثها التاريخي والحضاري قد ترك جراحات من الصعب اندمالها . والنابلسيون ما زالوا يتذكرون زلزال العام 1927 الذي ضرب فلسطين بعامة ونابلس بخاصة.

*) وبرغم شدته وقسوته فان هذا الزلزال لم ينل من هذه المدينة ما ناله هذا الاجتياح العسكري الذي استهدف عامدا متعمدا النيل من تراثها الحضاري وانتمائها الى التاريخ والاصالة . ان صورة نابلس القديمة التي عرفتها الاجيال تلو الاجيال قد تغيرت بعض ملامحها ، فثمة فراغات غريبة لا تكاد تصدقها العيون تشاهد لأول مرة في تاريخها جراء التدمير الاجتياحي البربري . وثمة غياب لمعالم حضارية تاريخية عاشت قرونا مع الاجيال.

*) ان المرء لا يكاد يصدق ما جرى ، ولكنه في الحقيقة فصل آخر قاس في منظومة المعاناة العامة للشعب الفلسطيني المتجذر في أرض آبائه وأجداده ، والقيم على تراثهم الحضاري والفريد . واذا كان حاضر هذا الشعب هو المستهدف حتى الآن ، فهاهو ماضيه يستهدف في هذا الاجتياح . ولكن وبرغم كل هذه القسوة والشراسة فان الشعب الفلسطيني وتراثه التاريخي سيظل حضورهما اضاءة في فضاء هذا الزمن لا يقوى على اطفائها اعصار أي اجتياح . ان عزيمة الشعب الفلسطيني تتمثل فيما قاله رجل مسن شهد الدمار : انهم أعادوا بناء معبد ابي سنبل في مصر . وسوف يعيدون بناء تماثيل بوذا في افغانستان . والشعب الفلسطيني بارادته وابداعه وتصميمه وعلمه قادر ان يعيد كل حجر الى مكانه التاريخي . فكما كان حارسا على قضيته ، فهو حارس على تاريخه ايضا .

العملية السلمية
السلام .. والتحديات القائمة

❋) تشهد العملية السلمية هذه الايام مرحلة المخاض الأخير لفعاليات وتوجهات ورؤى متعاكسة الاتجاهات يفترض اطرافها كل حسب تصوره انه سوف يظفر في نهاية مطافها باتفاقية سلام دائمة . وقبل الخوض في غمار مفاوضات المرحلة النهائية الدائرة في الولايات المتحدة الاميركية ، فثمة دوافع كثيرة تشدنا للرجوع الى بدايات هذه العملية السلمية واستقراء الكثير مما افرزته على ساحة الواقع وما تفرضه من تحديات راهنة . فبالاضافة الى تحركات الاطراف المعنية في شعاب هذه العملية وتشعباتها ، وفي اوجها وحضيضها ، وفي مداخلها ومخارجها ، فهي وبلا ادنى شك ظلت تدور حول منظورين متوازيين للسلام لم يتقاطعا في نقطة مشتركة رئيسة واحدة كونهما لا يمتان الواحد منهما للآخر بصلة . فالمنظور الاول ، ونخص بالذكر هنا المنظور الفلسطيني الذي يرى في مجمل العملية السلمية وبكل اشكالها بدءا بطرح التصورات وتبادل الافكار والآراء ، ومرورا باعلان المبادىء المشتركة ، وانتهاء بتوقيع الاتفاقيات ايا كانت التمهيدية او المؤقتة او النهائية .. يرى فيها رؤيا واحدة لا يمكن تأويلها الا تأويلا واحدا يتمثل في استرجاع الحقوق الفلسطينية المسلوبة وتصحيح مسارات تاريخ معوجة افرزت وما زالت اوضاعا اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية وحقوقية وانسانية مزرية حاقت بالشعب الفلسطيني ، وذلك كله جراء تداعيات النكبة الفلسطينية في عام 1948 التي ما زالت كل عناصرها قائمة وتزداد استفحالا.

❋) والمنظور الاسرائيلي للسلام ينطلق من تثبيت اوضاع حصدتها اسرائيل في خط مواز مكانا وزمانا وديمومة للنكبة الفلسطينية على الصعيدين الفلسطيني والعربي ، محاولة بكل ما تملك من قوة ونفوذ ورؤى ان تظفر بخارطة "شرق اوسط جديد " كانت ولا تزال تحلم به منذ قيامها على اقل تقدير وحتى اللحظة الراهنة . وعلى خلفية كل ذلك وظفت كل الطاقات وآليات النفوذ التي تستحوذ عليها او المتاحة لها لدى الذين يتعاطفون معها ويؤيدونها وبخاصة الولايات المتحدة الاميركية . واذا كانت اسرائيل في معاركها الحربية قد اعتمدت على ضعف العرب وفرقتهم وعدم استعدادهم التقني والعلمي ، فالمعادلة ذاتها ما زالت قائمة في عملية السلام . وفي تفكير اسرائيل ان اقوى سلاح بيدها هو تحييد العمق العربي وافقاده دوره في اية معركة للحرب او السلام . وهذا يفسر اصرارها على تعدد المسارات التفاوضية والتباعد الزمني في ما بينهما . وثمة آلية تفاوضية اسرائيلية قد تكون اسرائيل فازت في توظيفها بقصب السبق، كونها المفاوضة الاولى التي يذكرها التاريخ الحديث والتي اشترطت فرض التطبيع الشامل " مهرا مقدما " لأية تسوية سلمية ، في حين ان هذا التاريخ يخبرنا ان كل فعاليات التطبيع كانت ثمرة لاحقة للسلام الحقيقي . واسرائيل بطبيعة الحال تبغي من وراء ذلك ان تحقق انتصارات ومكاسب اخرى خلال اشتراطات لا يفرضها طرف يشعر انه متكافىء ومتساو في الميزان التفاوضي ، بل الأقوى الذي في يده الكثير من اوراق الضغط الرابحة . وقد ترجمت اسرائيل كل ذلك الى ممارسات طابعها التعنت والمماطلة والرفض وضرب عرض الحائط بكل التواقيع والتواريخ ، وعدم الاعتراف بالحقوق الفلسطينية الأساسية ، ومن جهة اخرى اصرارها في اللعبة السلمية على منح الفلسطينيين سلاما "صنع في اسرائيل" مغلفا بمفاهيمها في السياسة والوطنية والتاريخ والأدب والشعر ومناهج التربية والعنف والارهاب والتطرف .

❋) ان التحديات التي واجهها السلام في الماضي ويواجهها في الحاضر والمستقبل عديدة ، وتأتي معظمها من الطرف الاسرائيلي كونه ينظر الى الامور من خلال منظاره هو ، والذي لا يمكن والحال هذه ان يرى ابعد من انفه ، او انه يريد ان يرى غير الذي يريد ان يراه ، ويعمى عن استحقاقات الآخرين ويلتف عليها ، وهي اساس المشكلة التي لا تحمل الا مسمى واحدا هو النكبة الفلسطينية . ان الاستحقاقات الفلسطينية المترتبة على الاتفاقات المرحلية السابقة ما زال جزء كبير منها خارج اطار التنفيذ . فكيف اذا ما اضيف اليها الحقوق الاساسية التي تشكل العمود الفقري لمفاوضات المرحلة النهائية بدءا بحق العودة ومرورا بحق الدولة والاستقلال والسيادة الكاملة ، وهذا يعني تطهير الارض الفلسطينية من ادران الاستيطان وكافة اشكال الهيمنة الاسرائيلية على الارض وما عليها وما فوقها وما تحتها ، ووقوفا عند القدس عاصمة سياسية للدولة ، وروحية لأكثر من مليار مسلم . ان التحديات والعراقيل الاسرائيلية للسلام كثيرة وتتمثل اساسا بالعقلية السائدة لدى ساستها وشارعها السياسي ، وهي عقلية نشأت على عقد السيطرة والانفراد بالقوة والاستحواذ على كل آلياتها وتقنياتها الاكثر حداثة وتطويرها الدائم الى اقصى الحدود .

مضافا الى كل ذلك شهية التوسع الاستيطاني والتهويد والثقافة العدائية لرأي الآخر وحقه . وهي هي العقلية التي تصر ان تستثمر انتصارات اخرى في معركة السلام وان تجني مكاسب من الساحتين الفلسطينية والعربية لم تستطع ان تجنيهما في الحرب .

❋) وهناك التحديات المفروضة من خارج المنطقة وهي تخص العلاقات الاميركية الاسرائيلية المميزة الرسمية منها وغير الرسمية على كافة الصعد . فاسرائيل تضمن على الدوام التأييد الكاسح لتوجهاتها ايا كانت وبخاصة تحت ظلال معركة الانتخابات الاميركية التي ستضمن لها العديد من نقاط الفوز والتأييد .

❋)وخلاصة القول لقد اعتاد الشعب الفلسطيني على شتى اشكال الظروف ، وهو من المناعة بحيث ان ظرفا ما ايا كان لن يقدر على احباطه او تدمير قواه الذاتية التي حافظ عليها عبر اقسى نضالاته . وهو مدرك وواع ومستعد لكافة الاحتمالات واولاها فشل المفاوضات الدائرة او اطالتها او تأجيلها . وفي هذه الحال لن يكون هو الخاسر الوحيد . وفي تصورنا ان هذا الفشل سوف يلقي بظلاله القاتمة على كل الرؤى الاسرائيلية وبخاصة تلك المحومة في الفضاءات العربية . وليس من المستبعد ان يعمل أي فشل محتمل على اعادة عقارب الساعة الى الوراء ، وهو بالتالي سيكون احراجا قاسيا لكل الانظمة العربية التي عقدت اتفاقيات سلام مبكر ، وتحذيرا لكل الذين تسول لهم سياساتهم ان يشربوا انخاب التطبيع وجوف المنطقة خاو من السلام . ورب ضارة نافعة في ايقاظ الضمير العربي الغافي .

لغة سلام .. منظور إسرائيلي

❋) في معرض سياساتها وممارساتها الالتفافية على كثير من الحقائق الموضوعية والمفاهيم المتعارف عليها ، يلاحظ ان ساسة اسرائيل يكثرون هذه الايام من الشكوى ضد الفلسطينيين بخاصة والعرب بعامة كونهم يتحدثون عن السلام قولا ولكنهم لا يؤمنون به ولا يمارسونه فعلا . ويمعنون في الشكوى من ان جل خطاباتهم السياسية والثقافية تفتقر الى الحد الادنى من رصيد السلام .

❋) ومؤخرا طالب رئيس الوزراء الاسرائيلي كلا من الفلسطينيين والعرب ان يتحدثوا بلغة سلام منطقية ومعقولة ، معتبرا ان كل حديث من جانبهم عن حق العودة للاجئين الفلسطينيين ، وكذلك الحديث عن القدس وحدود العام 1967 ، ومطالبتهم بتفكيك المستوطنات التي اقيمت بغير حق او سند قانوني ، او حتى مجرد ايقاف الفعاليات الاستيطانية التي ما زالت حتى اللحظة مستمرة ، ما هو الا خروج سافر عن مضامين لغة السلام يصل على حد ادعائه الى تخريب العملية السلمية . وعلى ذات الوتر عزف وزير خارجيته في اثناء القاء كلمته امام الجمعية العمومية في نيويورك في دورتها الحالية متهما الفلسطينيين بخاصة والعرب بعامة بأنهم يمارسون اشكالا من التضليل والخداع والابتزاز للرأي العام العالمي على خلفية تصورهم ورؤاهم للعملية السلمية ومجمل القضية الفلسطينية ، وتساءل في ما اذا كان العرب والفلسطينيون يريدون سلاما اساسه التطبيع ام انهم يريدون مجرد سلام قائم على الاعتراف الدبلوماسي المتبادل فقط .ولم تقف هذه المعزوفة عند هذا الحد فقد اكملها السفير الاسرائيلي في الولايات المتحدة الامريكية حيث هلل وكبر لانتصار اسرائيل وعدم رضوخ ادارة والت ديزني "للابتزازات والضغوطات" العربية في الحملة التي خاضوها دفاعا عن عروبة القدس واسلاميتها .

❋) والهجمة الاسرائيلية الدعائية الرسمية الحالية لا تنتهي هنا . اذ ان للاعلام الاسرائيلي نصيبا وافرا في ترويجها وتقديمها ساخنة للشارع السياسي الاسرائيلي والزيادة عليها ، وهو اصلا لا يقصر في هذا المجال ولا يكل ولا يمل ، وله لغته ومفاهيمه ومصطلحاته الاعلامية التي يمكن وصفها بانها لا تتماشى وكل الطروحات السلمية ، كما انها يشتم منها رائحة عداوة للعرب كونها تلتف على المعاني الحقيقية لما يفترض ان يكون سلاما . واذا ما اضفنا الى كل ذلك ما تختزنه المناهج الاسرائيلية التربوية من معان واهداف واتجاهات تتنافى والسلام ، مضافا اليها معظم برامج الاحزاب الاسرائيلية واهدافها - ونحن لا نستطيع هنا ان نخوض في تفاصيلها في هذه العجالة- عندها تكتمل لدينا صورة واضحة عن مفهوم لغة السلام الاسرائيلية التي يطالب الاسرائيليون العرب والفلسطينيين ان يتعلموها وان يتحدثوا بها وان يمارسوها في خطابهم السياسي مع اسرائيل . انها لغة سلام اسرائيلية جاهزة بمفرداتها ومصطلحاتها ومفاهيمها ومعانيها ، وبالمفهوم العربي لغة استسلام وخضوع لمشيئة السياسات الاسرائيلية واراداتها ومصالحها وتوجهاتها واتجاهاتها ،ضاربة عرض الحائط بكل الحقوق العربية والفلسطينية ايا كانت ، ومحملة العرب والفلسطينيين التبعات المترتبة على رفض هذه اللغة.

❋) وفي المحصلة ان الاسرائيليين لم يتغيروا ، ولسنا نخطىء او نحيد عن جادة الصواب اذا ما اكدنا ان اليمين الاسرائيلي ربما كان وما زال اكثر وضوحا في سياساته ورؤاه من اليسار الاسرائيلي المتربع على سدة الحكم حاليا ، وهو معروف باللف والدوران والمناورة والمداورة والمماطلة والتسويف ، ولا عجب في ذلك فهو المحكوم دائما وابدا لأيديولوجية فكرية وسياسية يبديها تارة ويخفيها اخرى ، وتتجلى في ممارساته على ارض الواقع . فهو من ناحية يدعي انه جاء ليغير خارطة الشرق الاوسط ويلونها بألوان السلام ، ولكنه في نفس الوقت ما زال يصادر الاراضي الفلسطينية، ويزرعها استيطانا وطرقا التفافية . وهو ايضا يطالب بالتخلي عن خلافات الماضي وفتح صفحات جديدة في العلاقات القائمة على التفاهم ، وفي نفس الوقت يرفض ان يطلق سراح الاسرى الفلسطينيين من المعتقلات الاسرائيلية ، ويصر على انه لن يحرر اسيرا " تلطخت يداه بالدم اليهودي" .وهو ايضا يصر على عدم تجاوز عقدة تحميل العرب "اوزار القتل والتخريب وسفك الدماءعلى حد ادعائه".وهو يؤمن ان التطبيع هو السلام ويسبقه وليس العكس . ويؤمن ايضا ان التوطين هو الحل الامثل للقضية الفلسطينية.وقبل هذا وذاك لا يؤمن بدولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة . واذا كان فعلا يتحدث عن السلام فالمقصود الالتفاف على القضية الفلسطينية والتصالح مع الانظمة العربية والتطبيع الشامل معها ليس الا .

❋) ان لغة السلام الاسرائيلية لغة خاصة فريدة ، وهي وان عفا عليها الزمن واكل الدهر عليها وشرب الا انها ما زالت معشعشة في الذهنية الاسرائيلية التي لا تريد ان تتخلى عنها ، في حين انها تطالب الآخرين ان يتخلوا عن

مفهومهم للغة السلام الذي يؤمنون به ، وترفض أي تقاطع معها . وباختصار فقد اثبتت التجارب ان استراتيجية لغة السلام الاسرائيلية قائمة على افكار لم تتغير ، منها انها لغة ذات مسار واحد هو المسار الاسرائيلي بطبيعة الحال ، تكون الكلمة الاسرائيلية فيه هي العليا . وهي في نفس الوقت لا تؤمن بشركاء حقيقيين يقاسمونها الرأي والرؤيا وانما باتباع تفرض عليهم ما تشاء مشعرة اياهم انهم بحاجة الى السلام اكثر منها ، وان هذا السلام اذا ما ارادوه فلا ينبغي ان يكون مقرونا بشروط من التاريخ والتراث والارض فهذه حقوق مكتسبة فقط للاسرائيليين

*) في ظل هذه الاجواء القاتمة البعيدة عن التفاؤل جراء الخطاب السياسي الثقافي الايديولوجي الاسرائيلي والتي تلقي بظلالها القاتمة على مستقبل مجمل العملية السلمية ، فان المطلوب فلسطينيا وعربيا الاصرار على التحدث بلغة السلام العربية ذلك انها من الفها الى يائها قائمة على التسامح والقبول بالآخر ، الا انها لا يمكن ولا ينبغي لها ان تتخلى عن الحق الشرعي في الارض والتاريخ والتراث والانتماء .

تعبيد الطريق .. أولا

❋) في هذه المرحلة بالذات وعلى خلفية الاجواء والاهواء السائدة في ساحة الصراع الفلسطيني الاسرائيلي تبرز أهمية الحديث عن الطريق قبل الخارطة التي رسمتها الولايات المتحدة الاميركية، وشغلت الدنيا بها وكأنها الوصفة السحرية للحل المنشود . وبادىء ذي بدء فان من أبسط الامور والمستلزمات لأية خارطة أن تكون أرضية الطريق التي تمثلها والتي رسمت من أجلها معبدة مهيأة على وجه يضمن لها مساحة معقولة من الانجاز ووتيرة ملائمة من الأداء . وهذا يفترض بلغة مهنية وأكثر بساطة أن تكون هذه الارضية نظيفة وخالية من المعوقات الخطيرة والكأداء للسير عليها بقدر معقول من الأمان .

*) الا أن الطريق التي نتحدث عنها هنا والتي يفترض أن تخص المسار الموصل الى حل عادل للقضية الفلسطينية ، وانهاء للصراع الفلسطيني الاسرائيلي ، لم تكن في يوم من الايام شائكة ومتفجرة كما هي في هذه الأيام بالذات . فبدل أن تقوم " آليات " النوايا الطيبة بتعبيدها تمهيدا لعبور " قافلة " العملية السلمية ، تقوم الدبابات الاسرائيلية على مدار الساعة بصورة لا نظير لها وبوتيرة متسارعة وكأنها في سباق مع الزمن بتدمير الارضية التي يفترض أن تكون البنية الاساسية لأي حل مفترض – وهو هنا الطرح الوحيد المسمى خارطة الطريق – التي لا تكاد تلبي الحد الادنى من المطالب الفلسطينية .

*) ان العقدة التي تراكمت عندها الامور تتجه صوب النوايا التي يفترض أنها المحرك والدافع الرئيسان تجاه أي عملية سلمية يتم الاتفاق عليها . والحديث هنا تحديدا عن اسرائيل والولايات المتحدة . فالسياسة الاسرائيلية والسياسة الاميركية تتقاطع الواحدة مع نظيرتها الاخرى في معظم النقاط الاستراتيجية المكونة لهما . وليس ثمة مبالغة في القول ان هناك سياسة اسرائيلية اميركية واحدة تجاه الشأن الفلسطيني تتمثل في لعبة سياسية تدعى خارطة الطريق ، وان كان هناك اختلاف ما في ظاهر المشهد السياسي الاميركي .

*) في هذه اللعبة السياسية فان سيناريو التمنع والتشدد والقبول المشروط الذي يبديه الطرف الاسرائيلي تجاه خارطة الطريق هو دور اسرائيل من هذه اللعبة السياسية . واما دور الولايات المتحدة الاميركية فهو انها منذ البداية – وان كانت هذه اللعبة من انتاجها واخراجها وهي على يقين تام من علاتها ونواقصها وغرقها في العموميات – فيتمثل في تعهدها "بنشرها " دون تعهدها " بتنفيذها ". والمحصلة دون أدنى ريب واحدة تتمثل في أن عناصر انجاحها أقل بكثير من عناصر افشالها . وهذه عقدة اخرى .

*) ويدفعنا هذا للقول انه لا يمكن الحديث عن الطريق وخارطتها دون الاستهلال بالنظرة الاسرائيلية لها . فهي منذ البداية قد رفضتها ووضعت عليها تحفظات جاوزت المائة عددا . الا انها مؤخرا عادت وأعلنت انها تقبل بها واختصرت تحفظاتها وملاحظاتها على اربع عشرة قبلت الولايات المتحدة منها اثنتي عشرة ملاحظة . وهذا يعني تغييرا حادا في خطوط الخريطة ومساراتها كي " توافق " اسرائيل عليها من حيث المبدأ وليس من حيث التطبيق على الارجح .

*) وعلى فرض انها نالت الموافقة فالمعيقات على طريق هذه الخريطة كثيرة تكمن في عدم الجدية في التطبيق والمماطلات والتفسيرات الاحادية للنصوص مضافا الى كل ذلك الاشتراطات الآنية واللاحقة التي من المتوقع أن تطرحها اسرائيل على مائدة البحث . وكل ذلك يجري دون أدنى ضغوط يمكن للولايات المتحدة أن تفرضها على اسرائيل .

*) وهذه النظرة الاسرائيلية النظرية لخارطة الطريق تسير في خط موازن لمخططها الفعلي الذي تطبقه آليتها العسكرية الحربية دون توقف هدما وتدميرا واغتيالا في اجتياحات تتكرر في الاراضي الفلسطينية على مدار الساعة مؤكدة أن وراء كل ذل مخططا تهدف الى تطبيقه ويتمثل في كسر شوكة الفلسطينيين بحيث لا يعودون يشكلون طرفا مفاوضا على قدم المساواة ، وانما طرف معد للتوقيع على الاشتراطات والاملاءآت . وهذا بطبيعة الحال هو المفهوم التطبيقي لخارطة الطريق في التفكير الاسرائيلي للوصول الى ما تريد وأقله تصفية القضية .

*) وهنا لا بد ايضا من الحديث عن محتوى هذه الخارطة التي تطرحها الولايات المتحدة الاميركية للتفاوض دون أدنى تدخل منها ، اللهم الا اصرارها على مبدأ قبولها والانتقال السريع الى التفاوض والتركيز على الالتزامات الفلسطينية تجاه الأمن الاسرائيلي ، دون رعاية حقيقية وضمان أكيد لتنفيذ هذه الخارطة بحرفيتها نصا وروحا .

ومن ناحية أخرى فان الاساسيات في القضية الفلسطينية تكاد تكون مغفلة أو أنها متروكة للمرحلة النهائية يكتنف الغموض مصيرها . فلا قضية اللاجئين ولا القدس ولا المستوطنات تشكل مدخلا لها أو محورا اساسيا للتفاوض الجاد . ومن هنا كانت هذه الخارطة غير واقعية ومبتورة وتفوح منها رائحة الانحياز الى الطرف الاسرائيلي ، وعدم الاعتراف الصريح بحقوق الطرف الفلسطيني التاريخية .

*) ان اسرائيل في هذه المرحلة بخاصة ، ومن قبلها في كل المراحل بعامة لا تريد الانطلاق في تعاملها مع الفلسطينيين من مبدأ التفاوض بين طرفين متصارعين يسعيان الى انهاء الصراع بينهما . ولكنها كانت على الدوام تصر على فرض افكار ورؤى ومواقف تفوح منها رائحة اليد العليا والطولى المنتصرة المهيمنة . والطريق التي تسلكها السياسة الاسرائيلية ما زالت غير معبدة . وتصر اسرائيل على عدم ازالة العوائق الكأداء منها واولاها عدم الاعتراف بحقوق الفلسطينيين ، وثانيتها ممارسة سياسة القمع والتدمير ضدهم ، وثالثتها دأبها المتواصل على توجيه الاتهام لهم بالعنف والجريمة والارهاب ، ورابعتها وقد لا تكون الاخيرة مصادرة ما تبقى من الارض الفلسطينية لزرعها بالمستوطنات .

*) ان " الزواج الأمني" بين اسرائيل والولايات المتحدة في أعقاب الحادي عشر من ايلول 2001 وما أعقبه من ولادة الحرب ضد ما تسميه امريكا ارهابا دوليا قد أضاف الى الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية بعدا آخر لصالحها يتمثل في اعتبار مجمل النضالات الفلسطينية ارهابا ينبغي استئصاله والقضاء عليه في ظل الضوء الاخضر الاميركي .

*) ويمكن القول ان اسرائيل قد أدخلت نفسها في قمقم هاجسها الأمني وبالغت فيه الى الحد الذي جعلها لا ترى أي مشهد سياسي الا بالالوان الأمنية . وهذا في حد ذاته اعاقة لأية عملية سلمية سواء كانت خارطة الطريق أو غيرها . الا أن الاعاقات الأخطر تكمن في رفضها الاعتراف بمسؤوليتها عن المآسي والمعاناة التي يعيشها الفلسطينيون ، واصرارها على الاستمرار في نهج التدمير الشامل للمقومات الفلسطينية . أما فيما يخص أي حل فهو من منظورها يفرض لا يتم التعاقد عليه بقبول الطرفين ورضاهما .

*) وخلاصة القول ان الطريق الى الحل الدائم غير سالكة ، وينبغي تعبيدها اولا بازالة كل المعوقات التي دأبت السياسة الاسرائيلية على زرعها فيها نظريا وتطبيقا تحت ظلال الضوء الاخضر الاميركي . ولا ينبغي أن يكون المرور في محطات هذه الطريق انتقائيا وعاجلا. فهناك محطات رئيسة ما زالت تحمل عناوين القضية الفلسطينية لا يمكن الالتفاف عليها الا اذا كان الهدف هو اضاعة الوقت لاستثمار واقع جديد فرضته نتائج الحرب على العراق ، "وتحرير" الشعب الفلسطيني من قضيته .

من النكبة .. الى خارطة الطريق

❋) المسافة الزمنية منذ أيار العام 1948 – وهو عام الصفحة الاولى على اجندة النكبة الفلسطينية – حتى أيار من العام 2003 هي خمسة وخمسون عاما من عمر منظومة التيه والشتات والمأساة التي ما زالت تفرزها هذه النكبة . وقد لا يكون طرح ما يسمى خارطة الطريق في هذه الايام بالذات والتي تصادف أيضا ذكرى هذه المناسبة مصادفة لكن ما يعنينا هنا هو سلسلة المتغيرات التي طرأت على القضية الفلسطينية من حيث الشكل المتمثل في العناوين ومن حيث المضمون المتمثل في ماهية القضية واساسياتها ، حتى انتهى بها الامر ووقعت في شراك مصيدة خارطة الطريق وهي منهكة مجردة من كثير من ثوابتها .

*) " القضية الفلسطينية " كان هو العنوان الرئيس الذي يحمل في سطوره قضية شعب صودرت أرضه وطرد منها قسرا واكراها ، فهي والحال هذه قضية لها بعدها الانساني الى جانب بعدها التاريخي كون هذه الارض وطنا تاريخيا للشعب الفلسطيني ، كما أن لها بعدا آخر جغرافيا يتقاطع مع البعد التاريخي كون القضية تنصب على هذه الارض السليبة المسماة فلسطين والتي نزلت عليها النكبة بتغيير اسمها وكل ما يمت الى تاريخها وجغرافيتها بصلة ، كما أن هذه النكبة حلت بشعبها وذلك عن طريق طرده منها الى التيه الذي دخل جحيمه الشعب الفلسطيني وما زال يتردى في مهاويه حتى هذه الايام والى زمن لا يعلم مداه الا الله .

*) وعلى ما يبدو ان " القضية الفلسطينية " لم يرق للجهات التي خططت لهذه النكبة ، فقزمتها لتصبح " قضية اللاجئين الذين هاجروا" من ديارهم بما يحمله الفعل هاجر من طواعية وعدم اكراه . وهنا فقدت القضية الفلسطينية عنصرا هاما من عناصرها الرئيسة . الا أن أمرا خطيرا طرأ اذ أصبحت القضية تحمل عنوان " الصراع العربي الاسرائيلي " والذي لا يمكن تفسيره الا انه صراع اقليمي يخص دولا عربية فقدت اراضيها في العام 1967 ليس أكثر ، وان هذا الصراع يمكن أن ينتهي بانتهاء المسبب .

*) لكن الأخطر من ذلك كله هو أن القضية أصبحت تحت عنوان " أزمة الشرق الأوسط " وهو المسمى الذي قصد به واضعوه على أن هناك أزمة علاقات دبلوماسية ما بين دول الشرق الأوسط واسرائيل التي أصبحت " حقيقة لا ريب فيها " . والغريب في الامر أن الشرق الاوسط يضم دولا غير عربية ومنها تركيا التي لا تعاني علاقاتها مع اسرائيل أية اشكالية ، ومنها أيضا ايران التي كانت مثل تركيا حتى قيام الثورة الخمينية في العام 1979 . وفي اعتقادنا أن اضافة ايران وحتى باكستان الى هذه الازمة كان يهدف الى تشتيت عناصر القضية الاساسية وتمييع العنصر الفلسطيني الى درجة اذابته وفقدانه مشروعيته والالتفاف على حقه التاريخي في الارض والوطن .

*) وفي العام 1967 حينما احتلت القوات الاسرائيلية ما تبقى من الاراضي الفلسطينية فيما يعرف الضفة الغربية وقطاع غزة ، كانت تسمية فلسطين او النسبة اليها تزعج السياسة الاسرائيلية وتتنافى مع أسسها . فهي في العام 1948 أطلقت على الفلسطينيين الذين لم يتم تهجيرهم من بلادهم تسمية " عرب أرض اسرائيل " أو العرب الاسرائيليين . وتفننت السياسة الاسرائيلية في اطلاق تسميات على سكان الاراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967 . فهذه الاراضي هي " يهودا والسامرة " وسكانها اما "سكان المناطق المدارة أو السكان المحليون " . وفي كل التسميات هذه نفي للتسمية الاصلية للارض وللشعب . ومصطلح " سكان أو مقيمين " له دلالته في السياسة الاسرائيلية التي لم تكن تعتبر الفلسطينيين مواطنين لهم حق في وطن ، وانما هم أشبه ما يكونون بالمستأجرين ليس الا .

*) لقد ظلت اسرائيل وبتشجيع من الولايات المتحدة الاميركية وتخاذل في المواقف العربية التي تنازلت أنظمتها عن الثوابت الخاصة بالقضية متمسكة بثوابتها التي تعتبر الارض الفلسطينية من النهر الى البحر هي أرض اسرائيل الكبرىالتي ترفض حق قيام دولة اخرى للفلسطينيين عليها . وفي هذا السياق فان اتفاقيات اوسلو ما كانت الا مرحلة تهدئة في التشدد الاسرائيلي لمآرب اتضحت معالمها لاحقا في المماطلات والتفسيرات الاحادية الجانب والالغاءآت والتبريرات الواهية في افتراس الارض واقامة المستوطنات عليها .

*) وحين تسنت لها الظروف ، اجتاحت اسرائيل بآلتها العسكرية اتفاقيات اوسلو الهزيلة والتي لم تشكل الحد الادنى للطموحات الفلسطينية ودمرت على أرض الواقع كل ما ترتب عليها من حقوق للشعب الفلسطيني لتؤكد المرة تلو الاخرى أنها ترفض أن يكون هناك قضية وحق سيادي للفلسطينيين . وها هي اسرائيل تسرح ومرح في سياستها

هذه ، فالمباركة الاميركية لها زاد وزنها واتسعت مساحتها في اعقاب أحداث الحادي عشر من ايلول 2001 . وكانت الهدية الكبرى من اميركا لها اعتبار مجمل نضالات الفلسطينيين ارهابا . وثمة هدية اخرى لها جاءتها من العالم العربي الذي أنهى علاقته فيما يخص القضية بانسحابه من ساحتها .

*) في اعتقادنا ان الرؤية الاميركية للدولة الفلسطينية في اعقاب الحادي عشر من ايلول 2001 جاءت طعما لاصطياد التأييد العربي والاسلامي للحرب في افغانستان . واما خارطة الطريق – وهي المحطة الاخيرة للقضية الفلسطينية – فطرحها في أعقاب سقوط بغداد واحتلال العراق وسقوط الجبهة الشرقية الاكثر تهديدا لأمن اسرائيل ووجودها ، ما هو الا مجرد لعبة سياسية اخرى قائمة على الخوض في تفسيرات ورؤى ومفاهيم متعاكسة الاتجاهات . وأخطر ما في الامر أن الرؤية الفلسطينية للخارطة تقوم أساسا على التطبيق المتوازي ، في حين أن اسرائيل تصر على مبدأ التوالي ، بمعنى أن يقدم الفلسطينيون التنازل تلو الآخر لكي يحظوا بما يمكن أن تجود به السياسة الاسرائيلية ، والفرق شاسع بين الرؤيتين.

*) في ظل هذا التآكل والاضمحلال في مقومات القضية وكل عناصر صمودها وثباتها ، وهذا المنخفض القومي العميق الذي أثر عليها مصحوبا بتخلي " الاشقاء العرب " ، وسقوط بغداد سقطت أهم الاوراق وربما آخرها التي كانت في أيدي العرب . فليس هناك جبهات ، وليس هناك مقاطعة ولا لاءآت ، وليس هناك " وطن عربي " ، وانما أنظمة سياسية متفككة متباعدة ضعيفة ترتجف خوفا وخشية من غضبة اميركية تنزل عليها . في ظل هذه الظروف يقف الفلسطينيون وحدهم في الميدان ليخوضوا مع اسرائيل لعبة خارطة الطريق على علاتها ونواقصها التي تعهدت الولايات المتحدة " بنشرها " ، الا أنها لم تتعهد مطلقا " بتنفيذها " . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا والاجابة أصبحت عنه معروفة : هل ستنهي خارطة الطريق النكبة الفلسطينية وتضع حدا لها ، أم أنها ستشكل فصلا آخر من فصولها يضاف اليها ؟ وان غدا لناظره قريب .

سلام الانفصال الأحادي

❋) ثمة مشهدان . الأول على الساحة الفلسطينية ، والثاني على الساحة الاسرائيلية ، وكلا المشهدين مرتبطان ببعضهما . المشهد الأول مرسوم بألوان الدم والدمار والهدم والتجريف والقتل والاغتيال . والمشهد الثاني مرسوم بالوان ضجة مفتعلة حول خطة الانفصال الاحادي التي تفتق عنها ذهن ارئيل شارون رئيس الحكومة الاسرائيلية

*) أما علاقة الارتباط بين المشهدين فتنبع من أن مغزى هذه الخطة الاساسي هو تجميد العملية السلمية كونها توفر المناخ الضروري حتى لا يصبح هناك عملية سياسية تهدف الى قيام دولة فلسطينية . وعلاوة على ذلك فهي توفر اجواء مواتية لتعزيز الاستيطان الاسرائيلي تحت ظلال مباركة الولايات المتحدة التي منح رئيسها الحالي الوعد بتصفية أهم عناصر القضية الفلسطينية من جذورها

*) ويؤكد هذا الطرح حقيقتان . الاولى ما صرح به مؤخرا مستشار كبير لشارون ومدير مكتبه سابقا " دوف فايسجلاس " من ان هدف هذه الخطة هو تجميد العملية السلمية والحيلولة دون قيام دولة فلسطينية . وتتقاطع هذه الحقيقة مع الحقيقة الثانية التي تتمثل في هذا التصعيد غير المسبوق بالاستخدام المفرط للقوة ضد الفلسطينيين .

*) وحقيقة الامر ان ما تقوم به قوات الاحتلال الاسرائيلي في كل من قطاع غزة ومدن الضفة الفلسطينية وقراها ومخيماتها من أعمال حربية واسعة وقتل بالجملة لا تشكل بأية صورة من الصور مقدمة لأي انسحاب ، أو بصحيح العبارة لا يتطابق مع أي منظور لأية عملية سلمية على المديين القريب والبعيد ، ولا يمكن وصفها الا باعادة انتشار للاحتلال الاسرائيلي .

*) ان ما تقوم به هذه القوات الاحتلالية بأوامر مباشرة من الجنرال شارون ، وهو صاحب خطة الانفصال الاحادي ، يؤكد على حقائق مفادها أن السلام هو آخر ما يفكر به ، وان ليس في قاموس حكمه مفاهيم سياسية . ذلك أنه منذ البداية حبيس قمقم الحل العسكري والقائم على " الحسم " بأي ثمن .

*) ان مما يشجع شارون على هذا المنظور ان الولايات المتحدة الاميركية في عهد ادارة بوش الابن الجمهورية قد أضافت مجمل اعماله العسكرية ضد الشعب الفلسطيني الى منظومة حربها على ما تسميه " الارهاب " تحت ظلال

صمت عالمي مطبق . كما أن شارون هذا يعمل بحرية مطلقة لتدمير كل أمل بالسلام وتحقيق رؤاه بحرية مستغلا ما آلت اليه احوال الانظمة العربية الخاضعة للاملاءات والاشتراطات والضغوطات الاميركية حتى العظم ، الامر الذي جعلها تتخلى عن أبسط ثوابتها تجاه القضية الفلسطينية – استحقاقاتها – مآسي شعبها – قدسها – أقصاها – الخ .

*) وهنا لا ينبغي اغفال ثمرة علاقات شارون المباشرة مع الرئيس الاميركي جورج بوش الابن . فقد تمكن من انتزاع " وعد " منه بتصفية القضية الفلسطينية عبر الغاء حق العودة للفلسطينيين المهجرين منذ العام 1948 . وعلى ما يبدو ان الولايات المتحدة جادة في مساعيها لتهيئة الاجواء لتوطينهم حيث هم متواجدون . ان شارون وأية حكومة اسرائيلية يمينية كانت ، أو مهما كان لون طيفها السياسي كانت تشعر ولا تزال أن قضية اللاجئين الفلسطينيين تؤرقها وتقض مضاجعها ، وان ستة عقود من الصراع مع الفلسطينيين كانت أساسا تنطلق منها .

*) ان شارون وبمباركة من اميركا يريد من الفلسطينيين والعرب والعالم أن يصدقوا أن وجهه شطر السلام عبر هذه الخطة التي وصفها مسؤول في الامم المتحدة بأنها تقتل خارطة الطريق بموافقة من اميركا . وهو في ذات الوقت لا يريد من أحد من هؤلاء أن ينظر الى ما يفعل على أرض الواقع الفلسطيني من استلاب للاراضي الفلسطينية التي يريدها . أما تلك التي لا يريدها فهو يعمل فيها آلته الحربية تدميرا لكل مظاهر الحياة عليها .

*) وأما " سوره العظيم " الذي شرع في بنائه مفترسا خيرة الاراضي الفلسطينية ، فأقل ما يقال فيه انه جدار فصل عنصري هدفه الهروب من أية مسؤولية تجاه افرازات القضية الفلسطينية ، وأية عملية سلمية حقيقية . وهو أولا وأخيرا حام للمشروع الاستيطاني الذي قام بتسمين خارطة اسرائيل جغرافيا وديموغرافيا ، وألحق الهزال البنيوي بأي مشروع لدولة فلسطينية لها مقومات الدول الحقيقية ، بهدف أن تحل محلها " كانتونات " مقطعة الاوصال .

*) وهنا لا بد من التطرق الى لب المشكلة . فالامر كله لا يتعلق بشارون وحكومته اليمينية فحسب . فالارجح وهذا ما أثبتته التجارب السابقة والشواهد الاخرى التي لا تقبل الجدال فيها أن السياسات الاسرائيلية بعامة أيا كان لونها لم تنضج بعد لأية عملية سلمية ، وهي تفتقر الى أفق ونهج سياسيين . وهي في المحصلة نتاج تفكير مخطط له ومعد مسبقا يجري تنفيذه على أرض الواقع مستغلا الظروف الاقليمية والعربية والدولية الاخرى . ومما لا شك فيه أن " التوأمة المعاصرة " بين السياستين الاميركية والاسرائيلية قد شكلت في هذه الآونة بالذات العصر الذهبي لهذا الجموح السياسي الاسرائيلي الملون باستخدام مفرط للقوة غير مسبوق ، وهو على ما يبدو في سباق مع الزمن في سبيل تحقيق كل ما تصبو اليه هذه السياسة الاسرائيلية .

*) ومما يؤسف له – ويخشى ان يصبح هذا هو الطابع الرسمي لسياسات الانظمة العربية – هذا الصمت وهذه اللامبالاة العربية بما يجري ليس في فلسطين فحسب وانما في العراق والسودان ، مضافا الى كل ذلك هذه العاصفة الهوجاء التي تهب على العالم العربي بصورة أو باخرى وتتحرك صوب سوريا التي يتربص بها مجلس الأمن بقراراته السابقة واللاحقة بتوجيه من اميركا واسرائيل معا ، والحبل على الجرار .

*) والسؤال المتعدد الجوانب الذي يطرح نفسه بالحاح هنا : هل هو حديث عن الانفصال أم أنه احتلال بشكل آخر ؟ وماذا عن الضفة الفلسطينية ؟ أين موقعها من هذه الخطة الماكرة ؟ وماذا عن القدس واللاجئين ؟ وماذا عن الدولة الفلسطينية ؟ وماذا والف ماذا .

*) فلسطينيا – لا شك أن هذه الهجمة العدوانية الشرسة التي يتعرض لها الفلسطينيون هي من أقسى الحملات وأشرسها على مدار تاريخ نضالاتهم ، وبرغم أهدافها التصفوية ، الا أنها ستتكسر كغيرها على صخرة الصمود الفلسطيني - وان تركت جراحات عميقة تلقاها الفلسطينيون من الاحتلال والدعم الاميركي له والصمت العالمي وعدم الاكتراث العربي – ان هذه الهجمة لن تفت في عضدهم ، أو تكسر من شوكتهم أو تجعلهم يركعون ، أو يتخلون عن ثوابتهم المشروعة واستحقاقاتهم التي كفلتها لهم الشرعية الدولية ..

من الوعد الى المؤتمر

*) ستة وثمانون عاما تفصل بين وعد وزير خارجية بريطانيا آنذاك " بلفور " ومؤتمر لندن الذي دعا اليه مؤخرا رئيس وزراء بريطانيا الحالي " بلير" . وعلى خارطة هذه المساحة الزمنية الشاسعة ترامى تاريخ طويل متخم بالاحداث الجسام التي أفرزها وعد بلفور بقيام الدولة العبرية على أرض فلسطين التاريخية . ويظل أخطر حدث من هذه الاحداث هو المأساة الفلسطينية التي ما زال الشعب الفلسطيني يصلى جحيمها ، وتنصب لعنتها على العالم بصورة أو باخرى .

*) ورغم أن المسؤولية البريطانية عن مأساة الشعب الفلسطيني ونكبته حقيقة تاريخية ، الا أن بريطانيا نفضت يدها من هذه القضية وتركتها في مهب رياح السياسات الدولية المتعاكسة الاتجاهات بعامة والسياسات الاميركية المنحازة بخاصة ، فظلت لا تبرح الفضاء الأجوف الذي علقت به .

*) وهنا لا بد من التذكير بان القضية الفلسطينية مرت من الوعد البلفوري الى المؤتمر الحالي بمرحلتين . الاولى منذ العام 1917 حتى العام 1948 وهي فترة مساهمتها في ترجمة هذا الوعد الى حقيقة على أرض الواقع . والمرحلة الثانية تبدأ بجلائها عن فلسطين 1948 وهو تاريخ قيام الدولة العبرية حتى العام 2003 وتحديدا حتى انعقاد هذا المؤتمر ، وبذا تكون قد مضت خمسة وخمسون عاما لم تقدم بريطانيا خلالها مساهمة فعلية لرفع الظلم التاريخي الذي حاق بضحيتها الفلسطينية .

*) وفي هذه الايام بالذات يأتي عقد المؤتمر الذي دعت اليه مثيرا للغرابة والدهشة ويطرح كثيرا من الاسئلة أولها : لماذا بريطانيا بعد أن تخلت عن القضية وتنكرت لها ؟ في اعتقادنا أن لا أحد يظن أنها تريد أن تكفر عن خطيئتها ، مثلما أنه لا يمكن قراءة دوافع هذا المؤتمر في معزل عن الاستعدادات لشن حرب على العراق – وبريطانيا شريك أساسي فيها – ستطال تداعياتها وارتداداتها مساحات شاسعة من العالم العربي . فالمؤتمر والحال هذه يأتي في سياق غزل دبلوماسي للعالم العربي ، وطعم لاصطياد المزيد من صمته وسكوته عما يجري اعداده من سيناريوهات للمنطقة العربية .

*) وثاني هذه الاسئلة : هل أن الولايات المتحدة الاميركية قد تخلت عن دورها في القضية ، ولماذا لندن وليس واشنطون ؟ أم أن اللعبة السياسية في هذه المرحلة تقتضي تبادل الادوار ، ولا بد والحال هذه من تكريم أميركي لرئيس الوزراء البريطاني السائر في فلك سياساتها قلبا وقالبا بهدف تعزيز مكانته الدولية بعامة وداخل بريطانيا بخاصة .

*) وثالث هذه الاسئلة يدور حول قرار الرفض الاسرائيلي لسفر الوفد الفلسطيني ومنعه من حضور هذا المؤتمر باشخاصه وهو المؤتمر الذي تشارك فيه الولايات المتحدة . وهنا بيت القصيد في السؤال : اذ كيف يمكن تفسير الصمت الاميركي عن السلوك الاسرائيلي الا أن يكون موافقة ضمنية عليه الأمر الذي يطرح تساؤلا آخر حول فاعلية هذا المؤتمر في غياب أصحاب الشأن الفلسطينيين ، وتحديدا حول مصداقية المشاركين فيه أو القرارات التي يمكن أن تصدرعنه لدى استئناف انعقاده لاحقا . فاذا كان المشاركون – وفي أيديهم كل مفاتيح الحل والربط - لم يتمكنوا من الضغط على اسرائيل فكيف يمكن تطبيق أية قرارات لهم في ظل تعنتها ورفضها ، أم أن الامر كله مجرد رسالة املائية للفلسطينيين دون الحاجة للاستماع الى ردود أفعالهم .

*) وكما يبدو فان الهدف من هذا المؤتمر هو ما اصطلحوا عليه أنه اصلاح للادارة الفلسطينية وتطويرلها كيما تكون مستعدة للمرحلة القادمة وهي مرحلة تحريك العملية السلمية من جديد . ومرة أخرى تتسارع الاسئلة في طرح نفسها . اذ كيف يكون الاصلاح في ظل الظروف الحالية التي تنعدم فيها أبسط بسائط الأمن والتنقل للمواطن الفلسطيني تحت رحمة الاحتلال الاسرائيلي المدمر ؟

*) ان الفلسطينيين وجراءالظروف القاسية والتحديات الشرسة والحرمان من أبسط حقوق الانسان المعاصر لا ينكرون أن مؤسساتهم العامة بحاجةالى تطوير واصلاح وهم عاقدون الامل على حل عادل لقضيتهم يتيح لهم المجال المعقول لمهمة الاصلاح . الا أن الاهم من ذلك والأخطر هو اصلاح السياسة الاسرائيلية التي انغلقت على نفسها وتقوقعت على رؤى ومفاهيم وسلوكات وممارسات لا ترى من خلالها الا مصلحتها هي في حين أنها تنكر حقوق الآخر الذي يفترض ان تقيم معه السلام الدائم الذي يجلب الأمن والأمان .

*) ان السياسة الاسرائيلية هذه بحاجة الى مؤتمر دولي يهدف الى تقويم اعوجاجها وتفريغ شحنات عنفها وتهورها ولامبالاتها واستخدامها المفرط للقوة . وهي السياسة التي أثبت التاريخ الطويل أنها المسؤولة عن مسلسلات طوال من المآسي والاحزان وعدم الاستقرار وفقدان الأمن لشعبها وللشعب الفلسطيني ويقينا أنه بتغييرهذه السياسة سوف تصحو المنطقة على عالم آخر يسوده الأمن والسلام والازدهار . ولكن على الذين أوجدوا اسرائيل – وبريطانيا بالذات – يقع دور خطير في ايصال هذه المفاهيم الى قادة اسرائيل وهم قادرون اذا شاءوا .

*) لقد أكد مؤتمر لندن في ختام جلسته على أن السلام لن يسود في المنطقة الا بتسوية الصراع الفلسطينيي الاسرائيلي ، وهي حقيقة يعرفها الجميع ولا ينكرونها وليس فيها أي شيء جديد . ويظل السؤال ماذا فعل المؤتمرون في لندن أو سيفعلون لترجمة هذه المقولة على أرض الواقع ؟ والأيام القادمة كفيلة في الرد وان كان المكتوب يقرأ من عنوانه ذلك ان مؤتمر لندن الذي أنهى جولته الاولى عاجز أو أنه بصحيح العبارة يتعاجز أمام اسرائيل ، فهو من ناحية ينشغل بالجزئيات ويتجاهل الاساسيات . أما الجزئيات فهي الاصلاحات في الادارة الفلسطينية . أما الاساسيات التي بدونها لا يعقل أن تتم اصلاحات فهي تتمثل في انهاء الاحتلال بكل مشاهده اللاانسانية وايجاد حل عقلاني ومنطقي وعادل للقضية الفلسطينية . والفلسطينيون يطالبون بريطانيا بدين أكبر بكثير من هذا المؤتمر . فبريطانيا وشريكتها الولايات المتحدة اذا ما شاءتا فهما قادرتان دون أدنى شك أن تنهيا القضية دون اللجوء الى سيناريوهات الرؤى والمؤتمرات والوعود التي تفتقر الى رصيد فعلي على أرض الواقع

العودة إلى المربع الأول

❋) كثيرة هي المحطات التي مرت بها القضية الفلسطينية . ومما لا شك فيه ان التناغم والتآلف ما بين الألوان المتعددة للطيف الحزبي الاسرائيلي الذي أفرز مؤخرا حكومة "الوحدة الوطنية" يشكلان واحدة من المحطات التي تعود بالذاكرة الوطنية الى محطات المربع الاول الذي ابتدأت منه القضية جراء ما يحمله رموزها من أفكار ورؤى تنتمي الى سنوات منتصف القرن العشرين المنصرم ، والتي حافظ على تجرحها وتوقعها بالتمسك بالارض والامن على حساب السلام الحقيقي .

❋) وبداية فلا بد من الاشارة والتأكيد على ان الوان هذا الطيف الحزبي ليست متناقضة فيما بينها كما يحلو للبعض ان يصفها بانها غير متآلفة ومتعاكسة في اتجاهاتها ومراميها ورؤاها الاساسية . وقد يكون هذا الوصف صحيحا فيما يخص نزاعاتها الداخلية ومنافساتها على السلطة ، ومدى مساحة تأثيرها وما يمكن ان تحققه من مكاسب واهداف الا انها متحدة في الرأي والرؤيا واسلوب التعامل فيما يخص منظور كل منها تجاه القضية الفلسطينية . فالذين ينادون بترحيل الفلسطينيين – وهم طرف في هذه الحكومة – بهدف التخلص منهم بغية الحفاظ على نقاء منظومة انتماءآتهم العقائدية والقومية الاخرى ، لا يتناقضون مع الذين يصرون على الاستمرار في المشروع الاستيطاني وتطويره الى ابعد الحدود وهم طرف ثان في هذه الحكومة .

❋) فالاستيطان يعتمد على مصادرة المزيد من الارض الفلسطينية بكل الوسائل القسرية وبالتالي هدم ما عليها من وجود فلسطيني أيا كان شكله . وهذا يعني بكل ما في الكلمة من معنى ترحيلا للفلسطينيين واحلالا لآخرين مكانهم . والطرفان المذكوران لا يتناقض منظوراهما مع الطرف الثالث في هذه الحكومة والذي ينادي بنظرية "اسرائيل الكبرى" القائمة على مصادرة الارض والتاريخ والهوية والتراث من الشعب الفلسطيني .

❋) واليمينيون وهم الطرف الرابع بكل اشكالهم واصنافهم وعلى رأسهم "الليكود" . وقد يختلف منظورهم في الشكل اختلافا بسيطا الا انهم في المضمون الحقيقي من ذات الارومة . وسياسيا فهم لا يؤمنون بأية تسوية نهائية ترضي الشعب الفلسطيني ، بمعنى ان ليس لديهم استراتيجية لايجاد حل للقضية الفلسطينية . وهم رواد الطرح القائم على تكريس الواقع ، والبحث عن حلول انتقالية طويلة المدى . ولا يفتأ هؤلاء يرددون ان راهن الاوضاع الحالية هو "مثالي" على كافة الاصعدة . واما حقوق الفلسطينيين في الدولة والقدس والعودة وحدود العام 1967 وتفكيك المستوطنات – وهي كلها قواسم مشتركة في الايديولوجيات السياسية للاحزاب السياسية – مرفوضة ولا مكان لها في التفكير الاسرائيلي القائم اساسا على الاستيطان احادي القومية . واذا ما اضفنا الى هذه الاطياف طيف رئيس الوزراء الحالي بما له من رؤى وتاريخ عسكري مكتوب بالدم العربي بعامة والفلسطيني بخاصة فان الصورة تعكس انسجاما تاما بيم كل مركباتها وعناصرها .

❋) واخيرا وليس آخرا فثمة اولئك الذين ينتمون الى حزب العمل الاسرائيلي – وقد اصبحوا طرفا رئيسا في هذه الحكومة – وهم الذين اعتادوا ان يلقبوا انفسهم وان يلقبهم الآخرون بانهم معسكر السلام والتسوية والحل . ففي اعتقادنا ان دخولهم هذه الحكومة لا يأتي على خلفية ما يروجون له من شديد حرصهم على عملية السلام ، بقدر ما هو في حقيقة الامر حفاظ على مصالحهم الشخصية بعد الهزيمة النكراء التي مني بها حزب العمل في انتخابات رئيس الوزراء الأخيرة وما أصاب بنيته الاساسية من انقسام وتشرذم .

❋) ان هذا الطرف بالذات يحمل في جعبته مبتكرات مسلسل الافراط في استخدام القوة المدعمة بالآلة الحربية المتطورة عدة وتقنية ضد الفلسطينيين ابان حكمه قبل انهيار حكومته ، وقد احرز قصب السبق تكريسا "للاءآته الخمس" ، واوقع افدح الخسائر البشرية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية في الفلسطينيين ، وحول تجمعاتهم السكنية الى معتقلات تحت وطأة الحصارات والاغلاقات العسكرية . وعلى ما يبدو ومن خلال استقراء الاحداث على أرض الواقع – فان هذا النهج القمعي مضافا اليه ابتكارات جديدة قد انتقلت عهدته الى ملاك الحكومة الاسرائيلية الجديدة ، ذلك ان وزير دفاعها هو من صقور هذا الطرف .

❋) وخلاصة القول ان اجتماع هذه الاطياف السياسية الاسرائيلية طال عمرها في الحكم ام قصر نابع من حقيقة اجماعها على ضرورة ضرب الاهداف الفلسطينية التي ما زالت تحمل طابع التحدي والاصرار والثبات على الموقف والتضحية القصوى من اجل تحقيقها والخلاص النهائي من هذا الواقع المزري الذي استمر اكثر من نصف

قرن . وليس ثمة ما يشير الى اية انفراج محتمل . فقد استخلص الفلسطينيون من خلال تجاربهم الطويلة والمريرة العبر من كل ما مر بهم . وهم على قناعة ان خصمهم يراوغ ويتلون ويلف ويدور في حلقة مفرغة كونه لا يؤمن اساسا الا بمنظور سلام خاص به . وربما يبدي بعض اللين والمرونة في خطابه السياسي ، الا انه في ذات الوقت يطلق العنان لآلته القمعية دون هوادة .

٭) وعلى الارجح فان ثمة متغيرين تتفيأ هذه الحكومة ظلالهما ، وهما يعملان في صالحها . أولهما الادارة الاميركية الجمهورية الجديدة والتي على مايبدو لم تعد قضية السلام في الشرق الاوسط تحتل مكانة الصدارة بالنسبة لها ، في حين ان انظارها متجهة صوب الخليج العربي بعامة والعراق بخاصة . وفي هذا الصدد فانها اعلنت مرارا ان أي حل في الشرق الاوسط ينبغي ان يكون اساسا نابعا من رغبة الطرفين وبمبادرة أساسية منهما دون تدخل خارجي . وهذا يعني ان الادارة الاميركية ستغض الطرف عن كثير من الممارسات الاسرائيلية والمتغير الثاني يخص الانظمة العربية التي ما زالت مشرذمة ولا تملك استراتيجية تجاه الموقف برمته اكثر مما فعلته حتى الآن . وليست الانظمة العربية بحاجة لتذكيرها بان ابسط رد عربي على هذه الوحدة الاسرائيلية ان تقابل بوحدة مماثلة . وعلى ما يبدو ان رهان اسرائيل هذه المرة – وانطلاقا من المربع الاول للقضية - سيظل كما في كل مرة لا سمح الله على انقسام الرأي العربي وعجزه .

الـرقابة منظـور فـلسطـيني

❋) أفـرزت ردود الأفعـال العـسكرية الاسـرائيلية التـي اتـسمت باسـتخدام مفـرط للقـوة علـى فعاليـات الاحتجـاج الفلـسطينية غـداة انتفاضـة الاقـصى معادلـة قـوة غيـر متكافئـة بكـل أبعادهـا. وغنـي عـن القـول أن هـذه الفعاليـات الاحتجاجية كانت ولا تـزال علـى خلفيـة عدم حصول الـشعب الفلسطيني حتـى علـى أدنـى منسوب من حقوقه التـي أقرتها له الشرعية الدولية وليس لها أية دوافع أخرى ، ولا يمكن وصفها بأعمال عنف أو ارهاب كغاية في حد ذاتها .

❋) وعلـى مـدار الاشـهر العـشرة المنـصرمة شـنت اسـرائيل ولا تـزال حربـا لا هـوادة فيهـا اسـتفردت مـن خلالهـا بالفلـسطينيين ، وقـد أثبتـت الوقـائع الميدانيـة انهـا لـم تكـن فـي حقيقـة الامـر مجـرد ردود أفعـال آنيـة بقـدر مـا هـي استراتيجية مخطط لها ومعدة سلفا هدفها التخلص من تبعات القضية الفلسطينية بانزال ضربة قاضية بها وبشعبها . وعلـى مـا يبـدو أن هـذه الاسـتراتيجية ليـست مـن بنـات افكـار حكومـة اليمـين الاسـرائيلي الحاليـة بقيـادة "الليكـود" والمطعمـة بفلـول العمـال الـذين انهـارت حكومتهم السابقة ، وانمـا كانـت أقدم مـن ذلـك بكثيـر ، وان أطيافـا سياسـية متعددة سـاهمت فـي اعدادها وباركتهـا . الا أن اسرائيل انتظرت سـاعة الصفر التـي كانـت مرتبطـة بحالـة التشرذم العربية التي وصلت الى أقصى مستوى لها .

❋) لقد أدرك الفلسطينيون منذ البداية أن هنـاك مخطـط تـصفية لقضيتهم ، وأن اسرائيل قد نفضت يدها من كل "توجه سلمي" كانت تغطي به علـى أهدافها الحقيقيـة المتمثلـة باستحواذها علـى ثـالوث الأرض والسلام والأمـن لهـا دون سواها وليكن بعدها الطوفان . وعلى خلفية هذا السيناريو أحدثت الحرب التي شنتها اسرائيل دمارا خطيرا فـي المقـدرات الفلـسطينية علـى كافـة الـصعد ، وفـي الوقـت نفـسه كانـت تقـوم بتـسويق اعـلام مـن منظورهـا يـصور الفلسطينيين وكأنهم جيش منظم يخوض حربا ضدها ويمارس اعمال عنف وارهاب . ومما يلاحظ أن اسرائيل هذه المرة لم تتطرق الى الاشارة او الحديث عن "انتفاضة" كما كان الحال في الانتفاضة الاولى .

❋) وجراء الممارسات العسكرية الاسرائيلية المتصاعدة والتي كـان آخرهـا مـا يسمى بخطـة "يـوم الجحيم" طالـب الفلسطينيون المرة تلو المرة بحق حمايتهم اما بارسال قوات دولية أو أية آلية رقابة دولية اخرى . الا أن هذا الطلب كان على الدوام يمنى بالرفض والافشال من قبل الولايات المتحدة الاميركيـة الملتزمـة اساسـا بـالوقوف مـع اسرائيل قلبا وقالبا .

❋) ولسنا هنا بصدد الحديث عن المسالك والقنوات والمراحل التـي مرت بهـا المطالبـة الفلسطينية للرقابـة الدوليـة ذلك أن شرحها يطول . الا أن ما يهمنا هنا هو الاشارة الى القرار الذي أصدرته مجموعـة الـدول الثمـاني فـي مدينـة جنـوا الايطاليـة مؤخرا حيـث أقرت صـيغة مـا مـن الرقابـة ، الا انهـا كانـت مشروطة بموافقـة الطـرفين الفلسطيني والاسرائيلي عليها ، الامر الذي يعني وضع حجر عثرة أمام تنفيذها على أرض الواقع بسبب الرفض الاسرائيلي .

❋) وكعادتها فان الولايات المتحدة الاميركية ومن منطلق أنها تصر أن تكون لها الكلمة الفاصلة الاخيرة – والتفافا علـى أيـة محاولـة لطـرح صـيغة فاعلـة – فعلـى مـا يبـدو أنهـا تحـاول بلـورة صـيغة مـا غيـر دوليـة بحيـث تكـون لهـا المرجعية فيها . وتسعى الى تسويقها وتتمثل في تولي مراقبين اميركيين محدودي العدد والعدة هذه المهمـة . وهـي في نفس الوقت تحاول ان تصور اية صيغة من هذا القبيل على انها متوازنة وانها تراعـي مشاعر الـوطن العربـي ، ذلك انها بدأت تشعر ان هنـاك حـالات احتقان وحنق متصاعدة بين ظهرانيـه جـراء سياستها المنحـازة لاسرائيل ، وبخاصـة تلك الملاحظات الناقدة التي جاءت على لسان بعض الساسة العرب الذين تعتبر الولايات المتحدة ان لهم وزنهم في المنطقة .

❋) وعلى فرض أنه تم الاتفاق علـى صـيغة لآليـة رقابـة فقد أثبتت التجـارب السابقة أن أيـة آليـة مـن هذا القبيل أو غيره لا يمكن أن تكون مانعة اذا لم تكن النوايا خالصة وتتجـه فعلا نحـو ايجـاد حل عـادل للقضية وهنـا ثمـة أسئلة تطرح نفسها في هذا الصدد حول ماهية هذه الصيغة الرقابية ووظيفتها ومدى الزامية التقارير الصادرة عنها علاوة علـى مـدى حجـم الـصلاحيات التـي تتمتـع بهـا المرجعيـة الخاصـة بهـا وفيمـا اذا كانـت متـساوية أو أن شـبح الهيمنـة الاميركية كما هي العادة يسيطر عليها .

❋) فلسطينيا فانه يفترض أن هذه الآلية الرقابية أيا كان شكلها ليست هدفا بحد ذاته ، وانما هي وسيلة ما يمكن أن تمنح الفلسطينيين بعض الطمأنينة والشعور بان هناك جهة شرعية دولية تقف على خطوط تماسهم مع قوات الاحتلال ليس بهدف "فك اشتباك" أو "هدنة" ، وانما بهدف أبعد من ذلك بكثير . فالفلسطينيون ينظرون الى هذه الآلية الرقابية على انها "دولية" وليست مجرد "طرف ثالث" أيا كان هذا الطرف . وهم يفترضون أن وظيفتها لا تقف عند حدود رصد المخالفات الأمنية فحسب . فحتى تكون هذه الآلية فاعلة ومنطقية وذات جدوى لا بد أن تتسع قاعدة وظيفتها الميدانية لتشمل مراقبة الانتهاكات الاستيطانية ومصادرة الاراضي وعمليات الاختراق والتجريف والاعتقالات والاغتيالات وكافة أشكال الحصار والاطواق الأمنية اضافة الى مراقبة الأمان على طرق المواصلات . كما أنه يفترض بها أن تشكل مظلة وجوا ملائمين للعودة الى مائدة مفاوضات المرحلة النهائية لتحقيق الاهداف الفلسطينية الشرعية التي حالت دونها النوايا الاسرائيلية المبيتة التي تصر على سلام هو في الحقيقة صورة محسنة وذكية لاحتلالها .

❋) وعربيا فان الوطن العربي من خلال انظمته السياسية وجماهيره قادر اذا ما خلصت النوايا أن يقدم الكثير للشعب الفلسطيني من خلال وحدة كلمته ومواقفه وسياساته الخارجية التي يفترض أن تقوم على توازن دقيق في المصالح المتبادلة مع الدول ذات القرار وبخاصة دول الاتحاد الاوروبي وتحديدا الولايات المتحدة . وعلى الارجح أن هذه الدول ستفعل الكثير اذا ما شعرت أن هناك اعادة عربية لتقييم الاسس التي تقوم عليها علاقاتها مع الوطن العربي .

❋) وخلاصة القول لقد خبر الفلسطينيون كل الوسائل والآليات عبر معتركات نضالاتهم الطويلة المريرة . وهم على ثقة أنه ما من آلية أيا كانت يمكن لها أن تحقق لهم أهدافهم وأمانهم وسلامهم الا آلية وحدتهم واصرارهم على ثوابتهم . فهي الكفيلة في النهاية أن تفعل ما عجز الآخرون عن فعله أو تقاعسوا عنه أو رفضوه .

الخيارات الاسرائيلية الى أين ؟

❋) الضغوطات التي مورست على اسرائيل من عدة اتجاهات مؤخرا لانسحابها من المدن والبلدات الفلسطينية التي اعادت احتلالها ، وانصياعها بصورة او باخرى للانسحاب ، هذه الضغوطات وما أسفرت عنه من انسحاب جزئي وما ستسفر عنه لاحقا من انسحاب تام ، تحمل في طياتها ابعادا ذات مغزى تخص الخيارات السياسية والعسكرية الاسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني ومجمل قضيته .

*) فاسرائيل هذه المرة قد لعبت على ورقة الخيار العسكري وهو الافضل والاعرق لديها وراهنت عليه وخسرت الرهان كعادتها . والاخطر في هذه الخسارة الاخيرة كون سلسلة الخيارات الاسرائيلية من هذا النمط قد فشلت في تحقيق " اهداف اسرائيلية " اساسية عجزت عنها كل الحكومات الاسرائيلية السابقة ذات ألوان طيف سياسي مختلفة . وبطبيعة الحال تتمثل هذه الاهداف في فرض تسوية بالقوة على الشعب الفلسطيني من منظور اسرائيلي ، وبما يخدم مصالحها وامنها وسلامها خارج اطار اية تسوية تحت مظلة الشرعية الدولية وعبر قراراتها المتراكمة .

*) الا ان الرهان الخاسر الاكبر للخيارات الاسرائيلية أيا كانت مضامينها واتجاهاتها كان على تفكيك الجبهة الفلسطينية الداخلية التي تناسبت قوة تماسكها طرديا مع ازدياد شراسة هجماتها العسكرية أفقيا ورأسيا على الشعب الفلسطيني مستهدفة أمنه واستقراره وفعالياته الاقتصادية والتربوية والثقافية والاجتماعية والانسانية الاخرى . ومما لا شك فيه ان حصادها في هذا المضمار كان فشلا ذريعا . وليس أدل على ذلك من منظومة الصمود والتحدي والتصدي التي تسلح بها هذا الشعب وما زال منذ ما ينوف عن أربعة عشر شهرا هي عمر انتفاضة الاقصى الفلسطينية ، وذلك على أقل تقدير .

*) وهنا لا بد من مناقشة الدوافع التي أدت الى فشل هذا الخيار العسكري الاخير بكل ما كان يحمل من زخم ، وما اعد له من عدد وعدة ووسائل .ان اسرائيل لا تستطيع ان تقول انها قامت " بانجاز مهماتها " . وصحيح انها قتلت ونسفت ودمرت وأسرت وخلفت وراءها ركاما من الدمار كعادة كل غارة قامت بها منذ ما ينوف عن نصف قرن . الا أن تكرار هذا السيناريومن جانبها قد عمل بصورة عكسية على ساحتها ، وولد شكلا نادرا من اشكال المناعة والتحمل في الساحة الفلسطينية وعمل على ترسيخ قاعدة الاصرار الفلسطيني في كل مرة على تحقيق أهدافه التي يضحي من أجلها بالغالي والنفيس ويجود بارواح ابنائه .

*) اما ما يخص " الضغوطات " التي مورست عليها ، ونخص هنا قرار مجلس الامن الذي كان مجرد طلب غير ملزم قانونيا ، وكذلك الضغوطات المماثلة على الصعيدين الاميركي والاوروبي . وهنا فنحن ننوه الى الاستخفاف واللامبالاة وعدم الاكتراث التي تعرضت لها من قبل الحكومة الاسرائيلية . وفي هذه المرة بالذات كانت نبرة التحدي الاسرائيلي لها عالية الوتيرة ، اضافة الى توسيع مساحة ممارسات التحدي الفعلي على أرض الواقع .

*) والحقيقة ان اسرائيل تعلم يقينا انها لم تستطع بفعل الانتفاضة الاولى أن تنعم بالهدوء والاستقرار وسط التجمعات السكانية الفلسطينية على أرض فلسطين الامر الذي جعلها لاحقا تنسحب جراءها وفي هذه المرة أعادت الكرة – لعل شيئا ما قد يكون تغير لصالحها – فكان الحصاد نفسه . لقد حاولت اسرائيل مرارا وتكرارا هذا الخيار الاحتلالي القائم على الحصارات والاغلاقات والاطواق والحواجز العسكرية والسواتر الترابية والاسمنتية ترافقه عمليات الاقتحام بين الفترة والاخرى . الا انها كانت تعود منه كل مرة " بخفي حنين " ، مع ان الفلسطينيين لا ينكرون انهم عانوا الامرين من هذا الاحتلال او غيره قصر ام طال أمده .الا أن الامور في حسبانهم بخواتيمها وما يمكن ان تفرزه من نتائج .

*) في اعتقادنا ان اسرائيل قد استنفذت حتى الآن كل منظومة خياراتها العسكرية ضد الشعب الفلسطيني من جهة والتي دون شك عملت ضدها هي من جهة اخرى ، كونها كل مرة كانت تخسر مساحة ما من " أمنها وأمانها وسلامها " ، وتتآكل " انتصاراتها العسكرية " التي هيىء لها انها حققتها في حروبها مع الفلسطينيين والعرب .

*) وجراء ذلك يفترض المنطق والعقلانية البحث عن خيارات اخرى . وحقيقة الامر انها موجودة فعلا ومختزلة في خيار واحد يتمثل في توأمي الأمن والسلام الحقيقيين اللذين هما في أيدي الفلسطينيين الذين أعلنوا مرارا وتكرارا انهم مستعدون لتقديمهما شريطة ان يكون لهما مقابل وهو الاعتراف بالحق الفلسطيني ، وكذلك بالأمن والسلام الفلسطينيين .ودون ذلك يكون هذان التوأمان حلم ابليس في الجنة

*) وهذا ايضا يفرض على اسرائيل وحليفتها الولايات المتحدة الاميركية الاعتراف بان الشعب الفلسطيني ما زال حيا ، وان مأساتي العام 1948 والعام 1967 لم تغيبا ذاكرته الكارثية ، ولم تفقداه وعيه الانتمائي ، ولم تغرقاه في غيبوبة تنسيه ما له من حقوق وما عليه من واجبات تجاه هذه الحقوق ، والاهم من ذلك كله ان هذه الذاكرة ترفض أي شكل من أشكال السلام الكارثي .

*) وأخيرا لا آخرا فان الشعب الفلسطيني ايضا على يقين من ان لعبة " التماثل والمحاكاة " ونقصد بها هنا التشبه بما جرى للولايات المتحدة التي تلعبها هذه الأيام السياسة الاسرائيلية وتتمثل في تسويق سيناريو للعالم بعامة وللولايات المتحدة بخاصة تسند فيه الى نفسها دور البطولة في عملية الانقضاض على ما تتوهمه "فلسطين الافغانية وجماهيرها الطالبانية " للقضاء على ما تسميه هي بالارهاب . ان هذا السيناريو في اعتقاد الفلسطينيين لا يصلح الا ان يكون فيلما سينمائيا يستهوي غلاة اليمينيين المتطرفين الذين عميت ابصارهم ان ترى أبعد من انوفها .

*) وخلاصة القول ان الخيار الوحيد الأعقل والأصح والأفضل والأضمن والأكثر بقاء لاسرائيل هو أن تعترف بحق الشعب الفلسطيني في التحرر والحرية واستعادة حقوقه الشرعية. فلقد جربت قبلها هذا الخيار كل الدول الاستعمارية مع الشعوب التي احتلتها بعد فشل كل خياراتها الاخرى ، فكانت النتيجة انها تنازلت عن الغطرسة والعناد والاستعلاء والمكابرة ، واضطرت للاعتراف بعدوها وجلست للتفاوض معه ندا لند .وكذلك حال السلام والأمن اذا كانا هدفا حقيقيا لاسرائيل فهما يأتيان من تصالحها مع الفلسطينيين على أسس يرضون عنها ، وهي اسس شرعية ومشروعة ، ومعروفة لاسرائيل وحليفتها الولايات المتحدة جيدا .

موضوعات ذات علاقة بالقضية الفلسطينية
حزيران السادس والثلاثون

*) ليس من نافلة القول بأن حزيران العام 1967 قد حمل معه واحدا من أخطر الاحداث التي عرفها التاريخ العربي المعاصر ، بل انه بصحيح العبارة أخطرها على الاطلاق ليس على صعيد القضية الفلسطينية فحسب ، وانما على كافة صعد الحياة العربية . ويومها أطلقت الانظمة العربية على ما آلت اليه الامور آنذاك " نكسة " ولو أنها وجدت مفردة لغوية في قاموس اللغة العربية أبسط منها أو أخف وطأة لما ترددت في استخدامها .
*) ويومها لم يكن هناك الا اعلام واحد ووحيد هو اعلام الانظمة العربية الذي كرس جاهدا مصطلح النكسة وقام بتسويقه للجماهير العربية التي صدقته غالبيتها كونها لم تكن تعرف حقيقة ما جرى ، ولا الاسباب الحقيقية لما جرى ، ولا ما يمكن أن يكون لها من تداعيات وافرازات مريرة على ساحة الواقع العربي .لقد كان " الاعتقاد المسوق " أنها وعكة سرعان ما يعقبها الشفاء والتعافي منها . الا أن هذه الوعكة لم تشف وأصبحت مع الايام مرضا مزمنا انتشر فيروسه في كافة جوارح الجسد العربي وأعمل فيه فتكا وتدميرا لكل أجهزة مناعته القومية .
*) وفي الحقيقة كان حزيران هزيمة كبرى لكثير من الاسس التي قام عليها الواقع العربي ، بل انه اخطر الهزائم التي عرفها التاريخ العربي على مدى عصور طوال . وان عدم الاعتراف بهذه الحقيقة المريرة منذ ايامها الاولى اما انه كان جهلا أو مكابرة أو خداعا أو انه كان خليطا من كل هذه المعاني . وعلى خلفية هذه النظرة المقصودة أو غير المقصودة ظلت الاحوال العربية تتردى شيئا فشيئا الى أن وصلت عصر سقوط بغداد الثاني في القرن الحادي والعشرين . ورحم الله شاعرنا العربي الذي قال : اذا كنت لا تدري فتلك مصيبة – وان كنت تدري فالمصيبة أعظم .
*) واحقاقا للحق ، فليست الهزائم في التاريخ مقصورة على الامة العربية . فكثير من الامم نزلت بساحتها هزائم بحجم الهزيمة العربية في حزيران أو أضخم منها . الا أن أية هزيمة تتبلور وتتجسد وتصبح هزيمة تاريخية حين تقبل بها الامم والشعوب ، أو تدير لها ظهرها ، أو تلتف عليها ، أو تتجاهلها ، او أنها في تصديها لها لا ترقى الى سقف خطورتها أو أنها تتنازل عن منظومة ثوابتها ومواقفها ولاءآتها ، أو تتجرد من انتماءآتها ، أو انها أخيرا لا آخرا تنجر وراء بهارج الدنيا ومباهجها فتسبح في بحر من الترف يفرز وقرا في آذانها وقذى في أعينها وخدرا في احاسيسها .
*) وهذا ما حدث مع العالم العربي شعوبا كانت مسيرة لا مخيرة ، وأنظمة سياسية قلصت مساحة انتماءآتها القومية الى درجة كبيرة ، وحشرت نفسها في قمقم السيادات القطرية الضيقة ظانة بذلك أنها تريح نفسها من عناء هذا الهم القومي المتمثل في القضية الفلسطينية والتي على ما يبدو نظرت اليها على أنها قضية قطرية تخص الفلسطينيين متجاهلة بعدها القومي العقائدي وكون القدس والمقدسات شأنا عربيا اسلاميا هو مسؤولية الجميع دون استثناء ، وانها ليست مجرد قضية اجتماعية انسانية تحل بالتبرعات المادية والعينية .
*) لقد أبدى العرب شعوبا وانظمة على مدار العقود الاربعة الاخيرة وتحديدا ابتداء من حزيران 1967 ضعفا مذهلا وتقاعسا وتخاذلا كلما تعرض جزء من وطنهم العربي الكبير لاعتداء خارجي . لقد وقفوا متفرجين يوم اجتياح لبنان في العام 1982 وسقوط أول عاصمة عربية هي بيروت . لقد سكتوا على حصار العراق والاعتداء عليه اثني عشر عاما ، ولم يحركوا ساكنا يوم قصفت ليبيا وحوصرت سنين طوالا . ولم يأبهوا لقصف السودان . وأما مسلسل استلاب فلسطين وتهويد القدس ومشاهد الاجتياحات الدامية المدمرة للأراضي الفلسطينية فقد أصبحت أمرا عاديا مألوفا اسوة ببقية المسلسلات التلفزيونية على الفضائيات العربية . وينتهي الأمر بسقوط العراق واحتلاله ، وليته يقف عند هذا الحد .ان المصيبة كانت تهون لو أن العرب لا يملكون قوة اقتصادية هائلة ، الا انهم أفرغوها من عناصر قوتها وتأثيرها .
*) وفي المقابل فان الآليات والمناهج العربية متمثلة في القمم والبيانات الخجولة المتواضعة والشكاوى الروتينية الى مجلس الامن حيث غول الفيتو الاميركي كانت هي خارطة طريق العجز العربي تحت مظلة جامعة الدول العربية التي لم تحاول الانظمة العربية تطويرها على الخط القومي . لقد آثرت هذه الانظمة أن تبقيها على هذه

الشاكلة بعد أن تم تحييد كل بنود ميثاقها ذات الصبغة القومية ، وافراغها من أي عنصر تفعيل لها ، وفي مقدمتها بند معاهدات الدفاع العربي المشترك .
*) ومن حزيران الى حزيران عاشت الانظمة السياسية العربية حالة متفاقمة متعاظمة من الفرقة والتعادي والانقسام والشرذمة في عالم يغذ الخطى حثيثا نحو التكتلات الاقتصادية والسياسية والعسكرية . وكانت المحصلة تآكلا مستمرا ومتسارعا في عناصر مقومات ما يفترض انه " وطن عربي " يلم تحت سقفه شمل الأماني العربية ، ويبث في أوصال جماهيره الشعور بالكرامة والمنعة والحماية والأمن والأمان . ولا يقف هذا التآكل عند قواه ومقوماته القومية ، بل انه تسرب الى كل قطر من الاقطار العربية الواحدة تلو الاخرى فأفقدها الكثير من مقومات الصمود في وجه الاملاءآت والاوامر والاشتراطات والضغوطات الخارجية . وليس من المستبعد أن يكون ما حدث في العراق انموذجا ومثالا لما هو مخطط لهذ الانظمة .
*) ان الحديث عن حزيران في ذكراه السادسة والثلاثين لا يمكن لشجونه الا أن تعرج على العراق . ان ماحدث في هذا القطر العربي لا ينبغي ادراجه تحت مسمى حدث قطري يعود الى اسباب داخلية تخصه وحده ، أو أنه مجرد سقوط نظام ليحل محله نظام آخر . ان ما حدث في العراق هزيمة قومية جديدة هي المحطة الاولى لكتلة الجليد المتدحرجة ، وجذور هذه الهزيمة تعود الى افرازات أول حزيران جسد أخطاء الواقع العربي ولم تجد من يقوم باصلاحها ولا من حاول أن يستخلص العبر منها . ولعل أولى هذه الاخطاء وأخطرها كان التغني اللفظي بشعارات قومية وحدوية دون أدنى محاولة لتوظيفها على أرض الواقع .
*) ويمضي حزيران في أثر حزيران ، وها هو من جديد يطل على العالم العربي وهو في حال يرثى لها ، غارق في مستنقع احباط ، مفكك الاواصر ، لا يعي حقيقة ما يدور حوله أو ما يخطط له ، أو أنه يعي كل ذلك الا انه عاجز عن فعل شيء . الا أن حزيران يطل على الشعب الفلسطيني وقد اعتاد على ذكراه وافرازاته وهيأ نفسه على الدوام لكل الاحتمالات وأقساها وأمرها ، ذلك أنه ما زال يخطو خطواته على طريق ثوابته ومنظومة حقوقه التاريخية في الوطن المغتصب ، وصمد صمودا مدهشا وان دفع ثمنه غاليا ، وهو يتمنى أن يكون في صموده وتحديه وتصديه وعدم تهاونه نموذجا ومثالا لأشقائه في الوطن العربي .
*) وخلاصة القول ، لقد أصبح عمر حزيران في أجندة التاريخ العربي ستة وثلاثين عاما . وها هو يدخل عامه السابع والثلاثين حاملا معه ركاما من الاخطاء العربية القاتلة على كافة الصعد السياسية والأمنية والاقتصادية والثقافية .الا أن أخطر هذه الاخطاء يتمثل في انشطار الوطن العربي الى انظمة تآكل وزنها السياسي الى درجة فقدت عندها كثيرا من عناصر مكونات الدول الاساسية بدءا بالسيادة وانتهاء بالارادة جراء سياسات انفرادية لا تمت للعروبة بصلة . ويبقى حزيران هو الناقوس والذكرى . وعساه يكون في ذكراه تذكيرا للساهين وتحذيرا للاهين .

حزيران السابع والثلاثون

❋) عاما بعد عام ، وللمرة السابعة والثلاثين يطل الخامس من حزيران على العالم العربي بعامة والفلسطينيين بخاصة ، والحال ذات الحال . ونستميح شاعرنا العربي الخالد أبا الطيب المتنبي ونحن نردد من وحي قصيدته : حزيران .. بأية حال عدت يا حزيران - بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

*) وواقع الحال يجيب على الفور أن ليس هناك من جديد ولا تجديد في المشهد العربي الحالك الظلال ، وتحديدا فيما يخص انعدام أية استراتيجية قومية واعدة بخصوص القضية الفلسطينية. ويظل الحدث الاكثر مأساوية يتمحور حول ما تشهده الاراضي الفلسطينية وما يعيشه مواطنوها على مدار الساعة من تصعيد اجتياحي احتلالي خطير غير مسبوق يحمل في طياته نوايا تصفوية آخذة في الاتساع على أكثر من اتجاه تحت ظلال مساحة شاسعة من التراجع العربي على صعيدي الانظمة السياسية الرسمية ، والشارع العربي العاجز عن فعل أي شيء.

*) ان الخامس من حزيران عام 1967 هو وليد الخامس عشر من أيار 1948 ، وهو اضافة الى ذلك افراز خطير لواقع عربي مهلهل على كافة الصعد . الا أن أخطر هذه الصعد هو اصرار كثير من الانظمة العربية على التقوقع السيادي القطري ، والتهرب من العمل القومي العربي المشترك تحت أي مسمى تصبو اليه الجماهير العربية منذ عقود من الزمان ، ولكنها لم تحظ منه حتى الآن بأي قدر معقول يمكن تجنيده لخدمة القضايا العربية انطلاقا من اولى قضاياه وأخطرها وهي القضية الفلسطينية التي اتسعت مع الأيام تداعياتها وافرازاتها وآثارها السالبة افقيا وعموديا وفي أكثر من جغرافيا .

*) واستكمالا لما آل اليه المشهد السياسي العربي ، فان حزيران السابع والثلاثين ، أو بصحيح العبارة الذكرى السابعة والثلاثين للهزيمة العربية الكبرى التي ما زالت تنضح افرازاتها المحبطة على الساحة العربية ، ان هذه الذكرى تطل غداة حدثين قد شهدتهما هذه الساحة ، أولهما ذلك التصعيد الخطير على أيدي قوات الاحتلال الاسرائيلي في كل مدينة وقرية ومخيم بعامة ، وفي مدينة رفح بخاصة .

*) وأما الحدث الثاني فهو انعقاد قمة تونس مؤخرا ، وصدور " اعلان تونس " الذي تطرقت بعض بنوده الى القضية الفلسطينية ، تلك البنود التي يمكن وصفها بانها قرارات الحد الادنى ، أو تلك القرارات التي ليس لغالبيتها رصيد على أرض الواقع ، أو تلك القرارات الخجولة المتواضعة التي لا ترقى الى سقف القضية . ومرة اخرى ، وقمة اخرى ، ليس ثمة من جديد ولا تجديد .

*) وفي ذات السياق ، وبعد ستة وخمسين عاما على النكبة والتشريد ، وبعد سبعة وثلاثين عاما على هزيمة حزيران وما نجم عنها من احتلال اسرائيلي لكل فلسطين ، يكون نصيب القضية من قمة تونس – واقتباسا من اعلانها – هاتين العبارتين " التضامن مع الفلسطينيين ، المطالبة بتوفير الحماية الدولية لهم " دون تحديد آلية عمل أو سقوف زمنية لهذا التضامن ولهذه المطالبة ، أو حتى تبيان الوسيلة أو الجهة التي سيقدم اليها طلب الحماية ، وعلى الارجح ليس هناك من جهة .

*) وحقيقة الامر هناك مفردات ومصطلحات وتعابير وقرارات ودعوات ومطالبات وادانات واستنكارات اعتاد عليها المواطن الفلسطيني من القمم العربية السابقة التي دأبت على اجترارها ، وهو يحفظها عن ظهر قلب وليس ثمة داع لفتح ملفها والحديث عنها .

*) الا ان ثمة امرين يستوقفان المواطن العربي بعامة والفلسطيني بخاصة ، اولهما اعادة الحديث عن المبادرة العربية للسلام التي كانت قمة بيروت 2002 قد تبنتها وطرحتها والتي ردت عليها اسرائيل في اليوم التالي بمسلسل اجتياح الاراضي الفلسطينية الذي ما زال قائما حتى الآن .

*) فيما يخص هذه المبادرة فعلى مدار العامين المنصرمين تجاهلت اسرائيل والولايات المتحدة التي اخترعت خارطة الطريق ردا عليها . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : ماذا تقصد الانظمة العربية من اعادة الحديث عن هذه المبادرة ، وهل لديها من القدرة والوزن السياسي ما يمكنها من احيائها وتفعيلها ، أو حتى اقناع الولايات المتحدة بها ، أم ان الامر كله لا يتعدى مجرد الكلام .. والسلام ؟

*) والامر الثاني ، لقد تعرضت القضية الفلسطينية الى أخطر تحد خلال ستة وخمسين عاما من النكبة جراء " وعد الرئيس الامريكي جورج بوش الابن " لاسرائيل بالغاء حق العودة واسباغ الشرعية الامريكية على الاستيطان .

لقد عقدت قمة تونس وانفضت دون ابداء كلمة واحدة تدين أو تستنكر هذا الاعتداء السافر من قبل الادارة الاميركية على مجمل الحق الفلسطيني الشرعي . وحقيقة الامر ان هذه القمة قد غضت الطرف عن كل ما تقوله اميركا أو تفعله وهو بصريح العبارة " لب المشكلة " ، ذلك أن الحل – ان شاءت الانظمة العربية وخلصت النوايا – يبدأ من تصحيح العلاقة العربية الاميركية ، وجعلها " اوتوستراداً " ذا مسارين بين البيت الابيض والعالم العربي ، لا مسارا احاديا من البيت الابيض الى العالم العربي .

*) في الذكرى السابعة والثلاثين لحزيران 1967 بكل ما يحمله من شؤون وشجون واحزان وذكريات وتاريخ طويل من منظومة رفض وتمرد واصرار ونضال فلسطينية ، فان الفلسطينيين يعيدون حسابات قضيتهم . وهم يتساءلون هل هي قضيتهم وحدهم ؟ بمعنى هل القدس قضية سياسية فلسطينية ؟ أم انها بأقصاها المبارك وصخرتها المشرفة جزء لا يتجزأ من العقيدة الاسلامية والتاريخ العربي الاسلامي ؟ والمقصود انها قضية عربية اسلامية قبل أن تكون فلسطينية . والسؤال الذي يظل مطروحا وينتظر جوابه اذا كان هناك من مجيب : هل يعقل ان يترك الفلسطينيون وحدهم دون العالمين العربي والاسلامي في معترك النضال من اجل فلسطين وقدس التاريخ والعقيدة .

*) ان الفلسطينيين وهم يحيون ذكرى حزيران بما اعتادوا عليه من تضحيات وفداء واصرار على استرجاع الحق المشروع ، لا ينكرون ما يقدمه الاشقاء العرب ويعترفون بفضل كل من قدم للقضية . الا أن القضية الفلسطينية ، ومعها قضية القدس تحديدا لا ينبغي بأي حال من الاحوال ان تتحول الى قضية مساعدات انسانية واجتماعية رغم أهمية هذه المساعدات .

*) ان الفلسطينيين يعلمون يقينا ان بامكان العالمين العربي والاسلامي ان يفعلا أكثر بكثير مما فعلاه حتى الآن ، فلديهما الوسائل والامكانيات والموارد لذلك . وهما مطالبان وبخاصة العالم العربي بحد معقول من وحدة الصف والكلمة والهدف والعودة الى ثوابت القضية .

*) ان العالم العربي من خلال جامعته العربية وانظمته السياسية مطالب بأمرين هامين . أولهما أن يعيد قراءة النضال الفلسطيني بروح قومية ملتزمة ومن منطلق واحد وهو شرعيته وعدالته ، وان الفلسطينيين هم الضحية ولا يعقل مساواتهم مع الجلاد . واما الامر الثاني فهو على صعيد العلاقة مع الولايات المتحدة الاميركية ، والمطلوب هنا موقف واحد شجاع وصوت عربي قوي يسمعه البيت الابيض .

*) ويبقى السؤال الكبير الذي تردده الجماهير العربية ومعها الفلسطينيون : متى ستخلع أشهر السنة عنها أثواب احزانها وحدادها ونكباتها ومآسيها وذكرياتها الاليمة ، متى ستصبح أيام سوداء من نيسان وأيار وحزيران وايلول وغيرها شيئا من الماضي ، ومتى ستطل على العروبة وفلسطين سنوات تحمل أشهرها بعضا من الفرح والأمل ؟

حزيران ..الماضي الحاضر

❋) مر على حزيران 1967 خمسة وثلاثون عاما منذ أن دخل أجندة القضية الفلسطينية وشكل واحدا من أخطر مفترقاتها . وهو في حكم الزمن ماض ، الا أن هذا الماضي ما زال حاضرا حتى اللحظة الراهنة وعلى ما يبدو الى ما بعدها . واذا كان الخامس عشر من أيار 1948قد ألقى بظلاله القاتمة على الشعب الفلسطيني في الوطن والشتات ، فقد جاء حزيران بعد تسعة عشر عاما ليفرز تداعياته المستدامة على مجمل الحياة العربية ، ولتصبح أسيرتها بصورة أو بأخرى .

*) ان هذه الاعوام الخمسة والثلاثين من عمر القضية هي الأخطر على الاطلاق . فكثيرة هي افرازاتها على كافة صعد الصراع الفلسطيني الاسرائيلي بخاصة ، ويصعب الوقوف عند كل واحدة منها في هذه العجالة . الا أنه وبرغم هذا البحر المتلاطم من الاحداث في أكثر من اتجاه متعاكس ، فبالامكان الوقوف عند محطات معينة بحد ذاتها تركت بصماتها التي لا تمحي على مسيرة القضية الفلسطينية ومسارها .

*) في اعتقادنا أن المحطة الاولى كانت هي الاحتلال لبقية التراب الفلسطيني وما أحدثه ذلك من صدمة أيقظت الشعب الفلسطيني من اغماءة النكبة الاولى فأعادته الى بؤرة الحدث الذي يخصه وجها لوجه مع المحتل لأرضه التاريخية بعدما هيء للكثيرين أن هذا الشعب قد خرج من خارطة وطنه ، أو أنه تم تغييبه عنها تحت ظروف جغرافيات ومسميات فرضت عليه غداة نكبته الاولى في عام 1948 . وفي حقيقة الامر فقد كانت تسعةعشر عاما عجافا عاشها الشعب الفلسطيني على ما تبقى له من وطنه وفي منافي الشتات .

*) والمحطة الثانية تمثلت في ادراكه العميق لحتمية ادارة قضيته بنفسه في الدرجة الاولى غير متجاهل عمقه العربي . وانطلاقا من هذه المحطة انتقلت منظمة التحرير الفلسطينية التي تأسست في العام 1964 الى الصدارة لتأخذ مكانها المفترض أن تكون فيه آخذةعلى عاتقها مشروع تحرير الوطن من الاحتلال واستكمال الاستقلال واقامة الدولة اسوة بكل شعوب العالم التي قررت مصيرها بنفسها وتحررت . وحتى الآن كانت القضية عربية لها ثوابتها ولاءآتها القومية وآلياتهاالفاعلة ومنها المقاطعة العربية .

*) والمحطة الثالثة تمثلت في قصر نفس مشاركة العمق العربي لسبب أو لآخر . وقد ترجم هذا التوجه عدم استعداد الانظمة العربية وبخاصة ما سمي آنذاك بدول الطوق الاستمرار في لعب دور "هانوي القضية " في الوقوف مع النضال الفلسطيني المسلح ، ورفض البعض الآخر أصلا فتح حدوده أمام تبني أي شكل من أشكال المقاومة الفلسطينية . واستكمالا لسيناريو هذه المحطة فلا تزال مشاهد الصدام الدموي الفلسطيني العربي في أكثر من جغرافيا عربية تحتل مساحة من ذاكرة الذين عايشوا أحداثها وما زال الألم يعتصر جوارحهم حزنا وأسفا على ما آلت اليه من تمزق وفرقة ومزيد من التشتت بعيدا عن الوطن الأمر الذي فرض تراكمات من أعباء مسؤولية النضال على ابناء الوطن المقيمين فيه .

*) الا أن رفع الستار على مسلسل معاهدات السلام والتطبيع مع اسرائيل غداة حرب الخليج الثانية وحتى ما قبلها قد جرف القضية الفلسطينية بمجملها لتقف مذهولة عند المحطة الرابعة التي كانت أخطر المحطات حيث تساقطت الثوابت والمواقف واللاءآت والآليات العربية الواحدة تلو الاخرى والتي دون أدنى شك كانت تشكل الظهير والسند القوميين لها

*) لقد كانت هذه المحطة الرابعة ككرة الثلج المتدحرجة التي جرفت معها الأخضر واليابس فعرت القضية وجردتها من الكثير من سواترها القومية . وفي لحظات كثيرة وقف الشعب الفلسطيني وحيدا الا من رحمة ربه مذهولا لا يكاد يصدق هذا الصمت العربي المريب مستقرئا من خلاله معاني عمقت جراحاته وزادت من مساحة مأساته .

*) وبرغم الاجواء العربية والدولية المحبطة وتحديدا مواقف الولايات المتحدة المنحازة قلبا وقالبا لاسرائيل ، وفي ظل التعنت الاسرائيلي على الالتفاف على الحقوق الفلسطينية وانكارها جملة وتفصيلا ، كان لا بد للشعب الفلسطيني أن يشد رحاله الى المحطة الخامسة في رحلته الحزيرانية والتي تمثلت في انتفاضته الثانية التي نسبت الى الأقصى .

*) لم يكن أمام الشعب الفلسطيني الا الرد على التحديات التي استهدفت مجمل وجوده على أرضه التاريخية فخاض غمارها وحيدا في ظل مواقف عربية فقدت عنصر الوقوف القومي مضيئة النور الاخضر للحكومات الاسرائيلية

أيا كان لون طيفها السياسي لتصعيد ممارساتها المتمثلة في قضم الارض الفلسطينية والتوسعين الافقي والرأسي في عمليات الاستيطان ، والاصرار على رفض تطبيق القرارات الشرعية الخاصة بالحقوق الفلسطينية ، وفرض سلم بمقاسات ومواصفات اسرائيلية على الفلسطينيين يكون لأمنها فيه مكانة الصدارة والاولوية .

*) ويأتي حزيران الخامس والثلاثون هذه الايام في غمرة مسلسل الاجتياحات الاسرائيلية لكل ما هو فلسطيني . ولعل أبسط معاني هذا الاجتياح أنه حرب غير متكافئة تشن من طرف يملك كل شيء على طرف لا يملك الا اصراره على استعادة حقه والتضحية بالغالي والنفيس من أجله .

*) في حزيران الخامس والثلاثين وها هو السادس والثلاثون قد بدأت أولى أيامه ، تتأكد حقائق ثابتة على أرض الواقع اولاها أن الشعب الفلسطيني لا يمكن قهره الى الدرجة التي عندها ينسى ما له من حقوق ، كما لا يمكن كسر شوكته أواذلاله أو افقاده هذه المناعة المدهشة التي يواجه فيها أعتى التحديات وأشرسها . وعربيا فان سياسة التخلي عن كثير من الثوابت القومية وأبسط أشكال التضامن العربي ، والتشبث عن ضعف " بخيار السلام الاستراتيجي" ، ان كل ذلك قد أدخل الوطن العربي في مرحلة انعدام الوزن على كافة الصعد. واسرائيليا ، فان اسرائيل برغم هذا الجيش الجرار والترسانة الحربية المتفوقة والمتطورة وخوضها الحرب تلو الأخرى لم تستطع أن تحقق لحظة واحدة من لحظات الأمن والسلام - وهذا هو الانتصار الحقيقي – لها ولشعبها .

*) وخلاصة القول ان مسيرة الشعب الفلسطيني المريرة والشاقة عبر محطات أفرزتها خمسة وثلاثون حزيرانا ومن قبلها تسعة عشر أيارا لم تنل من صموده ورباطة جأشه واصراره على الهدف المتمثل في وضع حد نهائي لاحتلال وطنه وتحقيق منظومة أمانيه الاخرى ، وقد ظل صاحب نفس لا تقوى على اخماده أعتى التحديات واشرسها كونه تجذرت في جوارحه عقيدة متوارثة مفادها أنه صاحب حق مشروع .

*) واذا كان حزيران بالنسبة للشعب الفلسطيني يثير ذكريات مؤلمة وحزينة ، فهو بالتالي ما زال يشعر نارا مقدسة في أجياله ، واصرارا على استكمال المشوار مهما طال . وهو في نفس الوقت محطة يقف عندها كل عام يستخلص منها العبر المتمثلة بالتمسك بحقه مهما كان الثمن . والشعب الفلسطيني يتمنى أن تستخلص اسرائيل هي الاخرى العبر من مسيرتها الحزيرانية ، وأن تضع في كفتي ميزان المنطق والعقلانية خسائرها وأرباحها جراءها لتتأكد يقينا أيهما الارجح .

حقوق الانسان الفلسطيني

۞) قضية حقوق الانسان الفلسطيني ليست بالجديدة ، ذلك انها مرتبطة ارتباطا وثيقا لا انفصام له بتبعات النكبة الفلسطينية وكافة المسارات التي تفرعت عنها . وبمعنى اخر اقرب الى البساطة ـ لقد فقد الانسان الفلسطيني كافة اشكال حقوقه الانسانية جراء هذه النكبة التي ما فتئ المخططون المنفذون لها المعنيون بتكريسها على مدار نصف القرن ونيف يجردون هذا الانسان منها وفي حالات ينتهكونها واخرى يشوهونها ورابعة يتجاهلونها وخامسة ينكرونها عليه ولا يعترفون بها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من بؤس وحال مزرية . وكان الهدف ولا يزال من وراء ذلك كله يكمن في اجبار الفلسطينيين واكراههم على نسيانها والتعايش مع الظروف اللاإنسانية التي فرضت عليهم بهدف اطفاء صورة الوطن في ذاكرتهم الوطنية .

۞) وكثيرة هي المرات التي طرحت فيها هذه الحقوق على المحافل الدولية ، للنظر فيها وتصحيح اعوجاج المسار الذي فرض عليها ، كما انها ليست المرة الاولى ، ويبدو انها لن تكون الاخيرة التي تعترض اسرائيل من خلالها على مجرد بحثها او معرفة حقائق وضعها ، تؤيدها في ذلك حليفتها الولايات المتحدة الاميركية ، او انهما معا تعارضان اية قرارات هدفها رد بعض الاعتبارات الانسانية للفلسطينيين ، تارة بحجة الحفاظ على التوازن في السياسة الاميركية وعدم الاضرار به ، واخرى لعدم شرعية المطالبة وثالثة وهي الاخيرة في هذا المسلسل بحجة عدم تعكير اجواء التحرك نحو السلام الذي تقبل عليه المنطقة .

۞) وفي حقيقة الامر فان اثارة موضوع حقوق الانسان الفلسطيني في الاراضي الفلسطينية المحتلة كانت ولا تزال تشكل ارباكا وشعورا بعدم الراحة للسياسة الاسرائيلية الامر الذي دفع بساستها الى الضغط في كافة الاتجاهات والمحاور للالتفاف عليها وجعلها خارج اطار اهتمامات السياسة الدولية ، ذلك انها تفتح صفحات سوداء تكشف عن ممارسات غير انسانية في حق هذا الانسان . ومع ذلك فان الكثيرين في العالم يتخيلون هذه الصورة القاتمة التي باتت جلية يدركها القاصي والداني بفعل عوامل شتى ولم يعد هناك من سبب وراء تكرار محاولات معارضة مناقشتها دوليا الا الاصرار والعناد على النهج المتبع الذي درجت عليه إسرائيل .

۞) في ما يخص هذه الحقوق فان الفلسطينيين يعرفون ما يريدون ، وهم يناضلون بغية الوصول اليه ، فخارطة حقوقهم الانسانية مرسومة بدقة وعناية ، وهي لا تقل بأي شكل من الاشكال عن حقوق اية جماعة انسانية اخرى في التحرر والحرية والمساواة وحق تقرير المصير على ارضهم التاريخية وهم يدركون ايضا ان تحقيق الذات وهو حق شرعي لا يمكن ان يتم الا عبر منظومة حريات التعبير ، والتملك والارث والتوريث والبناء والاعمار والتنقل والحفاظ على المفاهيم والقيم والمثل الخاصة والتعامل مع الاخرين في اطار الاحترام المتبادل واخيرا لا اخرا حق الدفاع عن كل هذه الحقوق بشتى الوسائل المتاحة .

۞) الا ان المشكلة كانت ولا تزال تكمن في سياسات الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة يسارية كانت او يمينية او مختلطة ، وهي التي ما زالت تصر على تطبيق ممارسات تتنافى وابسط حقوق الانسان المتعارف عليها . ويبدو ان هذا النهج ثابت وليس آنيا طارئا ، وانما سياسة بدىء بتفعيلها منذ ان اقتلع الفلسطينيون من اراضيهم وديارهم واوطانهم بدءا بالغاء الصفة الوطنية عنهم كونها مرتبطة بوطن صودر منهم ، فاجتهدت هذه السياسات في تغيير اسمهم الانتمائي والسياسي والجغرافي فتارة تسميهم "عرب ارض اسرائيل" وثانية "سكان المناطق المدارة" وثالثة "سكان يهودا والسامرة" ، والصقت بهم صفة "الساكن المقيم المستأجر" ولم تنظر قط اليهم على انهم شعب او مواطنون لهم حق في وطن ، ونافية بذلك عنهم صفة المواطنة خشية ما يترتب عليها من حقوق واعتبارات .

۞) وما دام الحديث دائرا عن منظومة الحقوق الفلسطينية المصادرة ، فنحن هنا لا نجد ضيرا باستعراض بعض صور الاوضاع المأساوية الخاصة بحقوق الانسان التي يعيشها الانسان الفلسطيني فردا فردا لا فرق في ذلك بين شاب وكهل وامراة وطفل . ونضرب هنا مثالا على ما يرتكب في الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ العام 1967 ، من انتهاكات ، فالفلسطينيون لا ينسون مسلسل مصادرة حقوقهم وانتهاكها ولا ما تعرضوا له على الدوام واولاها استكمال احتلال بلادهم ووصف نضالاتهم المشروعة بانها عمل من اعمال التخريب والارهاب وانتفاضتهم بانها شغب وفوضى ، وان ايدي مناضليهم ملطخة بالدماء ... وجراء ذلك تعرض الشعب الفلسطيني الى سلسلة من العقوبات الجماعية قل ان تعرض شعب اخر لمثيلها في التاريخ ، وسوف تظل الذاكرة الفلسطينية تختزن الكثير .

وكيف يمكن لها ان تنسى ايام منع التجول المتوالية وما كان يحدث خلالها ، او انها تنسى الاغلاقات والحصارات والاطواق الداخلية والخارجية وطوابير الاذلال امام الدوائر الرسمية او في المعابر والجسور والاعتقالات الامنية والادارية ، واقتحام المدارس والجامعات والكليات ومصادرة الاراضي والتلال واقامة المستوطنات عليها وشق الطرق الالتفافية الخاصة بالمستوطنات ، وقطع الاشجار واتلاف المزروعات ، واذا كانت هذه الانتهاكات تتخذ لها مسارين هما انسانية الانسان من جهة والماديات من جهة اخرى ، فان حوادث اطلاق النار وسقوط الاف الشهداء والجرحى كانت تشكل مسارا ثالثا هو الاخطر كونها انتهاكا صارخا وحرمانا غير مبرر لحق الانسان الفلسطيني في الحياة . ان كل هذا وغيره الكثير يرسم في مجموعه صورة مزرية متردية لحقوق الانسان ايا كانت ولا ينطبق عليها الا وصف واحد انها تحت الصفر .

❁) وفي هذه الايام التي تم فيها انعقاد مؤتمر جنيف لبحث حقوق الانسان في الاراضي الفلسطينية ، وبرغم قصر فترة انعقاده الا انه اثبت شرعية التوجه الفلسطيني وأكد على مصداقية حرصه على حقوقه الانسانية . وفي نفس الوقت اظهر ان الاطراف المعارضة ما زالت تحكمها وتتحكم في ذهنيتها ذات الاهداف القديمة التي انطلقت منها قبل اكثر من نصف قرن . وما الخشية من ان مناقشة حقوق الانسان في الاراضي الفلسطينية يمكن ان تعكر اجواء السلام الا ضرب من التحايل ، وتهرب من المسؤولية والتفاف على السلام الحقيقي نفسه . فالحقوق الفلسطينية ليست محلا للمزايدة والمساومة عليها . وان الاقرار الدولي بأن الاراضي الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس تنطبق عليها اتفاقية جنيف الرابعة يحمل اكثر من معنى ومغزى ، وهو حق جديد مكتسب في اطار الشريعة الدولية . ويظل الانسان الفلسطيني هو الحصن الحصين والمدافع عن حقوقه الانسانية التي لم يفرط بذرة واحدة منها برغم كل عهود القهر والقمع في الوطن وجغرافيا شتات المنافي .

بريطانيا .. والدولة الفلسطينية

❋) التصريح الذي أدلى به مؤخرا رئيس الوزراء البريطاني في لقاء مع الصحفيين العرب في لندن وقال فيه " من حق الفلسطينيين ان ينعموا بمستقبل زاهر ينهي معاناتهم في اطار دولة خاصة بهم " ، هذا التصريح يأتي في مسلسل تصريحات في ذات الصدد سبقته . وهي في مضمونها تشكل اهتماما مفاجئا فيما يخص نكبة الشعب الفلسطيني . وهو وان جاء متأخرا جدا ، الا انه وبرغم هذا التأخير كان في الاتجاه الصحيح ، وخطوة اولى على الطريق التي كان على بريطانيا ان تسلكها قبل عشرات السنين .

*) وبداية فبريطانيا أدرى من غيرها بتاريخ القضية الفلسطينية ، ذلك انها ساهمت مساهمة عريضة بل ربما تكون احادية المساهمة فيما يخص هذه القضية التي رسمت قراراتها آنذاك خطوط كل السيناريوهات السياسية على اتجاهاتها المتعاكسة والتي ما زالت قائمة حتى اللحظة . والابرز فيها هذا السيناريو المأساوي على الجانب الفلسطيني والآخذ في الاتساع والتعمق من كل الاتجاهات والابعاد .

*) ونحن هنا لسنا بصدد محاكمة بريطانيا على ما اقترفته بحق الشعب الفلسطيني وبحق أرضه . فخطيئة الاجداد والآباء وزر لا يفترض ان يزره الابناء والاحفاد . ومع ذلك يظل هناك التزام اخلاقي وانساني هو الذي يفترض به ان يشكل روح الحضارة الانسانية الحقيقية التي تدعي الديموقراطيات الاوروبية وفي مقدمتها البريطانية كونها أقدمها وأعرقها انها تدين بها نصا وروحا . وهذا ما يأمله الشعب الفلسطيني من البريطانيين عبر حكومة صاحبة الجلالة البريطانية هذه الايام تجاه قضيتهم العادلة والتي دخلت في عقدها السادس .

*) وحقيقة الامر ان الفلسطينيين يرحبون بكل من يقف معهم ويدعم حقهم المشروع في استعادة وطنهم سواء كان ذلك بالقول او الفعل شريطة ان تكون هذه الوقفة صادرة عن قناعة توصل لها هؤلاء بعدالة القضية الفلسطينية وأحقية شعبها في ان يعيش كبقية شعوب العالم على أرضه . لكنهم في نفس الوقت ليسوا من السذاجة بحيث انهم تنطلي عليهم كل ألاعيب السياسة الدولية ومناوراتها التي اكتووا بنارها وما زالوا . وهم في نفس الوقت حذرون ولا يبنون قصورا في الهواء ، وهم أيضا كما يقول المثل الشعبي " لا يحسبون حتى يقبضوا ". وان أفضل ما يميزهم انهم ظلوا طوال هذه السنين العجاف متمسكين بحقهم وكان شعارهم تجاهه لا افراط ولا تفريط . وفيما يخص علاقتهم ببريطانيا ، فالفلسطينيون ينظرون لها على انها مدينة لهم ، ويأملون في قرارة انفسهم ان تسدهم بعض هذا الدين ، وهم يأملون ايضا ان تكون مبادرة رئيس وزرائها قد جاءت في هذا الاتجاه .

*) والفلسطينيون لا يطلبون المستحيل ، فهم لم يغيروا اهدافهم منذ اول يوم من أيام نكبتهم . فكما أوجد آباء البريطانيين الحاليين وأجدادهم دولة اسرائيل على جزء من أرض فلسطين جراء وعد بلفور وزير خارجيتهم آنذاك في العام 1917 ، والذي بدوره افرز النكبة الفلسطينية بكل تداعياتها وابعادها المأساوية الكارثية ، فان هذه الخطيئة التاريخية بحق الشعب الفلسطيني لا " يمحوها " او يخفف من وقعها الا " وعد بريطاني " جديد بقيام دولة فلسطينية على أرض فلسطين يجسد لهذا الشعب قدرا معقولا من تطلعاته ، ويساعده في تحقيق أهدافه الاخرى التي كفلتها له الشرعية الدولية . وبريطانيا تعلم علم اليقين ماهية هذه الاهداف من ألفها الى يائها وتعرف مدى مصداقيتها وشرعيتها ومشروعيتها .

*) وقد يقول قائل ان بريطانيا اليوم غير بريطانيا الامس . فبريطانيا التي كانت امبراطورية لا تغيب عنها الشمس ولا ينافسها أحد في صنع قرارها السياسي على صعيد العالم ، هذه الامبراطورية لم تعد قائمة ولم يعد قرارها له من الوزن الا القدر اليسير . وهذا صحيح الى حد كبير . ولكنها برغم ذلك وبحكم علاقاتها الاستراتيجية مع الولايات المتحدة الاميركية صاحبة القرار السياسي العالمي والعولمي ، وتلك العلاقات التي لها مع دول الاتحاد الاوروبي تستطيع ان تفعل الكثير ، وبخاصة ان الولايات المتحدة هي الاخرى قد بدأت وعلى لسان رئيسها تعزف على وتر الدولة الفلسطينية .

*) وسواء كانت النوايا صادقة ، او انها كانت قناعا يتستر على رؤى اخرى ، فان الشعب الفلسطيني في انتظار ان تخرج هذه التصريحات من اطارها اللفظي وان تترجم الى خطوات فعلية على أرض الواقع حتى يزول عنها أدنى انطباع من كونها تسخينا دبلوماسيا وانفعالا مؤقتا أفرزتهما الحاجة لكسب العالمين العربي والاسلامي على طريق التحالف الذي تبنيه الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا لمحاربة ما تسميانه الارهاب الدولي . وفي ذات

الوقت لا يستبعد الفلسطينيون ان تكون هذه التصريحات تحمل في ثناياها " حبوبا مهدئة " لهم وللشارع العربي حتى تصفو الاجواء للمتحالفين في افغانستان على كافة الصعد .
*) والشعب الفلسطيني منذ بداية الامر وحتى اللحظة الراهنة مرورا بكل ارهاصات القضية وتفاعلاتها وتداعياتها واتجاهاتها وتشعباتها على كافة الصعد كان ولا يزال يعتبر ان من حقه ان تكون له دولته على ارضه التاريخية وعاصمتها قدس أقداسه . وهذه الدولة يفترض ان تقوم على اسس جغرافية وديموغرافية . اما الجغرافية فهي الارض التي سحبت منه ويفترض ان تعود له بموجب قرارات الشرعية الدولية الصادرة عن الامم المتحدة ، وضمن اطارها دون سواها. واما الديموغرافية فالقضية ليست قضية جغرافيا او مجرد مسمى سياسي باسم دولة فحسب . فثمة ثلثا الشعب الفلسطيني ما زال منفيا خارج حدود وطنه التاريخي وهو يتوق للرجوع اليه. وهنا لا بد ان تكون هناك " مبادرة عادلة يرضى عنها " لتسوية هذه المشكلة الخطيرة . وساعتئذ يمكن القول ان بعض الحق قد عاد الى نصابه واصحابه . وهذا الحق اذا ما استعيد فهو كفيل باختزال كثيرمن بؤر العنف وعدم الاستقرار في العالم .
*) وخلاصة القول ان المطلوب من بريطانيا " وعد " باقامة دولة فلسطينية مواز للوعد الذي قطعته باقامة دولة يهودية في فلسطين ونفذته آنذاك بحذافيره . والفلسطينيون يدركون ان تصريح رئيس وزراء بريطانيا بخصوص الدولة الفلسطينية يظل مجرد تصريح تكتنفه الضبابية ، وما لم يتعمد الى ربطه بالقرارات الصادرة عن الشرعية الدولية والمؤيدة قيام هذه الدولة وعودة الحق لاصحابه . وما لم يتحرك بسرعة وبخاصة ان الشعب الفلسطيني يمر هذه الايام بالذات بمحنة قد تضيف الى مأساته ابعادا مأساوية جديدة . فاذا ما صدقت النوايا فان رئيس وزراء بريطانيا يعرف حق المعرفة ما عليه فعله . وخير البر عاجله.

حق العودة

❋) ترددت في الآونة الأخيرة أصوات إسرائيلية محدودة خافتة خجولة تجاهر لأول مرة في تاريخ القضية الفلسطينية بإمكانية إعادة عدد محدود من اللاجئين الفلسطينيين الذين تم تهجيرهم قسرا عن أوطانهم وأراضيهم وديارهم في العام 1948. وبغض النظر عن الدوافع التي تكمن وراء هذه الاصوات سواء كانت مجرد تفكير فردي غير ملزم ، او انها تهدف الى رش بعض السكر على المرارة التي افرزتها العملية السلمية حتى الآن والتي افترستها براثن الاستيطان والتعنت الاسرائيليين ، او انها مجرد عاطفة فردية عابرة لا تلبث ان تطويها الاحداث المتلاحقة في زحمة المتغيرات .ومهما تكن هذه الدوافع فان ثمة حقائق لا ينبغي ان تغفل عنها اسرائيل تخص قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين ما زالوا يعيشون في الشتات والمنافي على هوامش حياة الآخرين . وتتصدرها حقيقة ان التهجير القسري الذي مارسته اسرائيل بحق الفلسطينيين عشية قيامها وغداته ومحصلته كانت الاستيلاء على وطنهم وطردهم منه وبالتالي تكوّن مركز هزة النكبة الفلسطينية الانسانية التي استمرت توابعها وما زالت في كل الاتجاهات ، وجراءها كان الصراع العربي الاسرائيلي . وثانية هذه الحقائق ان التقادم لا يسري عليها كونها ما زالت قائمة وكون ضحاياها ما زال معظمهم احياء يحملون في جيوبهم مفاتيح دورهم ووثائق ملكيتها الشرعية "كواشين الطابو" ، واما الذين طواهم الردى ودفنوا في الشتات فقد ورث ابناؤهم عنهم هذه المفاتيح والكواشين ، وكونهم ايضا يشعرون انهم ضحايا ما زالوا يصرون على حق العودة الى وطنهم السليب الذي يشكل البنية التحتية للحلم الفلسطيني . وثمة حقيقة اخرى تتعلق بمسؤولية اسرائيل في كل الاتجاهات عن هذه النكبة وليدة التهجير القسري ، والتي رغم كل المحاولات التي بذلتها وتبذلها للتعتيم عليها او طمسها او الالتفاف عليها وتجاوزها لم تفلح ذهبت ادراج الرياح ، وزادت الاصرار الفلسطيني في الوطن والشتات في كل مرة على تصحيح مسار التاريخ الذي حرفته اسرائيل منذ ما يزيد عن نصف قرن وما تزال . ورابعة هذه الحقائق ان حق العودة وكل ما يخصه لا يمكن ان يجد له ارضا اخرى بديلة غير ذات الارض التي شهدت النكبة والتهجير ونبع منها مجمل القضية . وخامسة هذه الحقائق وهي بالتأكيد ليست الأخيرة ان اوهام التوطين التي تداعب مخيلات الاسرائيليين وتعشعش في اذهانهم تخصهم وحدهم ، ولا يمكن لها ان تجد ممرا آمنا في اية بقعة من بقاع الوطن العربي ، ناهيك عن كونها تجديدا وتحديثا للنكبة الفلسطينية وتكريسا لها بالتالي ، اضافة الى ان اسرائيل اذا ما كانت تريد السلام فعلا فان فلسطينيي الشتات والمنافي هم الارقام الصعبة في معادلة التسوية النهائية اذا ما كتب لها ان تكون .

❋) ان اسرائيل بشارعها وطيفها الحزبي السياسيين تتجنب ان تتطرق الى صميم المشكلة وتلف وتدور حول اطرافها . وهي حتى لو كانت وراء هذا البالون الاختباري فهي تعلم يقينا ان الفلسطينيين متمسكون بكامل حقوقهم ولا يطرحونها في اسواق المزايدات السياسية ، واذا كانت اسرائيل تفكر بسياسة المناقصات معهم كعادتها فهذا شأنها ، ذلك ان ما تطرحه على الدوام لا يمكن ان يغطي ولو جزءا يسيرا من منظومة الحقوق الفلسطينية الأخرى التي هي في ذمتها ، كون المطروح من قبلها لا يتناسب بأي حال من الأحوال وحجم المطالب والاستحقاقات الفلسطينية .

❋) ان اساس كل التحركات الخاصة بالعملية السلمية انها انطلقت عربيا وفلسطينيا من مبدأ الارض مقابل السلام . والتفسير المنطقي لهذا المبدأ هو تلازم مساري السلام وحق العودة ، واما المقصود بالأرض فهو الارض الفلسطينية قبل غيرها -ولا يعني هذا الاقلال من اهمية الاراضي العربية الاخرى وقداستها- وانه لا ارض ايا كانت يمكن ان تكون بديلا لها او تسد عنها ، بمعنى ان اراضي الدول العربية المحتلة هي ضمن المبدأ الاساسي وكذلك الأرض الفلسطينية على حد سواء . وليس هناك استثناء ايا كان شكله او صورته . وان عودة الأرض اذا تمت لا تعني بأي حال من الأحوال ان تكون مجردة خالية خاوية على عروشها ، وانما ان يعود لها الذين كانوا يعمرونها آنذاك . وعودة الأرض تعني ايضا ان يتمتع هؤلاء العائدون لها بحق اعمارها والاقامة عليها هم وابناؤهم ، وان يكون لهم هم وابناء جلدتهم حق اقامة النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والايديولوجي الذي يرتأونه تحقيقا لرؤاهم واحلامهم اسوة ببقية الشعوب المتحضرة ذات السيادة . وفي اعتقادنا ان هذا تفسير منطقي وعقلاني وموضوعي لمبدأ الارض مقابل السلام والذي تمتد جذوره الى القرار الدولي "194" الذي كفل حق العودة للاجئين الفلسطينيين .

❋) لكن التجربة الفلسطينية مع الاسرائيليين والتي تتراكم سلبياتها يوما بعد يوم ما زالت تفرز نوايا ليس لها رصيد من المصداقية والثبات وتتصف باجراءات وممارسات باطنها وظاهرها معا يرتكزان على اللف والدوران واللامبالاة وعدم الاكتراث ، والأخطر من ذلك كله تفضيل مسار على آخر ، ذلك ان اسرائيل في النهاية يهمها ان تعقد سلام تطبيع مع الأنظمة العربية على حساب القضية الفلسطينة التي تريد ان تجعلها شيئا من التاريخ والماضي . واسرائيل تريد ايضا ان تنفرد بالفلسطينيين وان تقود العملية السلمية في الاتجاه الذي تريده هي وان تكون هي المانحة والعاطية وصاحبة القراروالاختيار . وهي تريد ايضا ان تقزم القضية وان تلغي اخطر بعد من ابعادها يخص الشتات والمنافي وبلغة فلسطينية حق العودة . ان اسرائيل والحال هذه لا تريد ان تعترف بان السلام اساسه التراضي والقناعة التامة وهو منظومة اجراءات تقوم على المساواة بين اطرافه الذين يفترض ان يتعاقدوا عليه وبانه محكوم بتوازن دقيق بين كفتي ميزانه فلا استيفاء من قبل طرف على حساب طرف آخر ولا انقاص . والاستيفاء هنا هو الاستيلاء على الأرض والمقدرات والاستيطان بكل اشكاله . والانقاص هو الغاء حق العودة في الوطن والأرض لأولئك الذين ما زالوا ينتظرون في الشتات .

❋) وخلاصة القول اذا كانت اسرائيل تظن ان ملف اللاجئين قد اسدل الستار عليه ، وان الممثلين على خشبة مسرح الاحداث قد تفرقوا فهي مخطئة وهذه مشكلتها ، ذلك ان هذا الملف ما زال مفتوحا وصفحاته تزداد يوما بعد يوم . وان مسار أي سلام يستثني حق العودة ويلتف عليه هو مسار قصير النفس ، لاهث الخطوات ، وعر المسالك جم المهالك . فالسلام والحال هذه لا يمكن ضمان ديمومته ومصداقيته الا باخماد النار التي يمكن ان تأتي عليه من جذوره . وحق العودة وهو واسطة الحقوق الفلسطينية التي سلبت منه قسرا وتكمن فيه تلك النار .

القضية .. ومسؤولية بريطانيا

❋) حينما يذكر الفلسطينيون بريطانيا العظمى تتبادر الى اذهانهم القضية الفلسطينية بكل أبعادها وتداعياتها المأساوية التي تعود جذورها الى اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني من العام 1917 ، يوم أصدر وزير خارجية بريطانيا آنذاك اللورد بلفور وعده المشؤوم . ويومها كانت قوات الامبراطورية البريطانية المنتصرة في الحرب العالمية الاولى قد بدأت تدخل فلسطين لتعلن عليها انتدابها الذي استمر من العام 1918الى العام 1948 ، وتحديدا اليوم الخامس عشر من شهر أيار .

*) وعلى مدى ثلاثين عاما من انتدابها ، وظفت حكومة بريطانيا العظمى وعدها على أرض الواقع ، وترجمته الى حقيقة . فما ان أطل يوم الخامس عشر من أيار 1948 ، حتى كانت الدولة اليهودية قد اعلنت علىالجزء الأكبر من أرض فلسطين التاريخية . وفي المقابل تم اقتلاع مئات الآلاف من الفلسطينيين من وطنهم التاريخي وتدمير المساحة العظمى من تجمعاتهم السكنية ، لتقام على آثارها البلدات والمستوطنات اليهودية ، وليصبح جل هؤلاء الفلسطينيين شعبا مهجرا منفيا خارج حدود وطنه التاريخي . وهكذا أفرزت هذه القضية احدى اخطر افرازاتها متمثلة بالنكبة الفلسطينية التي ما زالت قائمة حتى الآن .

*) صحيح أن الزمن قد تقادم على هذه القضية ، الا أن مسؤولية بريطانيا عما حدث للشعب الفلسطيني من ويلات وكوارث ومآس ، لا يختلف عليها اثنان ، ولا يلغي هذه المسؤولية وما يفترض أن يترتب عليها . وبرغم ذلك كله فان أخطر ما ارتكبته بريطانيا انها غضت الطرف عما فعلته ، أو أنها بصحيح العبارة نفضت يدها من أية مسؤولية تجاه الشعب الذي شردته وتسببت في معاناته طوال عقود القرن العشرين المنصرم ولا تزال .

*) وفي هذه الايام بالذات ، وفي غمرة موجة الاجتياحات الاحتلالية التدميرية التي تقوم بها قوات الاحتلال الاسرائيلي في الاراضي الفلسطينية المحتلة سواء في القطاع أو الضفة ، يطلع علينا رئيس وزراء الحكومة العمالية البريطانية السيد " طوني بلير" بدعوته لعقد مؤتمر يفترض الفلسطينيون أنه مؤتمر دولي لبحث القضية الفلسطينية من جذورها بغية ايجاد حل عادل ومنصف لها ولشعبها الذي حاق به ظلم تاريخي جراء السياسات البريطانية الامبريالية .

*) الا أن المفاجأة الكبرى فيما يخص هذا المؤتمر تمثلث في ان السيد بلير في نطاق زيارته لاسرائيل والاراضي الفلسطينية قد أعلن أن الهدف من عقد هذا المؤتمر الذي تبين أنه مجرد اجتماع ليس أكثر – وقد قللت الصحف البريطانية من اهميته – هو " تأهيل الفلسطينيين للمفاوضات " ، ومساعدتهم على اجراء اصلاحات داخلية لها علاقة وثيقة بهذه المفاوضات . ولم يتطرق الى القضية الفلسطينية وتداعياتها ، فلا حديث عن انهاء الاحتلال أو حق العودة أو القدس أو الدولة أو اخلاء المستوطنات .

*) وحقيقة الامر أن السيد بلير قد قصد من هذا البالون الاعلامي امورا تخص مكانته السياسية التي اهتزت لدى الشارع السياسي البريطاني جراء الحرب غير المبررة على العراق . لقد أراد بالدعوة الى هذا الاجتماع أن يوهم من أراد ايهامهم أنه بامكان بريطانيا في عهده أن يكون لها وزن سياسي دولي ، وأنها قادرة على طرح المبادرات ، أو أنها على أقل تقدير لها سياستها الدولية المستقلة وليست تابعا يدور في فلك السياسة الاميركية .

*) وعند هذه النقطة الاخيرة بالذات ، فان السياسة البريطانية فيما يخص الشأن الفلسطيني تكاد تتطابق مع السياسة الاميركية المنحازة انحيازا تاما للتوجهات الاسرائيلية . وفي تصور الكثيرين أن بريطانيا لو شاءت فان لها من الوسائل والآليات والمكانة والنفوذ ما يمكنها أن تؤثر من خلالها على الساسة الاميركان .

*) لقد رفض كثير من قادة الرأي والشارع السياسي الفلسطينيين دعوة السيد بلير مؤكدين أن المطلوب ليس هو تأهيل الفلسطينيين ، وانما هو ايجاد حل عادل وتسوية مشرفة للقضية التي أوجدتها بريطانيا . وهذا حق للشعب الفلسطيني في أعناق الساسة البريطانيين لا منة ولا احسانا . انه التزام اخلاقي وقانوني وانساني تجاه ضحية من ضحايا السياسة البريطانية وان تقادم الزمن عليها .

*) أما الحديث عن تأهيل الفلسطينيين في هذا المجال أو ذاك ، فهم والعالم يشهد لهم شعب ذو كفاءات في شتى المجالات . والادمغة الفلسطينية سواء في الوطن أو في شتى بقاع العالم مشهود لها وتتمتع باحترام الجميع . ان

الفلسطينيين ليسوا قاصرين ولا هم بحاجة الى أوصياء عليهم . انهم يعرفون ماذا يريدون ، وهم قادرون على ايجاد حلول لمشكلاتهم الداخلية .
*) واستكمالا فان الفلسطينيين مؤهلون ومجربون ولديهم القدرات والطواقم البشرية ذات الكفاءة ، وهم علاوة على ذلك يريدون السلام من منطلق معرفتهم لما يريدون وتمسكهم بثوابتهم الوطنية ، بعكس الساسة الاسرائيليين الذي على ما يبدو أنهم هم الذين بحاجة الى دورات تأهيلية في مساق السلام والعملية التفاوضية .
*) وهذا لا يعني بأي شكل من الاشكال أن الفلسطينيين يرفضون مبدأ المشورة والمساعدة من الآخرين . الا أن هذه المساعدة أيا كان شكلها يفترض بها أن تعمل على تخفيف آلامهم ومعاناتهم ، والوقوف الى جانبهم وهم يسعون للتحرر من الاحتلال ومن افرازات نكبتهم التاريخية ، وذلك عبر الضغوط المستمرة على حكومتي اسرائيل والولايات المتحدة الاميركية بغية تحقيق مثل هذه الاهداف التي هي مشروعة ، كفلتها لهم الشرعية الدولية عبر قراراتها المتكررة التي ما زالت حبرا على ورق .
*) وخلاصة القول ان الفلسطينيين وقد حرموا طوال عقود طوال من الزمن وما زالوا من أبسط حقوقهم الانسانية والوطنية والسياسية جراء نكبتهم التي كان للسياسة البريطانية يد طولى في ايجادها ، يتوقعون من بريطانيا أن تعيد في العام 2005 قراءة القضية الفلسطينية قراءة تسودها روح العدالة والانصاف والحق والالتزام الاخلاقي ، وان تفعل شيئا حقيقيا لتكفر عن بعض خطيئتها وخطأها اثناء الانتداب البريطاني على فلسطين ، وهذا غيض من فيض ما يفترض أن تفعله بريطانيا تجاه الشعب الفلسطيني . وماعدا ذلك يكون اصرارا على تكريس النكبة وهروبا مقصودا من المسؤولية .

قراءة .. في ذكرى النكبة

❋) بداية لا بد من التذكير بأن النكبة الفلسطينية في العام 1948 هي التي افرزت القضية الفلسطينية . وحول هذين المسميين كان هناك على الدوام اختلاف في المنظورين العربي وغير العربي . فالمنظور الاسرائيلي وكل الجهات الدولية التي وقفت موقف المؤازر لاسرائيل ولا تزال امتنعت لحاجات في نفسها عن استخدام مصطلح النكبة وهي بذلك تدافع عن نفسها وتدفع عنها تهمة كونها سببا في نكبة الشعب الفلسطيني ، وتداعيات مأساته.
❋) وفي ما يخص مصطلح القضية الفلسطينية فهو الآخر لم تستخدمه اسرائيل لانها لا تريد البتة ان تقف عند مصطلح فيه ذكر للفلسطينيين الذين انكرت وجودهم منذ البداية والفلسطينيون الذين قامت بتهجيرهم الصقت بهم مسمى اللاجئين العرب . واما الذين ظلوا في أرضهم ووطنهم الاصلي تحت حكمها فهم في منظورها أناس ليس لهم انتماء وطني ، فأطلقت عليهم "عرب اسرائيل" وهو مسمى يحمل في طياته بعدين الاول نفي الهوية الفلسطينية عنهم ، والثاني التأكيد على انهم رعايا وليسوا مواطنين يتمتعون بمنظومة حقوق المواطنة بطبيعة الحال . وقد ارتأت اسرائيل مع الايام ان تطلق على القضية مسمى يبعد عنها شبح خطيئة مأساة اللاجئين الذين قامت بتهجيرهم . فاستخدمت مستغلة صراعها مع العرب مصطلح قضية الشرق الاوسط الناجمة عن الصراع العربي الاسرائيلي .
❋) وقد حرصت اسرائيل على استخدام هذين المصطلحين بعد كل سلسلة الحروب التي خاضتها مع العرب الى ان كان اول صلح لها مع نظام عربي اطلقت عليه مسمى "معاهدة السلام" . ولم تعد قضية الشرق الاوسط ولا الصراع العربي الاسرائيلي . وفي اعقاب مؤتمر مدريد استخدم مصطلح العملية السلمية . ولعل اعجب ما في الامر ان هذه المصطلحات كانت في كثير من الاحيان تستخدم دون اية تحفظات على السنة الساسة العرب وفي وسائل اعلامهم دون التبصر في معانيها الحقيقية او مدلولاتها من حيث المنظور الاسرائيلي .
❋) الا ان الشعب الفلسطيني لم يأبه لكل هذه التسميات والمسميات والمصطلحات وكان يعرف حقيقة مراميها . وظلت القضية بالنسبة له هي النكبة والمأساة والمنفى في الشتات ومنظومة الحقوق التي يصر عليها . وهي في نفس الوقت لم تحبطه وزادت وتيرة اصراره على النضال لاسترداد كافة حقوقه وفي مقدمتها حق العودة وتقرير المصير . وقد توج نضالاته هذه بانتفاضتين في العام 1987 ، وفي العام 2000 . ومرة اخرى ولغايات في نفس اسرائيل ومن يقف معها أطلقت مسمى اعمال العنف والارهاب على فعاليات انتفاضة الاقصى الحالية . فاسرائيل قد قامت بتأمين مساحة شاسعة من العمق العربي وتحييدها ، وبذلك استفردت بالشعب الفلسطيني بقصد حشره في زاوية حلبة الصراع وانزال الضربة القاضية فيه لتفرض عليه منظورها في الحل النهائي ، في ظل عجز وصمت على الصعيدين العربي والاسلامي ولامبالاة دولية وانسحاب اميركي مقصود .
❋) فيما يخص الانظمة العربية فقد اخذت مساهمتها في القضية الفلسطينية تتقلص شيئا فشيئا . وبات واضحا ان هذه الانظمة كانت واقعة تحت تأثير ضغطين الاول خارجي يتمثل في انقيادها شبه المطلق للسياسة الاميركية واما الثاني فهو انسحابها التدريجي من الساحة القومية الى التقوقع الاقليمي والغرق في محلياتها .
❋) وفي ذات السياق فان مؤتمرات القمة العربية التي عقدت على شرف القضية لم تعقد معظمها وبخاصة الاخيرة منها بمبادرة من هذه الانظمة بقدر ما هي عمليات التفاف هدفها امتصاص غضب الجماهير العربية وأقصى وتيرة من انفعال الشارع العربي . وليس أدل على هذا من القرارات الخجولة التي اصدرتها والتي اثبتت الأيام انها كانت بلا رصيد .
❋) وحقيقة الامر ان الانظمة العربية في آخر قمة لها في عمان العاصمة الاردنية في آذار 2001 قد رمت آخر سهم في جعبتها على ساحة القضية الفلسطينية . فبعض هذه الانظمة لم تعد تملك شيئا تقدمه للقضية وشعبها سوى ان تتحول من دور الشريك الحقيقي الملتزم بمواقف وثوابت ولاءآت ومحرمات تنازل عنها ، وبذلك فقد أي وزن فاعل حقيقي له . لكنها – ذرا للرماد في العيون – وايهاما لجماهيرها انها ما زالت على العهد انتقلت الى دور الوسيط المحايد والذي يفتقر الى كثير من مقومات الوساطة بين الاسرائيليين والفلسطينيين ، او الغيور على تهدئة

الاوضاع للرجوع الى مائدة العملية السلمية . واما البعض الآخر فاما انه مشارك وجداني واما انه مشاهد صامت . وهذا في اعتقادنا اقصى ما يمكن ان تحظى به القضية بعد الآن .
❋) اما في ما يخص الجماهير العربية فان الواقع الاقتصادي السيء في غالبية الاقطار العربية مضافا اليه ان فضاءآت المشهد السياسي الداخلي فيها ملبدة بغيوم الكبت والقمع والتسلط وفرض الرأي ومحاربة الرأي الآخر وانعدام حريات التعبير ، مضافا اليها الهموم الداخلية لكل نظام وسيطرة النزعات الاقليمية ان كل هذا يلقي بظلاله القاتمة على هذه الجماهير ويحد من تحركاتها . واذا كانت الايام الاولى للانتفاضة الفلسطينية الحالية قد شهدت تحركا جماهيريا عربيا واسعا من المحيط الى الخليج في انتفاضة عربية موازية ، فان هذه الجماهير قد خيم عليها الصمت واصيبت بالسكتة الانفعالية ، ولم تعد اقسى المشاهد واعنفها من الساحة الفلسطينية تحركها . ويخشى والحال هذه ان تتحول القضية الفلسطينية – لا سمح الله – الى قضية اجتماعية انسانية . وان ينتقل الاخوة من رديف حقيقي الى مشفق متعاطف لا يملك الا العون الانساني .
❋) وبعد ثلاث وخمسين عاما ، وفي الذكرى الاولى للنكبة في القرن الحادي والعشرين ، فان المشهد الفلسطيني وليد هذه النكبة يستعيد هذه الايام مشاهد شتى من تاريخها الاسود الذي لم تطو صفحاته بعد . فما زال المقيمون في المخيمات يقيمون فيها في كل اقطار الشتات ، ولكن هذه المرة وفي بدايات القرن الحادي والعشرين تضاف اليها خيام جديدة الا انها فوق اطلال بيوت اصحابها والذين يرفضون الرحيل بكل اصرار على الانزراع في أرض الوطن . ان النكبة الفلسطينية لم تنته بعد فصولها لقد ناضل شعبها وما زال امامه نضال طويل وتضحيات جسيمة . وهو هذه المرة – وان ذهب كل الذين يحبهم وبقي في الميدان وحده – يسعى بكل ما اوتي من قوة ان تكون نضالاته الحالية هي الفصل الأخير في مسلسل نكبته الانسانية .

الدولة الفلسطينية

❋) حينما احتلت بريطانيا في العام 1918 فلسطين التاريخية ، كان هناك شعب واحد يقطنها هو الشعب الفلسطيني الضاربة جذوره في اعماق تاريخها وترابها . وعلى مدى ثلاثين عاما من حكمها في اطار صك الانتداب البريطاني ، عاش هذا الشعب على أرضه ولم يكن لها الا اسم واحد ووحيد هو فلسطين .
*) وحينما أعلنت بريطانيا انها ستنهي انتدابها على فلسطين ، وحددت تاريخا لجلاء قواتها هو الخامس عشر من أيار 1948 ، كان من المفروض ان تمنح الشعب الفلسطيني الاستقلال ، وحق اقامة دولته الفلسطينية عليها ، وأن تعترف له بحق وراثة المؤسسات العامة التي أقامتها، كونه هو الشعب الذي وجدته عليها وحكمته خلال تلك المدة . الا أن بريطانيا لم تفعل ذلك ، وقامت بتسليم البلاد للمهاجرين اليهود القادمين من اوروبا الى فلسطين ليقيموا عليها دولة اخرى هي الدولة العبرية التي اعلنت بالتزامن مع جلاء القوات البريطانية في الخامس عشر من ايار 1948.
*) لقد كان هذا التاريخ هو الموعد المفترض لبداية التحرر الفلسطيني على أرضه التاريخية وهو تحرر يرافقه في العادة قيام دولة . وهذا ما حصل في كل من سوريا ولبنان يوم انتهى الانتداب الفرنسي عليهما ، وكذلك الحال مع الاردن والعراق اللتين كانتا خاضعتين للحكم البريطاني . الا أن الشعب الفلسطيني حلت به وبأرضه نكبة الاقتلاع من وطنه فلسطين الى منافي الشتات حاملا معه من جملة ما حمل في رحال تهجيره ، وفي مخزون ذاكرته الوطنية حلم العودة والدولة الذي يعني تصحيح مسار تاريخي ساهمت قوى عظمى في اعوجاجه ، واخراجه عن مداره الطبيعي .
*) الا أن هذا الحلم ظل حلما في ليل فلسطيني طال مداه ، واتسعت مساحة شجونه وأشجانه وأبعاد تحدياته . وبرغم هذا كله لم تتمكن كل العواصف والأعاصير أن تقتلعه من الذاكرة الوطنية التي أصبحت موروثا للأجيال الفلسطينية المتعاقبة التي عاشت قهر المعاناة وعذابات الحرمان في منافي الشتات والاغتراب ، وعلى هوامش ما تبقى من الوطن .

*) ومن هنا كانت الدولة الفلسطينية مقرونة بالحقوق التي سلبت من الشعب الفلسطيني واولاها الارض التاريخية التي أقام عليها منذ مئات السنين . وهي – وان كانت لا تزال حلما - دولة حقيقية غير منقوصة ومستوفية لكل الأسس التي تقوم عليها الدول الاخرى ، حتى تضمن لها البقاء وقدرا من احترام ابنائها لها الى جانب احترام الآخرين ، ولكي تكون قادرة على استيعاب كل المتغيرات الديموغرافية والاقتصادية وكافة اشكال التحديات الاخرى .

*) في العام 1964 ، قفزت فكرة الدولة من مجرد حلم في الذاكرة الفلسطينية الى مرحلة جديدة ، فأصبحت هدفا من أهداف منظمة التحرير الفلسطينية التي تأسست في هذا العام . وبطبيعة الحال فان الدولة أية دولة لا تكون الا بعد تحرير الأرض والانسان ، وهما عمادها . وهي من هذا المنطلق اطار سياسي اجتماعي اقتصادي ثقافي للانسان الفلسطيني سواء كان مقيما على أرض الوطن ، أو أنه كان في الشتات القسري . اذ ليس من المنطق والعدل أن ينقسم الفلسطينيون الى فئتين ، فئة تحظى بوطن ودولة ، وفئة وهي الغالبية العظمى لا تحظى بهما ، وتظل تعيش غريبة على هوامش دول وشعوب اخرى وعالة عليها تحمل في جوارحها غصة الحرمان ، وتصلى جحيم النفي والشتات .

*) لم يتنازل الفلسطينيون مرة واحدة عن هدف الدولة على أرض الوطن وان قبلوا بمبدأ تقاسم الارض الفلسطينية . الا أن اسرائيل ومعها الولايات المتحدة الاميركية كانت على الدوام ترفضان الاعتراف لا بالشعب الفلسطيني ، ولا بحق العودة الى أرضه ، ول حتى باحتلال هذه الأرض ، ناهيك عن عدم الاعتراف بحقه في اقامة دولته السيادية عليها . واسرائيل تنطلق من أن هذه الارض هي " أرض اسرائيل " وأن من يقيم عليها من غير اليهود أي الفلسطينيون هم " مقيمون أو سكان محليون " لا يحملون صفة المواطنة وهناك المتطرفون الذين يسعون الى ترحيلهم من ما تبقى من وطنهم .

*) صحيح أن الرئيس الاميركي " جورج بوش الابن " ولحاجة في نفس الادارة الاميركية قد أعلن في اعقاب احداث الحادي عشر من ايلول 2001 عن "رؤيا " بشأن دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل . الا أن هذه الدولة ، وان كانت ما زالت حتى اليوم في رحم الغيب تنطلق من منظور يختلف في شكله ومضمونه عن المنظور الفلسطيني لها .

*) فالدولة الفلسطينية في المنظور الاميركي هي " ميني دولة " أو أنها دويلة تعيش على هامش دولة " اسرائيل اليهودية " . وبلغة المحتوى فهي اختزال من الدرجة الثالثة للدولة الفلسطينية ، وتقزيم لكل الاستحقاقات المترتبة عليها ، وهي في النهاية الحل النهائي لهذه القضية . وبكلمات من اللغة الجيوسياسية ، فهي بديل مسخ يفتقر الى هوية انتمائية سيادية ، ولا تحظى بمجال رحب متواصل جغرافيا من جميع جهاتها ، كونها مزروعة وسط غابات استيطانية تشرف عليها من عل ، وتتحكم في ممراتها واتصالاتها ومواصلاتها ، وتطوق كل تجمعاتها السكانية ، اضافة الى كونها مولودة خارج رحم القضية .

*) أما الدولة الفلسطينية في المنظور الفلسطيني فهي وليدة شرعية ومشروعة للقضية الفلسطينية ، لا يشوبها أي تشويه في شكلها أو مضمونها . وهي بكل بساطة لا يمكن أن تتعايش مع احتلال ولا استيطان له نصيب الأسد في ترابها وهوائها ومائها وباقي مقدراتها .

*) وهذه الدولة لها حدودها ومعابرها وعاصمتها وهي القدس التي تحتضن أقدس المقدسات الاسلامية والتي كان الشعب الفلسطيني أمينا عليها طوال العصور . وهي دولة ذات تواصل جغرافي في كل الجهات وليس عبر ممرات ودهاليز أو جسور . انها دولة مستقلة ذات سيادة معترف بها من قبل جيرانها أيا كانوا ، اضافة الى اعتراف الشرعية الدولية ممثلة بالامم المتحدة .

*) الا أن الدولة الفلسطينية لها خصوصية اخرى تخص منظومة استحقاقات افرزتها نكبة الشعب الفلسطيني ومعاناته ممثلة بقضية اللاجئين الذين ما زالوا ينتظرون عودتهم الى اوطانهم وديارهم ، والذين ما زالوا يحتفظون " بكواشين " شرعية قانونية لممتلكاتهم ، ومفاتيح دورهم وبيوتهم . ان هذه الدولة تعني انهاء مسلسل الظلم التاريخي الذي حاق بالفلسطينيين ، والذي أفقدهم مساحة من انسانيتهم جيلا بعد جيل . وفي ذات السياق فثمة عودة اخرى الى الوطن والأهل والديار تتمثل بآلاف الأسرى القابعين خلف قضبان معتقلات الاحتلال .

*) ان الدولة الفلسطينية ليست مجرد اطار ينتظم جزءا من الشعب الفلسطيني .. والسلام . انها الخلاص من الاحتلال وحكم الآخرين ، انها صنع القرار الوطني ، انها الأمن والأمان والحماية ، انها الحق المشروع في ممارسة اسلوب الحياة الفلسطينية القائمة على توازن بين الموروث والمعاصرة . وهذه الاهداف لا يمكن لها أن

تترسخ دون لم الشتات وعودة أهل الدار الى الدار . ان الدولة الفلسطينية رد اعتبار وتعويض بسيط على ظلم تاريخي حاق بالفلسطينيين الذين بدون هذه الاهداف لا يكونون قادرين على السير في ركاب أية عملية سلمية ، أو أي سلام حقيقي سوف يتفيأ ظلاله كل من الشرق الأوسط والعالم .

في ضوء تصويت الجمعية العمومية مؤخرا لصالح العودة والقدس
الثوابت الفلسطينية .. هي الحل

❋) تزامن القراران اللذان اصدرتهما الجمعية العمومية التابعة للأمم المتحدة مؤخرا لصالح القضية الفلسطينية في ما يخص القدس واللاجئين مع طرح هزيل تقدمت به اسرائيل على لسان رئيس حكومتها يعد الفلسطينيين فيه بعشرة في المائة من أراضي الضفة الفلسطينية مع بعض التواصل في ما بين مدنها . ويأتي هذا الطرح الذي رفضه الفلسطينيون على الفور ضمن اقصى " ما جادت به " ، وضمن ما درجت تكرره على الدوام من شرط انهاء الجانب الفلسطيني لما تراه هي " اعمال عنف وارهاب " تمارس ضدها ، وكشرط مسبق لاستئناف العملية السلمية .

❋) وثمة فرق شاسع بين القرارين المذكورين والطرح الاسرائيلي . فالقراران الخاصان بالجمعية العمومية يضربان على اهم اوتار القضية وهما القدس واللاجئون . واذا ما اضيف اليهما القرارات السابقة للأمم المتحدة ومنها " 181 – 194-242-338 " وغيرها الكثير ، فانها بمجموعها تتقاطع في كل النقاط مع " الثوابت الفلسطينية " التي ارتآها الفلسطينيون لايجاد حل لمشكلة قضيتهم .ومن هنا فانها اكتسبت مظلة من الشرعية الدولية . وهي في ذات الوقت تنفض عنها غبار الاتهامات الظالمة والتي تصورها على انها غير مشروعة ، او انها خيالية ، او انها عدوانية تستهدف تدمير دولة اسرائيل .

❋) لقد أكد القرار الأول في ما يخص القدس على انها أرض محتلة . وهذا يعني ان كل القوانين التي طبقت عليها باطلة ولاغية . وان ما أقيم على ارضها او ضم اليها او أقتطع منها لا تنطبق عليه الشرعية الدولية ويناقض القانون الدولي . وفي ما يخص القرارالثاني بشأن اللاجئين فقد أكد على حقهم المشروع في العودة وتطبيق كل القرارات السابقة بهذا الخصوص. وجدير بالذكر ان التصويت على هذين القرارين كان باجماع كل دول العالم باستثناء اسرائيل والولايات المتحدة ، وامتناع ثلاث دول فقط عن التصويت .

❋) اما ما يخص الطرح الاسرائيلي ، فهو ما زال ينطلق من " منظومة لاءآت التحريم " التي تبناها اليمين واليسار الاسرائيليان اصلا ، قبل ان يتبناها أي رئيس حكومة اسرائيلي أيا كان لونه السياسي . وهذه اللاءآت تستثني القدس واللاجئين ، وتصادر كل الأماني الفلسطينية بالتحرر والحرية والاستقلال والدولة والعاصمة والحدود الدولية . وكذلك تحرم الفلسطينيين من التواصلين الداخلي والخارجي ، وتضع كل مقدراتهم في ايدي احتلال "مطلي بقشرة رقيقة من السلم الاسرائيلي " . وفي نفس الوقت فان اسرائيل تصر على اقتسام الضفة الفلسطينية والقطاع في تعايش مهدد باخطار التسرطن الاستيطاني . وكل هذه السيناريوهات تجري في اطار من التسويف والمماطلة والتجزيء والتقسيط الممل والاشتراط والتحكم تحت طائلة منظومة عقوبات جماعية ومظلة من النيران لا تعرف الرحمة درجت اسرائيل على تطبيقها على الشعب الفلسطيني، ولم تعد تخفى على القاصي قبل الداني

❋) وعلى خلفية كل ذلك فان الشعب الفلسطيني وقد قبل بالعملية السلمية برغم كل مراراتها وتضحياته وتنازلاته من أجل تسوية عادلة ، لم يعد يؤمن الا بحقه في ترجمة ثوابته الوطنية كاملة غير منقوصة . وهو من الذكاء والقدرة على التحمل والاصرار على المزيد من التضحيات بحيث انه يعرف ما يحاك له في الظلام ويشتم " رائحة السم في الدسم ". وهو ذو خبرة طويلة في النضالات على كافة الصعد . وذاكرته تختزن شريط القضية بكل فصولها وتداعياتها والمؤامرات التي حيكت بحقها ، والالتفافات التي فرضت عليها .

❋) وهذه الذاكرة ايضا تعي سجل تاريخ القضية صفحة صفحة وبالذات صفحة الوعود والطروحات والمشروعات والعروض والاقتراحات والمراحل والخطوات التي تفتقت عنها ذهنيات الجهات التي كتبت فصولها ومثلتها على أرض الواقع ، حتى أصبحت بحرا متلاطما من الافكار السوداء مساحته قرن كامل من الزمان المعاصر . الا أن شيئا واحدا كان ينقصها، وهي أنها كانت تفتقر الى أي عنصر من عناصر البقاء ، او القدرة على خداع الفلسطينيين

❋) والحقيقة ان هذه الأفكار أيا كان مسماها او مصطلحها السياسي أنها كانت في مجملها لا تتوخى ايجاد حل عادل وتسوية كريمة للشعب الفلسطيني الذي فقد جراءها كل وطنه ، وفقد بذلك كل شيء الا الاصرار على استرداد حقوقه رغم توالي السنين .

❋) فالوعود في غالبيتها كانت تفتقر الى الصدق والمصداقية . والطروحات كانت مشبوهة والمشروعات مبتورة . والاقتراحات غير منصفة تأخذ بعين الاعتبار مصالح طرف دون آخر. والعروض كانت مجزأة تفرض فرضا من اطراف تصر على أنها منتصرة الى الأبد ، وانها صاحبة القرار دون غيرها . وهذه وتلك كانتا تستثنيان الشعب الفلسطيني من ان يكون له الحق في تقرير مصيره أسوة ببقية الشعوب . ذلك أنه من منظور هذه الاطراف لا يوجد حتى ما يسمى بقضية فلسطينية ولا نكبة . واذا كان لا بد من تسمية فهي أزمة الشرق الاوسط ليس أكثر . وحين تحل مع الأنظمة العربية تنتهي هذه الأزمة ، ويصبح كل ما عداها شأنا ثانويا .

❋) وخلاصة القول ان الفلسطينيين حينما يرفضون مثل هذه الطروحات المشبوهة . فهم من ناحية تحضر ذاكرتهم ما أقرته لهم الشرعية الدولية عبر منظومة من القرارات التي ظلت حبرا على ورق جراء غطرسة القوة والتسلط . وفي نفس الوقت فان هذه الذاكرة ما زالت حية وواعية ومدركة لكل ما يدور حولها على ضوء تجاربها المريرة السابقة .

❋) والشعب الفلسطيني لا يمكن له ان يقتنع بأية اعتبارات أيا كانت تفرض عليه أو تجبره أو تكرهه أن يتقاسم ما تبقى له من هذا الوطن مع محتله ، او ان يتنازل له عن شبر واحد بعد الآن . فقد أثبتت الأيام والتجارب أنه ذو نفس طويل ، وأنه قادر على الصمود . وأنه بصموده لم يخسر شيئا . وأن الخسارة كل الخسارة وفقدان الأمن والسلام كانا من نصيب الذين ناصبوه العداء وفرضوا عليه الاستمرار في النضال

❋) ان الشعب الفلسطيني الذي تمرغ بين براثن الحرمان " وصام " ستة عقود من الزمان ، ذاق خلالها الأمرين . ان هذا الشعب لا يعقل " ان يفطر " على فتات مائدة العروض الهزيلة . وان منطق الاحداث ، والحكمة المستقاة من التجارب ، تؤكدان كما في كل مرة ان الثوابت الفلسطينية هي الحل . وما عداها حرث في البحر ، وهدر لسلام المنطقة والعالم .

القمتان .. والمشهد الأخير

❋) كان أقصر مؤتمر قمة وأسرعه ذاك الذي عقد مؤخرا في الثالث من حزيران 2003 ، في منتجع شرم الشيخ المصري ، وفي هوائه الطلق بحضور الرئيس الاميركي جورج بوش الأبن وخمس من قادة الدول العربية . وفي اليوم التالي كانت العقبة الاردنية تحتضن قمة رباعية فلسطينية اسرائيلية اردنية ، كان عرابها مرة اخرى الرئيس الاميركي ، وكانت هي الاخرى قمة قصيرة وسريعة . الا أن قصر المؤتمرات وسرعة ارفضاضها لها دلالتها ومغزاها . وهي هنا تؤكد بلا أدنى شك أن الولايات المتحدة الاميركية قد أعدت سلفا كل السيناريوهات للمشهد السياسي الأخير في العالم العربي بعامة وفلسطين بخاصة وذلك بعد احتلال العراق .

*) واستكمالا فان حضور رئيس الولايات المتحدة قمة مع دول ليست لها ذلك الوزن السياسي، فمما لا شك فيه أن هذه القمة ستنعدم فيها لغة الحوار وسيناريوهات الأخذ والرد والرخو والشد أو اللجوء الى التسويات المتوازنة والمتوازية . ان اميركا باعتبارها قطب القوة الاوحد بدون منازع لا ترضى بهذه السيناريوهات ، فهي التي تأمر وتنهى وعلى الآخرين أن يطيعوا ، وبخاصة اذا كانوا انظمة عربية .

*) والمكتوب يقرأ من عنوانه . فالولايات المتحدة ، ولحاجة باتت معروفة في نفسها ، دعت للقمتين من تريد واستثنت من تريد ، واختارت المكان والزمان ، ووسائل الأمن والأمان ، فلا سوريا ولا لبنان رغم انهما طرفان رئيسان في الصراع مع اسرائيل . وبرغم ان دولها تسير في فلك السياسة الاميركية ، الا أن الولايات المتحدة ايضا قد استثنت عمدا جامعة الدول العربية. والاعتقاد السائد أن هذا " الرمز العربي الوحدوي" الشكلي هو الآخر ليس له مكان في المشهد السياسي الاخير الذي ترسمه الولايات المتحدة ، تمهيدا - على الارجح – لتأسيس جامعة دول شرق اوسطية تكون بديلا لها ، وذات مواصفات أقدر على تلبية عصر السلم الاميركي " باكسا أميريكانا " .

*) فلسطينيا ، وهذا ما يهمنا في الدرجة الاولي ، وتحت ظلال هذا المشهد السياسي العام ، ثمة مشهد سياسي خاص أعد للقضية الفلسطينية عنوانه خارطة الطريق . أما نجماه الرئيسان في هاتين القمتين فهما الدولة الفلسطينية الموعودة ، والارهاب .

*) ولا أحد ينكر ما لمصطلح الدولة الفلسطينية من وقع وتأثير وبخاصة اذا جرى على ألسنة الاسرائيليين بعامة ورئيس وزرائهم شارون بخاصة . ذلك أن هذه الدولة في منظور الاسرائيليين شيء ، وفي منظور الفلسطينيين شيء آخر ، والمنظوران بعيدان عن بعضهما بعد السماء عن الأرض . وعلاوة على ذلك فان هذه الدولة ما زالت " نطفة في رحم الغيب " أو انها مجرد رؤيا لم تحدد الاسس التي ستقوم عليها من حيث الحدود والمساحة والعاصمة ومدى سيادتها الفعلية على ترابها وهوائها ومائها ومعابرها ، اضافة الى علاقاتها الخارجية
*) فيما يخص المنظور الاسرائيلي لهذه الدولة ، فثمة مثالا لا حصرا أمر خطير لافت للنظر لا ينبغي الا فهمه على حقيقته . فقد أشار رئيس الوزراء الاسرائيلي في معرض حديثه عن اسرائيل بصفتها " أرض الشعب اليهودي التاريخية " وحق هذا الشعب في الاستيطان أينما يشاء عليها ، أشار الى موضوع " التواصل الجغرافي " لهذه الدولة الفلسطينية . وبدون أدنى شك فهو يقصد بهذا التواصل ممرات بين مجموعة من المدن والقرى الفلسطينية تصلها ببعض. وبمعنى آخر وأقرب الى الدقة فهو يتخيل هذه الدولة وسط بحر من المستوطنات الاسرائيلية يعتبرها " قانونية " . والمحصلة أن الاحتلال الاسرائيلي يظل قائما ، وان مبدأ السلام مقابل الارض لاغ ، وأن قرارات الشرعية الدولية 242، 338 وغيرها لا تشكل منطلقا لأية تسوية .
*) لكن الأخطر من ذلك كله ما يندرج تحت ظلال تصريحات الرئيس الاميركي من أن تكون الدولة الفلسطينية الموعودة جنبا الى جنب مع " دولة اسرائيل اليهودية ". وهذا يعني بكل بساطة الغاء حق العودة وتقزيم القضية الفلسطينية ، أو بمعنى أدق افراغها من كل مركباتها الاساسية ، وبخاصة اذا اضيف الى هذا التصريح الاميركي الاصرار الاسرائيلي على عدم تفكيك المستوطنات والاحتفاظ بالقدس عاصمة أبدية وعدم الاعتراف بحق العودة أو مجرد التفكير في اطلاق سراح الأسرى .
*) أما النجم الثاني في هاتين القمتين فكان ما يسميه الاميركيون والاسرائيليون " بالارهاب الفلسطيني " الذي هو من منظورهما المشترك حلقة في سلسلة " الارهاب العالمي " . لقد كان من المفترض أن تنطلق هاتان القمتان من الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية وأن تقفا مليا عند افرازات النكبة الفلسطينية والاستحقاقات والحقوق المترتبة عليها دون أي اغفال لمعاناة الشعب الفلسطيني على خلفية اقتلاعه من أرضه التاريخية . الا أن الولايات المتحدة الاميركية انطلقت مما تسميه هي وحليفتها اسرائيل ارهابا .
*) ان الولايات المتحدة الاميركية قد اتخذت مدخلا لهاتين القمتين مما تسميه هي وحليفتها اسرائيل ارهابا ، ولم تنطلق من الاحتلال الاسرائيلي ، ذلك ان حال الحليفين واحد . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل من المعقول أن تتحدث الولايات المتحدة عن الاحتلال وهي في ظرف عام واحد احتلت قطرين مستقلين هما أفغانستان والعراق ؟ . انها لو فعلت فهي بدون شك ستكون محرجة أمام حليفتها اسرائيل وتكون في حقيقة الأمر كمن ينهى عن خلق ويأتي مثله .
*) ولا يتوقف الحديث عن الارهاب دون التطرق الى العزف على أوتار " التحريض " الذي كان له حضور على أجندة القمتين كمقدمة على ما يبدو لفتح الملف الثقافي الابداعي ، وملف المناهج التربوية اضافة الى الملف الاعلامي . والهدف واضح هنا يتمثل في " عمليات حذف واضافة " في هذه الملفات بما يتناسب والمشهد السياسي الذي رسمته الولايات المتحدة للمرحلة القادمة ، دون أي اعتبار لانتماءآت قومية أو عقائدية أو موروثات ثقافية . والسؤال : هل تلوح في الافق بوادر خريطة طريق ثقافية تربوية للمنطقة العربية ؟
*) لقد وقعت القضية الفلسطينية مرة اخرى ضحية العديد منس المتغيرات على الساحتين العربية والدولية . وها هي هذه الايام قد حشرت في زاوية التخاذل العربي والتخلي التام عن الثوابت واتخاذ مواقف لا يرضى عنها الفلسطينيون ، لتقف هذه القضية وحيدة في وجه قوة لا تعرف الحق ولا الرحمة ، تريد أن تعيد عقارب الساعة الى زمن الاستعمار الأول تحت ظلال توأمة أهداف الهيمنة الاميركية والاسرائيلية .
*) وخلاصة القول ان هذا المشهد السياسي الذي رفعت الولايات المتحدة الستار عنه في القمتين المذكورتين أمام أنظار العالم بعامة والعالم العربي بخاصة يمثل فصلا آخر من فصول الظلم للشعب الفلسطيني ، ويضيف الى معاناته أعباء كثيرة ، وتحديات اخرى خطيرة ، أقلها أن النفق طويل ، وان بصيص النور ما زال بعيدا ، ولكن الشعب الفلسطيني ما زال قادرا برغم كل ذلك على الوقوف والرفض والتصدي الى أن يشاء الله له التحرر والحرية

شارون .. في عامه الأول

❋) في الثامن من شهر شباط من العام المنصرم "2001" اعتلى سدة الرئاسة الاسرائيلية الجنرال شارون منتصرا بذلك على خصمه الجنرال باراك الذي ترأس الحكومة الاسرائيلية لفترة قصيرة من الزمن لم يصمد خلالها جراء تداعيات الاحداث في الضفة والقطاع الفلسطينيين وما أفرزته انتفاضة الاقصى من أعباء ناءت بحملها حكومته .

*) وباعتباره قائدا عسكريا فان الجنرال شارون له بصماته على أحداث المنطقة بدءا بالعام 1973 حينما حقق انجازا ما في حرب رمضان من ذلك العام . ولكنه في الذاكرة الفلسطينية يرتبط اسمه باجتياح الاراضي اللبنانية وحصار بيروت في العام 1982 وما اعقبه من أحداث دامية تمثلت في مجزرتي صبرا وشاتيلا . وها هو في العام 2001 يعود رئيسا لحكومة اسرائيل مستندا الى قاعدة حزبية يمينية متطرفة ليخوض معترك جبهة انتفاضة الاقصى التي أعيت سلفه ، وعلىما يبدو انها أثقلت كاهله .

*) وفي هذه الايام بالذات وقد انقضى عامه الاول في الحكم ، فلا بد من اطلالة على "منجزاته " خلال هذه الفترة . بداية فان شارون هذا لم يكن رئيس حكومة بقدر ما كان قائدا عسكريا ينظر الى الامور من خلال منظور عسكري قتالي ليس الا . ولا غرابة في ذلك فهو قد وعد ناخبيه في أيامه الاولى ان يصفي الانتفاضة في مائة يوم وحشد لذلك أقصى ما يمكن له أن يحشد . الا انه اصطدم بكل تداعيات القضية الفلسطينية وافرازاتها دون أن يكون له برنامج سياسي لايجاد حل لهذه القضية المستعصية غير استخدام مفرط للقوة فاق حد التصور.وكأنه وهذه حقيقة كان يريد من خلال هذه القوة أن ينهي القضية التي عجز اسلافه عن انهائها أو تغيير مساراتها أو تقزيم أبعادها أو تفكيك ثوابتها وتحييدها وذلك من خلال ضربة قاضية كما كان يتصور . وهو يهدف بذلك أيضا الى رسم خريطة شرق أوسط يتفيأ ظلال سلم اسرائيلي ذي فضاء اميركي .

*) ولدى استقراء أيام العام الشاروني الأول يوما يوما فان المحصلة الحقيقية التي يفرزها هذا الاستقراء انه فشل فشلا ذريعا في تحقيق أدنى حد مما وعد به نفسه وناخبيه باستثناء سيناريوهاته الحربية القائمة أصلا على حصار الفلسطينيين وتقطيع أوصال بلادهم والاغلاق عليهم والتدمير التصعيدي لبنية دولتهم العتيدة وذلك في اطار ممنهج لعمليات الاغارة والاجتياح والاغتيال التي لم تعط أية ثمرة اللهم الا انها عقدت الامور وزادت طينته بلة .

*) ولعل الانجاز الوحيد للجنرال شارون أنه ركب موجة تداعيات الحادي عشر من أيلول للعام 2001 واستغلها لصالحه أيما استغلال . وكعادة الساسة الاسرائيليين في تقليد النموذج الاميركي واتخاذه مرجعية أخيرة أيا كان ، فقد رسم شارون سيناريو خاصا به من وحي الحرب التي تخوضها الولايات المتحدة الاميركية ضد ما تسميه بالارهاب . فأعلن أن النضالات الفلسطينية هي ارهاب ، وان الفلسطينيين هم في معسكر الارهاب الذي يفترض ان تحاربه الولايات المتحدة .

*) وفي ذات السياق وعلى الصعيد الاميركي فان شارون قد نجح نجاحا لا نظير له في استثمار العلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة وايصالها الى ذروة من التناغم والترابط والتلاحم لم تبلغها في أي وقت من الاوقات ومنذ قيام اسرائيل . وعلى خلفية هذا فان المشهد الاميركي جراء هذا الانجاز يعكس صورة فريدة للتوحد في الاتجاه والهدف والمشاركة بين اسرائيل والولايات المتحدة الاميركية .

*) واستكمالا لهذا الانجاز الشاروني على الصعيد الاميركي فقد ألقت السياسة الاميركية الخارجية بظلالها القاتمة الثقيلة على الانظمة العربية التي خمد صوتها فجأة ولزمت الصمت المطبق ازاء ما يحدث في الاراضي الفلسطينية من انتهاكات مستمرة متصاعدة الوتيرة لأبسط حقوق الفلسطينيين في الحياة .

*) وهذان هما الانجازان الوحيدان خلال العام الأول لحكومة شارون . وهما يشكلان الدافع الرئيس لتماديه في ممارساته ضد الفلسطينيين رئيسا وشعبا وأرضا ومقدرات . وبرغم ذلك فان هذين الانجازين لم يمكناه من تحقيق أي وعد بالأمن الذي كرس له كل الطاقات وحشد له كل الامكانيات .

*) الا أن اللافت للانتباه أن المشهد الكلي للعام الأول لحكم شارون يعكس صورا اخرى لافرازات سياسته في عقر داره . فالى ما قبل هذا العام القت السياسات الاسرائيلية بظلالها القاتمة وبأثقالها على مجمل الحياة الفلسطينية التي أخذت شيئا فشيئا تستوعب محصلتها من التحديات وتمتص صدماتها الى أن أصبحت تتمتع بدرجة عالية من

المناعة والاستعداد النفسي لتوقع الأسوأ . يضاف الى كل ذلك أن الشارع الاسرائيلي أخذ هو الآخر يعاني الأمرين جراءها .
*) وربما يكون المشهد الاسرائيلي أكثر حساسية وتأثرا من نظيره الفلسطيني . ان جولة في الصحافة الاسرائيلية اليومية على اختلاف الوان طيفها السياسي تعكس حالة من القلق والخوف وانعدام الحد الأدنى من الشعور بالأمن لدى الشارع الاسرائيلي . واذا ما اضيف الى هذه العناصر حالات الانهيار الاقتصادي وازدياد معدلات البطالة وتراجع الدخل وبخاصة في قطاع السياحة الأكثر تضررا فان المشهد يصبح قاتما ويبعث على كآبة واحباط لم يعرفهما هذا الشارع من قبل .
*) ان شارون وهو يودع عامه الأول في الرئاسة ويستقبل عامه الثاني لا يبدو انه استخلص العبر من افرازات سياسته على أكثر من صعيد . وهو على الارجح ماض بها الى آخر الشوط وبأي ثمن . ولكنه اذا كان قد استهل عامه الأول وهو يظن نفسه واثقا من تحقيق أهدافه ، فهو في عامه الثاني يواجه المزيد من التحديات على صعد شتى داخلية وفلسطينية وخارجية .
*) فعلى الصعيد الداخلي الاسرائيلي فكما يبدو أن شعبيته آخذة في التراجع مع تزايد الشعور الاسرائيلي العام بان تصعيد العمليات العسكرية التي يقوم بها لا تسهم في تهدئة الاوضاع بل تزيد من تفاقمها . واما على الصعيد الفلسطيني فان الفلسطينيين دون أدنى ريب قد استوعبوا كافة اشكال الممارسات العسكرية وصمدوا حيالها ، فلم يعد ثمة ما يخسرونه أكثر مما خسروا حتى الآن . واما على الصعيد الخارجي فثمة رفض دولي متزايد لسياساته وبخاصة المواقف الاخيرة التي أعرب عنها الاتحاد الاوروبي والتي أدانت كثيرا من هذه الممارسات بل انها تجاوزتها الى توجيه النقد اللاذع للسياسة الاميركية التي يتفيأ شارون ظلالها .
*) الا أن التحدي الاكبر لشارون يأتي من حلفائه الاميركان الذين قالوا بكل وضوح انهم يرفضون أي بديل للقيادة الحالية الفلسطينية ولرئيسها المنتخب شرعيا . ولا يخفى على أحد أن من أهداف شارون الرئيسة تصفية هذه القيادة ورئيسها والاتيان بقيادة حسب مواصفاته ومقاييس السياسة الاسرائيلية .
*) ان العام الثاني من رئاسة شارون يحمل الكثير من التحديات له ولحكومته وأولاها وأخطرها صمود جبهة الشعب الفلسطيني وعدم تمكنه من اختراقها وقدرة هذا الشعب على امتصاص الضربات أيا كان حجمها ، اضافة الى أنه ما زال مصرا على ثوابته حيال قضيته والمتمثلة بانهاء الاحتلال وعدم تنازله عن حقوقه المشروعة ، وحقه الأكيد في دولته المستقلة ذات السيادة وعاصمتها القدس . وان غدا لناظره قريب .

شارون .. مناورة أم تحول؟

❋) التصريح المفاجيء الذي أدلى به مؤخرا رئيس الحكومة الاسرائيلية امام المؤتمر اليهودي العالمي حول استعداده لمفاوضة الفلسطينيين ، وانه سيقود هذه المفاوضات بنفسه ، هذا التصريح يمكن قراءة سطوره وما بين سطوره باتجاهات متعاكسة تحمل طابع الحذر الشديد فيما يمكن استنباطه من هذه القراءة .

*) وبداية لا بد من الاستهلال بالقاء الضوء على الاجواء السائدة لتصريحه هذا . فاول مشهد يفرض نفسه يتمثل في اعادة احتلال عدد من المدن الفلسطينية ما زالت القوات الاسرائيلية بامر شخصي منه ترفض الانسحاب منها . واستكمالا لهذا المشهد الدرامي المأساوي المتجدد ,والمتبوع "بملاحق احتلالية " هنا وهناك من الاراضي الفلسطينية تتجدد عمليات الاغتيال المعلنة للكوادر النضالية الفلسطينية متزامنة مع عمليات اعتقال اخرى لمناضلين فلسطينيين . وهذا المشهد لا يقف عند هذا الحد ولا يكتمل الا باضافة فعاليات الخيار الاحتلالي المستدام اليه والمتمثلة بالاغلاقات والحصارات والاطواق الأمر الذي أحال معه كل التجمعات السكانية الفلسطينية الى معتقلات تفتقر الى كثير من الشروط الانسانية الأولية المفترض وجودها .

*) وهذا بطبيعة الحال ، ومن منطق الاحداث يطرح التساؤل الكبير حول هذا التصريح الشاروني فيما اذا كن تحولا املته المعطيات الميدانية والظروف الدولية ، ام انه مجرد مناورة سياسية يحاول من خلالها تطويق ازمات يمكن حدوثها مع الولايات المتحدة الاميركية او الاوروبيين .

*) وقد يتساءل المرء : هل من قبيل الصدفة صدور هذا التصريح في أعقاب المكالمة التي تلقاها شارون من وزير خارجية الولايات المتحدة والتي على ما يبدو انه أبدى " انزعاجه " لتجدد عمليات الاغتيالات والاصرار على استمرار احتلال المدن الفلسطينية ؟ . وهل من قبيل الصدفة ايضا ان هذا التصريح قد جاء قبل ساعات من زيارة رئيس وزراء بريطانيا الى كل من سوريا والاردن والسعودية واسرائيل وفلسطين ؟ ولا يخفى على أحد ان رئيس وزراء بريطانيا وكذلك الرئيس الامريكي "منزعجان" من سلوكات شارون . التي تهدد بانفراط عقد التحالف الذي تلهث وراءه السياسة الاميركية لمحاربة ما تسميه بالارهاب الدولي .

*) وقبل هذا وذاك فثمة اعتبارات وضرورات من منظور شارون تدفعه الى تمهيد الطريق وتنقية الاجواء المتعكرة والغائمة قبيل زيارته المرتقبة الى الولايات المتحدة ولقائه مع الرئيس الاميركي . وبطبيعة الحال فان تبييض صفحته وتنقيتها لدى المؤتمر اليهودي الذي اعلن هذا التصريح أمامه تأتي في سياق استعداده لزيارة الولايات المتحدة وطلب دعم اللوبيات اليهودية الضاغطة لمواجهة الادارة الاميركية تأييدا لخياره الحالي القائم أساسا على الاستخدام المفرط للقوة العسكرية .

*) الا أن علامة الاستفهام الكبرى حول هذا التصريح لا تخص الاجواء ، ولا فيما اذا كانت مجرد مناورة ام انه تحول الى اتجاه غير الذي سلكه شارون حتى الآن ، بقدر ما تخص ماهية رؤيته للمفاوضات مع الفلسطينيين ومنظوره تجاهها . فحتى الآن ودون أدنى ذرة شك فان رئيس الحكومة الاسرائيلية اليمينية الحالية ليس له من الخيارات الا الخيار العسكري والاحتلالي القائم على تكريس القوة وفرض التسوية الاستسلامية التي يريد ان يمليها على الفلسطينيين . وسياسته خالية الوفاض من أي برنامج سياسي لأية تسوية ما .

*) واضافة الى كل هذا وذاك فقد رسم خطوطا حمراء حرم على نفسه بموجبها الالتقاء بأعلى مستوى قيادي فلسطيني ، ووضع قيودا صارمة على تحركات وزير خارجيته بخصوص لقاءاته مع القيادات الفلسطينية . وبمعنى آخر منعه من ان يخوض محادثات سياسية أيا كانت مع هذه القيادات ، وقصرها على نواح أمنية ليس الا .

*) والسؤال العريض الذي يفرض نفسه هنا ويتفرع الى عدة اسئلة تابعة يدور حول ماهية برنامجه السياسي الذي سوف يتفاوض عليه مع الفلسطينيين اذا كان لديه حقا برنامج ، ومع من سيتفاوض ، وعلى ماذا سيتفاوض ؟ . ولا تقف الاسئلة عند هذه الحدود اذ لا بد من التنويه باشاراته الحمراء التي يقف عندها ، او تلك الخضراء التي ستسمح له بالمرور والعبور ولا بد من طرح سؤال حول مدى معرفته المسبقة للرؤية الفلسطينية للحل الدائم ، وتحديدا قراءته للقرارات الصادرة عن الامم المتحدة وبخاصة القرارات " 181-242-338 " وغيرها . وثمة أسئلة عديدة تخص القدس واللاجئين والشكل النهائي للدولة وغيرها الكثير .

*) فلسطينيا فمن المفترض ان لا فرق بين شارون وغيره في قيادة المفاوضات من الجانب الاسرائيلي . وبغض النظر عن تاريخه الدموي وعداوته للعرب بعامة وللفلسطينيين بخاصة فان السلام يفترض به ان يكون " تصالح

الاعداء" ومن المعتقد ان الفلسطينيين هذه المرة وفي حال ان كتب للمفاوضات ان تأخذ مكانها على أرض الواقع ان يكونوا قد استوعبوا الدرس والا يقعوا فريسة المماطلات والتسويفات والتأجيلات والتفسيرات الخاصة والتفريعات واضاعة الوقت على " الشؤون المرحلية " .

*) أما بالنسبة لشارون فانه اذا كان جادا فعليه أن يقرأ بعناية المنظور الفلسطيني للتسوية النهائية ويقف عند خطوط الرؤيا الحمراء للتسوية الفلسطينية التي حافظ عليها الفلسطينيون طوال ما ينوف عن اربعة وخمسين عاما هي عمر نكبتهم حتى الآن ، وضحوا من أجلها بالغالي والنفيس .

*) وخلاصة القول وعلى فرض اجراء هذه المفاوضات فان الاهداف الفلسطينية الاستراتيجية واضحة ويفترض الخوض فيها مباشرة دون لف أو دوران . وكما يقول المثل العربي "يقرأ المكتوب من عنوانه " . والمكتوب هنا هو النوايا الاسرائيلية مختزلة في تصريحات شارون فيما اذا كانت جادة ومتوازنة وعقلانية او غير ذلك . وحتى لا يكون هناك هدر للوقت واتلاف للاعصاب ودوران في الفراغ فانه يفترض لأية مفاوضات ان يكون لها جدول زمني ، وقاعدة صلبة من الرؤى المتعارف عليها مسبقا ، وان يكون لها مدى زمني معين ، وان تتمتع بحماية مظلة دولية تمثلها الشرعية الدولية بكل قراراتها السابقة ، وذلك حتى يكون لهذه المفاوضات قدر معقول من المصداقية . والأيام القادمة بكل احداثها وتداعياتها وتفاعلاتها كفيلة وحدها ان تحدد فيما اذا كان هذا " التصريح التفاوضي " مجرد مناورة كما هو المعتاد، ام انه تحول ايجابي .

التراث الفلسطيني

❋) ثمة حقائق نود ان نستهل بها حديثنا عن التراث الفلسطيني في غمرة الاحتفاء به هذه الايام وايلائه مزيدا من الرعاية والاهتمام . فهذا التراث ليس اكتشافا حديثا ولا هو مجرد "صرعة عصرية" نقلد بها الآخرين ، ولا أي شيء من هذا وذاك سوى انه "ارشيف حياة" عاشها الاجداد والآباء على هذه الارض التي نفحوها اقصى ما لديهم من طاقات عمل وتفكير وابداع . فاستحقوا هم واحفادهم من بعدهم الحياة على ترابها . فالتراث الفلسطيني شأنه شأن كثير من القضايا الثقافية يحتل مساحة مرموقة من الذاكرة الفلسطينية ، وهي بكل تأكيد لم تلتف عليه في مجمل المسيرة النضالية ، بل انه شكل لدى ورثته دافعا انسانيا استقر في اللاشعور وهم يغذون الخطى على طريق عودة ظهورهم على خارطة الوجود والابداع الانسايين .

❋) واذا كان هناك من مبرر سابق لعدم ايلاء التراث الفلسطيني درجة من الاولوية يستحقها ، او انزاله المكان اللائق به ، فلكون الشعب الفلسطيني عبر مساحة عريضة من الزمن كان يخوض غمار نضالات اخرى تحت ظلال احزانه وتوابع هزة نكبته الرئيسة عام 1948 ، مضافا اليها بيئات المنافي شبه القاتلة التي فرضت عليه ، ومع ذلك فها هو شيئا فشيئا يصحو من نكبته على كل مقومات حياته ووجوده ومن اولاها التراث .

❋) تعود اهمية التراث الفلسطيني من انه الوثيقة الدامغة التي لا تقبل الشك بها والتي تثبت حق الشعب الفلسطيني في ارضه ووطنه بعد ان استولى الغاصبون على معظم هذه الارض ، ودمروا ما عليها من قرى وبلدات كانت تحمل اسماء فلسطينية عربية ، وبنفس الوقت كانت مسرحا متواصل العطاء متوارثا لفعاليات انسانية مارسها الأجداد والآباء عبر عصور وقرون من الزمان شكلت وجوده الانساني وتميزه على مساحة من الجغرافيا العالمية اسمها فلسطين . ويوم حلت النكبة وهجر هذا الشعب وكان التهجير ، حمل الشعب الفلسطيني معه منظومة عاداته وتقاليده ، افراحه واتراحه ، قيمه ومثله ، اساليب تعامله وتكيفه وردوده على تحديات البيئة الى منافيه في الشتات الواسع متعدد المناخات الثقافية والحضارية والايديولوجية . وصحيح ان التراث الفلسطيني لم يتعرض كله للاقتلاع من ارضه وبيئتيه الطبيعية والثقافية ، ذلك ان جزءا آخر من الشعب الفلسطيني ظل مرابطا على ما تبقى من الارض ومحتفظا بمخزونه من هذا التراث ، الا ان تراث الشعوب النامية بعامة والتراث الفلسطيني وهو المقصود هنا قد تعرض في النصف الثاني من القرن العشرين الى كثير من المتغيرات على خلفية التطورات التقنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وموجات العولمة الثقافية باعتبارها ثقافة الشعوب الاقوى والاغنى والحائزة على التقنية المتطورة - ولسنا هنا بصدد الحديث عنها الا في ما يخص التراث الفلسطيني - الا انها بمجملها تدفعنا وتحثنا على ان نعيد حساباتنا مع التراث بهدف الحفاظ عليه من غائلة الذوبان او التلاشي او الهجر او التنكر له او الاهمال او التفريط به . وبداية فان النكبة التي فرضت على الشعب الفلسطيني تجاوزت الارض واستهدفت الانسان بهدف تجريده من تراثه الذي كان ولا يزال احد مقومات وجوده الانساني وهويته الانتمائية الى المكان المتمثل "بالارض الوطن" والزمان المتمثل بالتاريخ . وفي ما يخص التراث تعرض بشتى الوسائل والاساليب القهرية الى حالات من الطمس والتعتيم عليه كونه مرتبطا بالارض والوطن والدار والهوية ارتباطا وثيقا ، ومن ناحية اخرى تعرض الى الاستلاب والانتحال من قبل الغاصب الذي نسب كثيرا منه الى ابداعاته وتفكيره . وثمة دوافع اخرى تخص المنافي والشتات التي يتواجد فيها الشعب الفلسطيني . فالاجيال الفلسطينية الناشئة تعايش او انها تفرض عليها ثقافات غير فلسطينية او عربية ، الامر الذي يهدد بانقطاع الصلة والتواصل مع الوطن الام بتراثه ومحدثاته .واذا ما اضفنا الى كل ما اسلفنا عوامل تطور الحياة تطورا سريعا مثيرا شمل كاف النواحي التي عمل على تغييرها الامر الذي دفع بالكثيرين للالتفاف على التراث وعدم الوقوف عنده واعتباره شيئا من مخلفات الماضي تجاوزته روح العصر والحضارة والتقنية . وفي هذا الصدد نشير الى ان شريحة اجتماعية ثقافية تطعمت بالثقافات الغربية قد تنامت في الوطن العربي ناظرة الى التراث ومجمل الثقافة العربية نظرة دونية ومحملة اياهما تبعات التخلف الحضاري والثقافي في شتى اقطار الوطن العربي ومنها بطبيعة الحال فلسطين ، وقد تعزز هذا التوجه في غمرة الهزائم السياسية والعسكرية والاقتصادية التي حصدتها السياسات العربية خلال نصف القرن الماضي والتي دفعت بالعديد من مثقفي هذه الشريحة الى المطالبة باعادة النظر في كل الموروثات العربية المسؤولة عن تكون التفكير والسلوك العربيين ومجمل ردود الافعال ازاء التحديات المفروضة ، وبمعنى اخر ضرورة الانفلات من

قيود التراث والثقافة الموروثة . وهذا بحد ذاته دافع رئيس يحث على رفض هذه المقولات المغرضة التي تهدف الى تغريب المجتمعات العربية وتجريدها من خصوصياتها وتميزها وثقافاتها ومجمل موروثاتها .

❋) ان الحديث عن التراث ذو شجون ، الا ان اهم ما يكن الحديث عنه هو يقظة الاهتمام الحالية لدى شريحة فلسطينية تعتبر ان العمل على اكتشاف مكتنزاته والحفاظ عليها واعادة نشرها جزءا لا يتجزأ من النضال لتثبيت الهوية الوطنية والحق في الارض الوطن وسلاحا للاجيال يضفي على شخصيتها الوطنية والثقافية ابعادا تعمق كل مجمل انتماءآتها للأرض والانسان ولكل الابداعات الأخرى .

❋) واذا كان لنا من رؤيا تخص التراث الفلسطيني في هذه الايام بالذات ، فهي تبدأ بالباحثين الذين اخذوا على انفسهم البحث عنه ودراسته واكتشاف العبر منه وتوثيقه ، وبهذا الصدد لا ينبغي بأي شكل من الاشكال التركيز على الجوانب الاقليمية منه بل ابراز الجوانب المشتركة مع بقية التراثات العربية بهدف ان تكون عاملا وحدويا لا اقليميا . وبالتالي فان مسؤوليات كل الجهات الثقافية تتعدى مجرد الاحتفاء به في يوم واحد الى ايجاد مؤسسات راعية ومطورة له في اطار كوادر علمية وفنية وميزانيات مخصصة . كما ان اخطر مسؤولية تقع على المناهج التربوية في كل المراحل التعليمية ، اذ لا بد ان تكون هناك مناهج للتراث جنبا الى جنب مع مناهج التاريخين الفلسطيني والعربي . وبهذا الصدد فان دور الاعلام اساسي في ابراز التراث ونشره وحتى تسويقه ثقافيا .

❋) وخلاصة القول ان الصراع على التراث والتاريخ في منطقتنا لا يقل اهمية عن الصراع على الأرض والماديات الأخرى بل هو جزء لا يتجزأ منها . والتراث الفلسطيني يستحق منا نحن احفاد مبدعيه ان نحافظ عليه وان نعيد له بهاءه ورونقه على طريق التواصل الذي هو مدخل الانتماء الى الانسان "والارض الوطن" .

السيرة الذاتية للكاتب لـطـفي زغـلـول

- من مواليد مدينة نابلس - فلسطين .
- حاصل على شهادة ليسانس في التاريخ ودبلوم التربية العالي وماجستير في التربية "تصميم مناهج" .
- شغل عدة وظائف اكاديمية منها مساعد عميد كلية نابلس الجامعية ، ومحاضر في جامعة النجاح الوطنية ، وقبل ذلك عمل مدرسا حكوميا ومستشارا ومحاضرا في مركز شؤون المرأة والاسرة في نابلس ، وشركة سامكو .
- عضو الهئية الاستشارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين .
- حاصل على شهادة تقدير من وزارة الثقافة الفلسطينية لفوز نشيده "نشيد الحرية" الذي مثل دولة فلسطين على مستوى الوطن العربي.
- حاصل على درع الفوز على "نشيد الحرية" على مستوى الوطن العربي ، من المملكة الاردنية الهاشمية .
- حاصل على مجموعة شهادات تقديرية ودروع من العديد من المؤسسات الوطنية والاهلية .
- حاصل على ميدالية التربية والتعليم التقديرية على مجهوداته الادبية والشعرية .
- حاصل على شهادتين تقديريتين من الابتسامة الجميلة العالمية وعلى "علم الابتسامة الفلسطينية" تقديرا له على نشيد "الابتسامة الجميلة" الذي ترجم الى اللغة الإنجليزية .
- اختيرت قصيدته "رماح ومشاعل" وقررت في مناهج اللغة العربية الاردنية والفلسطينية والجامعية.
- اختارت وزارة التعليم العالي من شعره "نشيد الشباب" ليكون نشيدا لكليات فلسطين التقنية في الوطن.
- احيا عشرات الامسيات الشعرية في الوطن والخارج مع شعراء من اليابان وانجلترا وفرنسا واسبانيا وتركيا واليونان والمغرب ومصر من خلال المشاركة في فعاليات مهرجان الشعر الدولي لعدة سنوات ، واسفاره المتعددة .
- مثل الوطن في العديد من الاقطار (الاردن ، مصر ، المغرب) .
- يحرر زاوية اسبوعية في صحيفة القدس بعنوان "همسة" يتناول فيها قضايا سياسية وثقافية وادبية وتربوية .
- يشارك في العديد من الندوات السياسية والتربوية والتاريخية .
- له حضور واسع على شبكات التلفزة والاذاعة المحلية والعربية .
- نظم مجموعة كبيرة من الأناشيد الوطنية والتربوية وللاطفال ، وقد تم اعتماد اناشيده (المرشدات والرياضة والكشافة) .
- ترجم العديد من قصائده إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- له موقع على شبكة الإنترنت.
- ترجم له في معجم "اعلام مدينة نابلس في القرن العشرين" .
- تم تلحين مجموعة من قصائده واناشيده الوطنية مؤخرا .
- تناولت ثلاث دراسات جامعية شعره بالتحليل والدراسة :
1- دراسة في شعر لطفي زغلول، بإشراف د. محمد جواد النوري .
2- دراسة في ديوانه "لا حباً.. الا أنتَ" بإشراف د. وليد جرار .
3- المرأة في شعر لطفي زغلول ، بإشراف د. زهير إبراهيم .
- تناولت دراستان للدكتور عبد الرحمن عباد لديوانيه :
1- اقرأ في .. عينيك . 2- هيا نشدو للوطن .
- تناولت دراستان مجموعته الشعرية الجديدة "مدار النار والنوار" للدكتور عادل الاسطه ، والدكتورة يمنى جابري .

الإصدارات الشعرية والنثرية:

1) المجموعتان الشعريتان : منك .. اليك (1994) :
- ايام .. لا تغتالها الايام
- على .. جدران القمر
2) لا حبا .. الا انت - شعر (1996)
3) المجموعتان الشعريتان : لعينيك .. اكتب شعرا (1997) :
- لانك .. انتِ انتِ
- انتِ .. اولا
4) اقرأ في .. عينيك : شعر (1998)
5) هيا .. نشدو للوطن : اناشيد وطنية ،
ط1 (1998) ، ط2 - ط3 (1999)
6) مناجاة : قصائد روحانية (1999)
7) المجموعتان الشعريتان : قصائد .. لامرأة واحدة (2000)
- على اجنحة الرؤى
- معا .. حتى الرحيل
8) كلمات لا تعرف الصمت : خمسة اجزاء (مقالات سياسية)
9) همس الروح : شعر (قصائد روحانية) (2003)
10) الكاتبات الفلسطينيات والانتفاضة :
مترجم عن الانجليزية (1992)
11) اقول .. لا : نصوص شاعرية (2001)
12) هنا كنا .. هنا سنكون : شعر (2002)
13) مدار النار والنوار : شعر (2003) .
14) طل القمر : اغنيات ، قصائد باللغة الدارجة
واغنيات اطفال باللغة الدارجة (مخطوطة) .
15) ليالي النار والياسمين : شعر (مخطوطة) .
16) موال في الليل العربي : شعر سياسي (تحت الطبع).
17) انتماء : مقالات في الثقافة والادب (مخطوطة) .
18) اغنيات لاطفال بلادي : شعر (مخطوطة).

للاتصال:

البريد الإلكتروني: lutfi_zag@hotmail.com
الموقع الإلكتروني: www.lutfi-zaghlul.com